جـــاد

حبٌّ برائحةِ البارود

روايـة

حيدر مسّاد

الطبـعـة الأولـــــى

2020م- 1442هـ

ديـــــوان العـــرب

للنشر و التـوزيـــع

دار ديوان العرب للنشر والتوزيع
ديوان العرب
حقق حلمك

عنـــوان الكتاب: جاد " حبٌّ برائحةِ البارود "

اســـم المـؤلف: حيدر مسّاد

التصنيف الأدبي: رواية

رقـم الإيـــداع: 22958 / 2020

الترقيــم الدولي: 2 - 41 - 6749 - 977 – 978

تـصـميـم الغلاف: م. رقية إبراهيم

التدقيــق اللغوي: د. هبة ماردين

التنسيق الداخلي: محمد وجيـــه

رقـــم الطبـعـة: الطبعة الأولى

المديـــر العام: د. فادية محمد هندومة

دار ديوان العرب للنشر والتوزيع - مصر - بورسعيد

جوال: 00201211132879

البريد الإلكتروني: mohamedhamdy217217@gmail.com

حقـوق الطبـع والنشر لهذا المصنف محفوظة للمؤلف، ولا يجـوز بأي صورة إعادة النشـر الكلـي أو الجزئـي، أو نسـخه أو تصـويره أو ترجمتـه أو الاقتبـاس منـه، أو تحويله رقمياً وإتاحته عبر شبكة الإنترنت، إلا بإذن كتابي مسبق من المؤلف أو الناشر.

جاد

حبٌّ برائحةِ البارود

رواية

حيدر مسّاد

2020

دار ديوان العرب للنشر والتوزيع
ديوان العرب
حقوق حلمك

فترة الكتابة

ديسمبر2019 – ديسمبر2020

haydermassad@yahoo.com

في بطن الأرض رواية وأشياء أخرى

اِحفرْ.. اِحفرْ

كانت تتكئ عليّ، تجرُّ قدميها بصعوبة وهي تسوقني إلى حظيرة المواشي، لم أكن أدرك ساعتها سرَّ هذا الإلحاح الغريب من جدتي على إيقاظي باكراً في هذا اليوم الربيعي من عام **2020**م، عام بداية انتشار الجائحة بفيروس كورونا، وقتها توقفت الحركة وتوقف العمل في كلّ أنحاء العالم بأمرٍ من الحكومات، كان عدد الوفيات في ازديادٍ كلّ لحظةٍ، وفي الوقت الذي كان عدد كثير من البشر في مناطق عديدة من العالم يلفظون أنفاسهم، كانت الأرض تلتقط أنفاسها... كان عمر جدتي وقتها يشارف على السبعين، ويبدو أنها خشيت الموت قبل أن تسلّمني الأمانة، لم يكن لدينا الكثير من المواشي، أدخلتني إلى الإسطبل، وأشارت لي إلى فأسٍ في الزاوية على يمين الباب، حملته وأنا أشعر بأني أبله، فكلما حاولت سؤالها عمّا تريد، كانت تنهرني بحزمٍ: "اُسكتْ يا ولد، اُسكتْ"، رغم أني تجاوزت العشرين من عمري، إلّا أنّ جدتي مازالت تناديني بالولد!! تقدمتُ إلى صدر الإسطبل

وهي تدقق النظر في الأركان، ثم أشارت إلى حمارنا الخدوم الواقف في نهاية الإسطبل، وقالت:

-أبعد هذا الحمار.. وإحفرْ تحته.

أخرجتُ الحمارَ من الإسطبلِ وعدتُ أحفرُ حيث أشارت، وكلما تملّكني التعب وتوقفت قليلاً لالتقاطِ أنفاسي، كانت جدتي تستعجلني:

"لا تتوقف، اِحفرْ.. اِحفرْ"

واصلتُ الحفر، وبدأتِ الشكوكُ تتسربُ إلى داخلي بأنَّ جدتي ربما مسّها الجنون، أو أصابها مرض الزهايمر، لم يبدد شكوكي سوى ارتطام الفأس بجسمٍ معدنيّ على عمق أقل من نصف متر، وعندما سمعت جدتي رنة المعدن، طلبت مني أن أحفرَ حوله بحذرٍ حتى أخرجه، لا أدري من أين جاءتني تلك القوة التي حفرت بها، ربما تلك الأفكار التي راودتني وأنا أضرب فأسي في الأرض، بأنَّ جدودي ربما تركوا لنا كنزاً من الذهب، ورحت أتخيلُ نفسي ثريا، وجال في ذهني بعض الأحلام التي طالما حلمت بها، ولم يكن واقعي البائس يشير إلى إمكانية تحقيقها يوماً ما...

كان الصندوق الذي أخرجته بطول متر واحد، وعرض يقارب نصف المتر، لكنه كان في حالة سيئة وقد بدأ الصدأ يلتهم أجزاءه، "افتحه بحذر" قالت جدتي.. لم أجد صعوبة في خلعه، كانت صدمتي كبيرة، وشعرت بخيبة أملي، وتبدد أحلامي، وأنا أشاهد ما احتواه الصندوق، ثوبٌ وعباءةٌ يلطخهما دمٌ متجمدٌ في أعلى الصندوق يغطيان باقي المحتويات، وضعته جانباً، فظهر

كيس من الكتان، احتوى بندقية إنجليزية قديمة مازال ظاهراً عليها أثر الدهان الذي طُليت به، بجانب الكيس الكتانيّ كان هناك كتابٌ ملفوفٌ بعنايةٍ بقطعةٍ خضراء من الحرير، ثم في أسفل الصندوق خنجرٌ بدون غمده، عليه آثار دماءٍ جفّت، فصبغت نصله بالأحمر القاني، وبجانبه مسدسٌ قديم بدت عليه آثار تقلبات الطقس عبر مرور سنين كثيرة دون عناية، وفي إحدى زوايا الصندوق المعدني صندوق صغير من الخشب، راودني أمل بأن يحتوي هذا الصندوق ما كنت أمنِّي النفس به، من ذهبٍ ومجوهراتٍ، فتحته على عجلٍ، فخاب ظني وتلاشت أمنياتي مرة أخرى، احتوى الصندوق الخشبي على ساعةٍ قديمةٍ من تلك التي كانت تعلق على صدور الرجال في بداية وأواسط القرن الماضي، كانت الساعة متوقفة، وفي إحدى زوايا الصندوق خاتمٌ زُيّنَ من طرفيه بالأحجار الكريمة صغيرة الحجم وحفر عليه جملة "بتوفيق الله"، وأسفلها اسم "جاد الله"... قطع دهشتي كلمات جدتي وهي تربت على كتفي:

-هذه الأمانة يا (ستي)، أوصلتها لك سليمة، وأبرأتُ ذمتي، الخيار لك الآن، إما أن تعيد دفنها، أو أن تستخدمها، ثم أدارت لي ظهرها وخرجت بخطى بطيئة وثقيلة، وتركتني في حالةٍ تمتزج فيها مشاعر الدهشة والحيرة والارتباك إلى أن اختفت جدتي عن ناظري...

كل ما احتواه الصندوق أثارَ فضولي، ما سرُّ الثياب الملطخة بالدم، والخنجر المغموس بالدم أيضاً؟؟ تلك البندقية القديمة، والمسدس الصدئ، ما هي

قصة كل هذه الأشياء؟! الشيء الوحيد الذي أثارَ فضولي بشدة في محتويات الصندوق وخمنتُ أنه ربما يفسر لي هذا الغموض كان الكتاب، كان سميكاً وكُتِبَ بخطِ اليد، كان الخط جميلاً يوحي بأنَّ كاتبه فنان، أبقيت على الكتاب، وأعدت باقي الأشياء إلى الصندوق، ثم أعدت دفنه مؤقتاً...

في تلك الليلة، عزلت نفسي في غرفتي وانكببْتُ على الكتاب قراءةً، ظهر لي في بداية الكتاب أنَّ كاتبه يدعى "حسن" وحسن هذا هو جدي لوالدي، وما أعلمه أنه استشهد في الثورة الفلسطينية التي اندلعت عام **1936**م ... مما يعني أن عمر هذه المخطوطة لا يقل عن خمسةٍ وثمانين عاماً.. بدأت أطالع المخطوطة باهتمام وتركيز شديدين، فقرأت فيها:

السَّبخة

الخميس التاسع والعشرين من تموز(يوليو) **1909** م

كانت الرائحة شديدة الكراهية، وهو يحاولُ تلمُّسَ طريقٍ آمنٍ إلى الجهة الغربية من البحر الميت، اليابسة جنوب البحر مائعة، تشبة الرمال المتحركة، مليئة بالسّبخة -وهو الاسمُ الذي يطلقه سكان المنطقة على المستنقعات الطينية النتنة والموحلة القريبة من البحر-كانت السّبخة تتشكل في فصل الصيف نتيجة انحسار مياه البحر باتجاه الشمال، بسبب التبخر الشديد في تلك المنطقة، في مثل هذه الأيام تقارب درجة حرارة الجو الخمسين درجة مئوية، ولأنها أخفض يابسة في العالم، فالضغط الجويّ فيها أكبر من باقي المناطق.. كانت لزوجةُ (السّبخة) تأتي من امتزاج مياه البحر شديدة الملوحة وتلك الشوائب والأتربة التي تجلبها عادة السيول من أعالي الجبال المحيطة في فصل الشتاء.. تبتلع السّبخة كل من يحاول تحديها وتخطيها..

بدا وهو يركب الحصان، شاباً وسيماً في الخامسة والعشرين من عمره، رغم صرامة وجدية وجهه الذي لوحته الشمس ذو صحةٍ جيدةٍ وبنيانٍ قويّ، تظهر عليه علامات رغد العيش في زمنٍ كانت الغالبية فيه تعاني من الفقر

والجوع بشكل أو بآخر.. علامات التنعم هذه هي التي جعلته مطمعاً لصاحب الحصان الهرم الذي ابتاعه منه قبل ساعات، فغالى في سعره، دفع للرجل ساكن عريشة القصب في بلدة الصافي ثلاث ليرات ذهبية مقابل الحصان والخُرج، وقليلاً من الطعام والشراب لرحلته الطويلة والشاقة..

جال بنظره مستكشفاً المنطقة، رأى المستنقعات تمتد عدة كيلومترات باتجاه الجنوب، لا يتقبل فكرة العودة إلى الجنوب، باتجاه وادي عربة، فقبل يومين داهمه قُطاع طرق في وادي عربة، وسلبوه ناقته التي اشتراها من المدينة المنورة، وحذاءه العسكري الثمين وخمس ليرات ذهبية كان يضعها في كيس من القماش على سبيل التمويه، فقد كان يتوقع أن يداهمه قُطاع الطرق، أما باقي ثروته التي منحه إياها السلطان عبد الحميد الثاني فقد أخفاها جيداً في ملابسه، عندما وزعها وخاط عليها ثوبه وباقي ملابسه هناك في إسطنبول، خاط على كلّ ليرة ذهبية لوحدها ببطانة من الداخل، كان يلبس ثوباً وسروالاً من الذهب الخالص، سلبَ قُطاع الطريق ما وجدوه ظاهراً، ولم ينتبه أحد منهم إلى ثقل حركته..

أما الجانب الشرقي للبحر الميت فهو وعرٌ جداً، ولا توجد طريق باتجاه الشمال، تمنى لو أنّ هناك طريقاً سالكاً في الجانب الشرقي للبحر الميت، لسهل عليه الأمر واختصر كثيراً من الوقت والجهد، نعم هي مسافة طويلة، أكثر من تسعين كيلو متراً، لكنه لو سلكها كان سيجد نفسه شمال البحر الميت، حيث الأمان الذي ينشده في رحلته التي ابتدأت قبل أسابيع عديدة،

ومن شمال البحر الميت إلى أريحا، ثم يصعد منها باتجاه الطرق المأهولة إلى بلدته برقان..

ليس أمامه سوى اجتياز منطقة السّبخة باتجاه الغرب، حيث طريق القوافل المعروفة باتجاه مصر والحجاز، تلك الفسحة الضيقة من الأرض المنبسطة ما بين البحر والجبال الغربية لما يعرف بأخدود حفرة الانهدام، المسافة إلى تلك الطريق لا تتعدى الكيلو مترين، "لكنها خطرة" قال لنفسه.. لفت نظره ذلك اللون الأبيض الذي يمتد عشرات الأمتار من مياه البحر، "هذه أرض صلبة" قال في سرّه.. اتجه شمالاً على حصانه الذي يكاد يسير مبتعداً عن المستنقعات الطينية، حتى صار بموازاة الشاطئ الجنوبي للبحر الميت، حيث الأملاح المترسبة وقد أصبحت كتلة صلبة مع مرور الأيام، وجّه الحصان باتجاه الغرب وبدأ يتحرك على هذه الطبقة الملحية، كانت طبقة صلبة لونها أبيض مائل إلى الصفار بفعل حرارة الشمس الحارقة، مع سكون البحر كان صوتُ خطوات الحصان قوياً وله صدى يرتدُّ من الجبال، مما جعله يطمئن إلى سلامة خياره، رغم ذلك فهو يتحرك ببطءٍ وحذر، فقد تعود أن لا يطمئن لظاهر الأمور والأشياء، "على مهلك أيها الهِرِم، لا نعلم ما تخفي هذه الصلابة الظاهرة تحتها" قال للحصان بصوتٍ مرتفعٍ..

كان قد حلّ وقت الزوال، عندما قارب على الوصول إلى الجانب الغربي، ذلك الوقت الذي يختفي فيه ظل الإنسان وكلّ الأشياء، ويزول نتيجة وصول الشمس إلى كبد السماء وتعامدها مع سطح الأرض.. رغم بطء خطوات

الحصان إلا أنه كان يلهث بفعل حرارة الجو الشديدة، مع اقتراب وصوله واطمئنانه تخلى عن حذره، أراد أن يستعجل الحصان ليقطع الخمسين متراً المتبقية بسرعة، فلكزه بقدمه حاثاً إياه على الإسراع، لم يكد الحصان يتحرك خطوتين بسرعة حتى خسفت الأرض تحته بدائرة قطرها أكثر من مترين، وراحت تغوص قوائمه في السّبخة المختفية تحت طبقة رقيقة من الملح، طبقة لم تحتمل ثقل خطوات الحصان عليها، وفي ثوانٍ قليلة، كان الحصان غارقاً في طينٍ شديد اللزوجة حتى أعلى بطنه، ثم تباطأ الغوص، كان جاد الله مذهولاً من المفاجأة، حاول أن يقفز عن ظهر الحصان لكن قدميه المنغمستين في الطين لم تسعفاه، وثقل ملابسه المحشوة ذهباً أفشلت أي محاولة للقفز، أمال جسده جانباً بقوة، وانتشل قدمه اليسرى بصعوبة، وأسقط جسده عن ظهر الحصان، متشبثاً برقبة الحصان الهَرِم الذي استسلم لمصيره، تدريبه العسكري زرع في نفسه عدم الاستسلام، وأنّ هناك حلاً مختفياً في كلّ موقف مهما كانت صعوبته، وتعلم أنّ العقل ورباطة الجأش كفيلان أن يخرجانه من أيّ مأزق، وعلمه تدريبه العسكري أن لكلّ مكان خصائصه وبيئته التي تميزه عن غيره، فتعلم كيف يستفيد من خصائص المكان، ويسخرها لخدمته.. راح ينظر حوله، مسطح من الملح الصلب، لا شيء سوى نتوءات ملحية متفرقة، يسميها أهل المنطقة الفطر أو(المشروم)، لأنها تشبه في شكلها نبات الفطر، وتتشكل بسبب ترسب الأملاح على جسم صلب كجذع شجرة أو غصن جلبته

سيول الشتاء فتتراكم عليه الأملاح أثناء ترسبها فتصير على شكل فطر صلب..

ممسكاً برقبة الحصان راح يفكر بسرعة، بدأ يفك اللجام عن الحصان، اللجام موصول بحبل يقارب طوله المترين، ما أن انتهى من فك اللجام حتى كان لا يظهر من الحصان سوى رأسه، أمسك اللجام وطرف الحبل بيده اليمنى ورفعه إلى الأعلى ويده اليسرى تتشبث برأس الحصان، رمى اللجام على واحدة من النتوءات الملحية لكنه لم يسقط عليها، جذبه بقوة إليه فارتد إليه ضارباً صدره، ثم ركّزَ مرة أخرى، وصاح بصوتٍ شقَّ سكون المكان مستغيثاً "يا الله" ورمى اللجام، فشبك بالنتوء الملحي، سحب ببطءٍ الحبل حتى أحسَّ باشتداده، أزاح يده عن رأس الحصان الذي غمر الطين فمه، وتمسك بكلتا يديه بالحبل، وأخذ يجر نفسه ببطءٍ وحذرٍ باتجاه الأرضية الملحية الصلبة، كان يشعر بثقلِ جسده وصعوبة انزلاقه داخل السّبخة وهو يلهج بالدعاء أن لا يتحطم النتوء قبل وصوله إلى الحافة.. دقائق ثقيلة وطويلة كأنها الدهر مرت حتى وصل إلى حافة اليابسة، فأمسك بها، ظل ممسكاً بالحبل وهو ينتشل جسده الذي أثقله الطين الآسن والذهب المخبأ، زحف مبتعداً عن حافة الانهيار، ثم جلس، يلهث، وهو يرى رأس الحصان يختفي عن ناظريه رويداً رويداً.. حزن على الحصان، فهو لم يتسنَّ له حتى محاولة إنقاذه، "كان سيموت من هرمٍ على كل الأحوال، لم يكن ليستطيع إكمال الطريق معي"برر لنفسه عدم إنقاذ الحصان، "إذا

وجد المرء نفسه في مستنقع مع آخرين، فعليه الإسراع بالخروج أولاً، لن يستطيع انتشال الآخرين من المستنقع وهو منغمسٌ فيه"...

كان قريباً جداً من الموت، نظر إلى ثيابه كانت مثقلة بالطين الآسن، وبالذهب أيضاً، انفرجت شفتاه عن ابتسامة صغيرة رغم سوء الموقف، أخذ يتأمل المشهد "كيف يجتمع الضدان في مكانٍ واحد، يخالط جسده الآن ذهبٌ خالص وطينٌ آسن كريه، حال يشبه إلى حد بعيد اجتماع الخير والشر في النفس البشرية".. كم يحتاج إلى بعض الماء ليتخلص من هذه الكراهة، لا... بل أولاً ليرطب حنجرته التي تخشّبت من العطش.. نهض وسار بحذر تلك الأمتار المتبقية من الأرضية الملحية المرعبة حتى وصل إلى الأرض الترابية في الجانب الجنوبي الغربي من البحر الميت..

كيف سيكمل مسيرته؟.. ففي هذه المنطقة المشؤومة فقد حصانه الآن، وقبلها بيومين، فقد راحلته في وادي عربة، ودربه طويل وشاق...

النداء

عند الغروب
تعود الطيور إلى أعشاشها
ومن أوكارها تنطلق الوحوش

قرر جاد أن يواصل الحركة رغم الإعياء الشديد الذي يشعر به، كان يريد الوصول إلى طريق القوافل باتجاه الغرب، لعلّه يجد ما يطفئ عطشه أو يجد ظلاً يقيه شمس الأغوار الحارقة.

مشى بخطواتٍ بطيئةٍ مُيمِمَاً وجهه إلى الغرب، كان مثقلاً بأحمالٍ تحني الظهر: الذهب الذي يحمله معه، وملابسه المشبّعة بالوحل والأملاح، أما أثقل حملٍ فكان تلك الأمانة على شكل وصية التي حملها معه من (سلانيك) تلك المدينة ذات الطابع اليهودي، كانت بالنسبة له هي الحِمل الأكبر والأثقل، وصية ستغير وجه الحياة في فلسطين والمنطقة، أدخل يده في سرواله يتحسس مسدسه الذي أخفاه جيداً بربطه أسفل فخذه من الداخل.. كان يتهيأ له أنّ صوتَ أنفاسه اللاهثة يمكن سماعها من على بعد كيلو مترات، السكونُ يطبقُ على المكان، لا يشير إلى أي مظهر من مظاهر الحياة، جاءه إحساس أنه الكائن الوحيد الحيّ على الكرة الأرضية، أو أنه

يسير في الفضاء الكونيّ، حيث الفراغ التام إلا من وجه ربه الذي كان يكثر من التوجه إليه بالدعاء والمناجاة مسموعاً حيناً وصامتاً أحياناً كثيرة..
عندما وصل إلى الطريق لاحت له هناك في الأعلى خربة مسعدة، وبانت من الأسفل كم هي صغيرة تلك القلعة الرومانية المهدمة التي أقيمت على أنقاض بلدة كنعانية قديمة، حدّثَ نفسه لربما كان فيها ماء! لكنَّ المكانَ مرتفعٌ جداً، ولا يوجد طريق ظاهر إليها، جسده المنهك لا يقوى على تسلق تلك الصخور حادة الارتفاع، كان بالنسبة له الوصول إلى واحة عين جدي أسهل بكثير من الصعود إلى خربة مسعدة، فهي تبعد ما يقارب العشرين كيلو متراً.. أبعد فكرة الصعود إلى القلعة المهدمة من رأسه، خاصة أنه لن يضمن توفر الماء فيها، التف بجسده نحو جهة الشمال محبذاً السير في طريق القوافل المنبسطة السهلة وقال لنفسه: "رغم قلة بل ندرة العابرين لهذا الطريق في مثل هذا الوقت من العام، إلا أنني أتمنى بأن أصادف شخصاً ما يغيثني بشربة ماء، وإن لم أصادف أحداً، فلا بد وأن أجدَ الماءَ على أطراف الطريق، فعادة ما يتم حفر الآبار على مثل هذه الطرق لتتزود منها قوافل المسافرين والتجار بالماء"
سار في الطريق الضيق: البحر الميت عن يمينه وسلسلة الجبال عن يساره.
حتى لاحت على جانب الطريق له، شجرة خضراء وحيدة.. راسخة جذورها.. تجذب العابرين المنهكين.. ما أن وصلها حتى انهار جسده في ظلها، دقائق حتى بدأت أنفاسه بالهدوء، جلس يستكشف المكان بناظريه، مكان قاحل

وجادب، إلّا من هذه الشجرة التي يستظلُّ بها، وهناك تراءى له ابتسامة سوسنة سوداء.. ناعسة.. تتوسَّد حجراً.

لاحظ أن ظل الشجرة قد صار مثلها أو زاد قليلاً، فأدرك أن وقت صلاة العصر قد حلَّ، تيمَّمَ وصلى العصر قصراً، كما اعتاد أن يصلي طوال رحلته.

عاود الاستلقاء على الأرض، وغط في نومٍ عميق سيريحه قليلاً، قبل ساعات الليل الصعبة القادمة.

"انهض يا جاد الله" صوت ضرب في رأسه فأيقظ عقله، لكنّ حواسه لم تستيقظ بعد، تململ في نومه قليلاً.. تكرر الصوت مرة ثانية: "انهض يا جاد الله"، فتح عينيه على مشهد النجوم تتلألأ في السماء، والقمرُ بين النجوم بدرٌ يغازلُ البحر..

جلس يتلفَّتُ حوله، لم يستطِع تحديد مصدر الصوت، الظلام يخيّم على المكان، ضوء القمر منحه فسحة من وضوح الرؤية، وزاد الرؤية وضوحاً انعكاس ضوء القمر على صفحة البحر، فخفَّفتْ قليلاً من عتمة الليل، اعتقد لوهلةٍ أنه كان يحلم، وأنه من الصعب أن يعرفه أحد، وينادي في هذا المكان القَفْر، لكنّ الصوتَ عادَ للمرة الثالثة: "انهض يا جاد الله، أسرع".. صاح جاد بصوت مترجرج: "من؟"، "من ينادي؟".. لم يجبه أحد، شعر أن الكون كله صامت، إلا من صوت الريح الذي يسكن نهاراً، ويتحرك ليلاً في بعض ليالي الصيف في هذا الجزء من حفرة الانهدام، وصوت ارتطام الأمواج على الشاطئ يصله من بعيد، وحاول جاد أن يطمئن نفسه، أنها ربما من

أحلام اليقظة، أو ربما استيقظ جسده لكنّ دماغه بقي نائماً للحظات، "تحدث كثيراً هذه الحالة خاصة عند شخص منهك كان يتوق بشدة للنوم" قال في سرّه.. نهض وهو عاقد العزم على استكمال مسيره ليلاً قبل قدوم النهار وحرارته، أكمل حديثه لنفسه: "الليل أشد وطأة على الخائف، لكن وطأته أهون من العطش.. يا إلهي، سيقتلني العطش".

لم يكد يتحرك بضع خطوات حتى خُيّلَ له أنه سمع صوت قهقهة متقطعة، نظر باتجاه الصوت، كتلة من السواد هناك بين الحجارة المتناثرة على بعد خمسين خطوة إلى الغرب باتجاه الجبل، وعينان تلمعان في قلب العتمة...

الشيب

توسعت حدقتا عينيه، كقطٍ بريّ متحفز، وهو يحاول تركيز نظره لمعرفة ماهية هذه الكتلة السوداء التي صدر عنها الصوت، لكنه لم يستطِع تحديد ماهيتها.. أخذت تلك الكتلة السوداء تقترب من جاد، حتى صارت على بعد بضع خطوات منه، وبدأت ملامحها تتحدد قليلاً، راح ذهنه يخمن كل الاحتمالات: "إنسان، جان، ذئب، ضبع، نمر؟.. لا ليس ذئباً هو أكبر من الذئب وأكبر من الضبع، ربما نمر، نعم هذه المنطقة معروفة بانتشار النمر العربيّ فيها"..

"فصيلته لا تهمني، المؤكد أنه وحشٌ كاسر"، كان يحذر نفسه محدثاً إياها..

مع اقتراب الوحش كان جاد يدسُّ يده في سرواله، محاولاً انتزاع المسدس المثبت إلى فخذه الأيمن، كان جاد أشولَ بارعاً في الرماية بيده اليسرى.

كان يحفز نفسه قائلاً - وهو يحاول إخراج السلاح الذي لم يرد الخروج بداية الأمر-:

" قاتل يا جاد، إن عدمت الحيلة قاتل"

"الخوف والارتعاش لن يساعدك، فلا تجعل من نفسك فريسة"

تذكر كلمات جده (عبد الوارث) له في صغره:

"الوحوش تشم رائحة الخوف، إياك أن تنطلق منك رائحة الخوف"

"داخل كل إنسان وحشٌ كاسر، يظل يجاهد كل العمر ليقمعه ويمنعه من الانفلات، إذا واجهت يوماً ما وحشاً حقيقياً وجهاً لوجه؛ فأطلق سراح الوحش الذي بداخلك، لتنتصر وتنجو "

"استسلامك لن يغير رأيّ الوحش، سيفتك بك، استسلامك لن يجعله يرأف بك، سيمزقك إرباً"

"لن تنجو إن استسلمت للوحش، من المؤكد أن يفتك بك، لا تجعل مهمته سهلة"

"إن قاتلت وواجهت ربما تنجو"

"عليك أن تجعل الوحش يحترمك، حتى وهو يقتلك"

"فليعلم الوحش أنه قتل وحشاً، وليس فريسة وديعة"

عندما أخرج مسدسه، كان الوحش على بعد خمس خطوات يتهيأ للانقضاض، لم يكد جاد يصوب مسدسه المحشو، حتى كان الوحش في الهواء باتجاه صدره، انطلقت رصاصة في الهواء، وسقط المسدس من يده وهو يحتضن الوحش، لافاً ذراعيه حول عنق الوحش صانعاً من ساعديه ما يشبه الكماشة على عنق الوحش، وسقطا أرضاً، الوحش على الأرض وجاد الله فوقه، ضاغطاً بساعديه بكلّ قوة على عنق الوحش إلى الأسفل، مثبتاً الوحش على الأرض، الوحش يحاول الانفلات من بين ذراعي بقوة لم يخبرها جاد الله قبل هذه اللحظة.. مرت الثواني وجاد يستخدم كل قوته لتثبيت

الوحش أرضاً، لكن الوحش أقوى منه، أدرك جاد أنه لن يستطيع الصمود كثيراً في إبقاء الوحش تحت السيطرة، بدأ الإعياء يدبُّ في ذراعيه، وأيقن أنّ ذراعيه ستنهاران بعد ثوان قليلة، أخذ ينظر حوله باحثاً عن المسدس حتى رآه على بعد ثلاث خطوات، صار لديه خطة.. ظل يضغط بكل قوته على عنق الوحش الذي عبّأ صوته المكان بشكلٍ مرعبٍ، جاعلاً رأسه يلتصق بالأرض، بدأ يحرك قدميه وركبتيه، حتى صار في وضعٍ قريب إلى وضع القرفصاء، وضعٌ يشبه ذلك الذي يأخذه عداؤو المسافات القصيرة قبل الانطلاق، ثم بنفس التوقيت الذي فك يديه عن عنق الوحش، قفز قفزة واحدة باتجاه المسدس فالتقطه ساقطاً على ظهره، صوّبَ المسدس باتجاه رأس الوحش الذي نهض وقفز باتجاه جاد فاغراً فاه، فانطلقت رصاصة واحدة، وحط الوحش بكل قوته على صدر جاد الذي حمى وجهه وعنقه بكلتا ذراعيه.. لم يكن جاد الله متأكداً إن كانت رصاصته قد أصابت هدفها.. لكنه أحس بسخونة على وجهه وعنقه، مع صوت يشبه الحشرجة يتخللها شخرات قوية، أدرك جاد أن رصاصته أصابت الهدف، بكل قوته دفع الوحش عن صدره جانباً، ثم نهض ومازال المسدس في يده، كان الوحش حياً، لكنه لم يقوَ على الحراك؛ فقد اخترقت الرصاصة سقف حلقه وخرجت من مؤخرة رأسه، مخلفة فتحة كبيرة يمكن لقبضة يد جاد أن تدخل فيها.. كان الوحش ينظر إليه بخنوع واستسلام، شعر جاد الله أنّ عينيّ الوحش تتوسلانه أن ينهي معاناته.. راح جاد يتأمل الوحش، لم يشاهد مثله

في حياته، حيوان فيه ملامح من الذئب وبنفس الوقت يشبه الضبع لكنه أضخم منهما، "ما هذا الكائن الغريب؟!" ، سأل جاد الله نفسه متعجباً.. لم يطل التأمل حتى تذكر حديث كبار قريته في مضافة والده في واحدة من تلك السهرات المعتادة، التي كان يجلس فيها جاد يستمع بشغف إلى القصص والأحاديث التي كانوا يروونها، تذكر أنهم تحدثوا عن حيوان هجين نادر، يسمى الشيب، ينتج عن تزاوج ذئب مع أنثى الضبع، عندما لا يجد الذئب أنثى ليتزاوج معها، يحدث أن يتزاوج مع أنثى الضبع، وعادة ما يكون هذا التزاوج نادراً، قد تتوفر ظروفه ويحدث كلّ ثلاثين عاماً مرة واحدة، لينتج حيوان الشيب الذي يمتلك صفات وخصائص مميزة، فله قوة الضبع وشراسته وخفة الذئب ورشاقته وذكائه، وحجمه أكبر من كليهما، لكنه عقيم لا ذرية له، ويبلغ من قوته أنّ الذئاب والضباع لا تستطيع مواجهة هذا الوحش الكاسر وتهرب منه..

الوحش، كلمة ذكّرته بالوصية التي يحملها، ففي جزء منها ذكر السلطان المعزول هذه الكلمة حرفياً، عندما قال له:

"الوحش قادم إلى بلادكم، فعد إليها يا بني وواجهوه بكل ما أوتيتم من قوة وبكل وسيلة"

تذكر جاد الله هذه الكلمات وهو يتأمل حيوان الشيب الضخم أمامه، ثم وجّهَ كلامه إلى الوحش وهو ينظر بعينيه:

"نعم، وحشان متشابهان، هجينان، الخيانة والشهوة وتزاوج المصالح أوجدكما في بلادنا"

ألصق فوهة مسدسه بين عينيّ الشيب، وأطلق رصاصة، جعلت رأس الشيب يرتفع بقوة، ثم يرتد إلى الأرض مع الشخرة الأخيرة له، وقد خمدت أنفاسه.

عاد جاد إلى تلك الشجرة، جلس تحتها بحثاً عن القليل من الراحة، ولتهدأ نفسه قليلاً من رعب هذه الليلة، وبدأت أفكار مضحكة تجول في خاطره، لماذا عاد ليجلس تحت الشجرة، الوقت ليل، وهو لا يحتاج لظلها.. لماذا ساقته غريزته وسجيته إلى الشجرة، شيء غريب وعجيب! كان جاد مفكراً يحاول دائماً طرح الأسئلة الصعبة والغريبة، والبحث عن إجابات منطقية مقنعة لعقله، حاول الإجابة وهو يجلس تحت الشجرة، قال لنفسه، "ربما احتجت لأنيس أقترب منه في هذا المكان الموحش، ربما احتجت للأمان، أعتقد أنّ الاستناد إلى جذع الشجرة يشعرني بالحماية، وأغصانها المتشابكة فوقي كسقف بيت، تشعرني بالاطمئنان والحنو، الشجرة كائن مسالم ثابت في مكان منبته، لا يغادره أبداً إلا بالاقتلاع من قوة غاشمة تعتدي على وجودها.. "

"عليّ أن أواصل المسير، لا وقت للفلسفة، هذه الأفكار الساذجة لا تسمن ولا تغني من جوع، ولا حتى تسقيني شربة الماء التي أحتاجها".

نظر إلى السماء، وتحرى مكان القمر في السماء والنجوم، فعرف أن الوقت قد تجاوز منتصف الليل..

بعد أن ارتاح قليلاً، وشعر بسكينة نفسه وهدوئها، نهض وبدأ المسير باتجاه الشمال، البحر عن يمينه وكتلة الجبال السوداء عن شماله، مُمنياً نفسه أن يصل واحة عين جدي قبل أن ينتصف النهار وتشتد حرارة شمسه.. هل سيصل جاد إلى مبتغاه، أم أنّ القدر يخبئ له شيئاً آخر...

البئرُ المهجورة

بدأ جاد الله مسيرته الليلية باتجاه واحة عين جدي شمالاً، البحر عن يمينه وتلك الجبال الجرداء عن شماله، لكنه هذه المرة أبقى مسدسه في يده، متحفزاً لأيّ طارئ في هذا الليل الموحش إلّا من القمر الذي بدأ بالأفول.. كانت خطواته بطيئة مثقلة بالتعب والعطش وخليط الذهب والطين الذي جفَّ على جسده وملابسه.. لم يكن جاد يخشى شيئاً من جهة يمينه شرقاً، هو يعرف أنه لا شيء يعيش في هذا البحر ولا حياة فيه لشدة ملوحته، لذلك أسموه البحر الميت.. خشيته كانت من جهة اليسار غرباً، تلك الجهة التي يمكن أن يخرج منها كل شر إليه، الغرب الذي يمكن أن يأتي منه الموت على شكل لصٍ أو قاطعِ طرقٍ يطمع في سرقة سهلة، أو وحشٍ ضارٍ يبحث عما يملأ منه معدته، ويشبع به بطنه...

بعد ساعات من المشي لم يكن القمر ظاهراً في السماء، خمّنَ جاد الله أنه ربما قطع نصف المسافة أو أقل إلى عين جدي، بنظرة خبيرة إلى الأفق غرباً حيث رؤوس الجبال – التي بدت كوحوش عملاقة رابضة ونائمة، تنتظر أول الضوء لتستيقظ من سباتها- فبان له فوقها الخيط الأبيض وذاك الأسود قبل أن تنشر الشمس شبكة خيوطها على تلك الأرض، فأدرك أنه

وقت انفجار النهار، وأنّ صلاة الفجر قد حانت، تيمَّمَ للصلاة، ثم استدار نصف دورة باتجاه الجنوب مائلاً قليلاً إلى الشرق باتجاه القبلة حيث الكعبة، وصلى ركعتيّ الفجر، أطال فيهما السجود وأكثرَ من دعاء ربه ومناجاته...

ثم واصل جاد سيره إلى بغيته بخطى أبطأ وأثقل، عندما أطلت الشمس بهالتها الحمراء من بين رؤوس الجبال الشرقية البعيدة، تهيأ لـ جاد لوهلةٍ أنها وحشٌ كتلك الوحوش التي ذكرت في الأساطير، وحش كان يبحث عن جاد ووجده أخيراً؛ أطلَّ برأسه ليمتصَّ روحه ببطءٍ على مدار نهار كامل من اللهيب الحارق، في ذلك الوقت كانت شمس الأغوار هي ألدّ أعداء جاد الله وأكثر مخلوقات الله وحشية وضراوة.. راحت الشمس ترتفع رويداً رويداً في السماء، ومع كل ارتفاع لها، كانت تواصل غرس سيف لهيبها في روح جاد دون رحمة، وروح جاد تواصل الهروب لتنجو، حيث واحة عين جدي التي اقترب منها كثيراً كما كان يطمئن نفسه، في محاولة يائسة منه لرفع معنوياته، لعلّه يستخرج من جسده المنهك بعض قوة تعينه على المقاومة والاستمرار...

ازدادت خطوات جاد بطئاً وثقلاً، فقد خارت قواه، ولم تعد قدماه قادرتان على حمل رأسه الذي صار ثقيلاً، يومان كاملان لم يدخل جوفه شيء، إلا الهواء الذي صار يتنفسه بصعوبة، الأرض تمتصُّ طاقته وقوته كما تفعل بالجثث تحتها عندما تتركها عظاماً نخرة، والشمس الحارقة تبخر دمه من

العروق، وتسعى حثيثة لتجفيفه، بصعوبة تحسس بيده وجهه الملوح: شفتاه مشققتان بعمق، بدت التشققات كضربات من سكين في شفتيه، لم يرَ جاد أن شفتيه ابيضتا تماماً، وأن عيناه غائرتان في رأسه، وبدت للناظر كعيني ميت مضى على موته عدة أيام..

جاد الله يترنح، يمشي ويسقط، ثم ينهض بصعوبة، يمشي عدة خطوات ويسقط، ثم يعاود النهوض، ويواصل ترنحه، لم يبقَ في جسده قوة للاستمرار، إنه يتحرك فقط بقوة الأمل التي في روحه، ثم هو يعرف أنه أمام خيارين لا ثالث لهما، إما المقاومة التي قد تنجيه رغم ضعف هذا الخيار، أو الاستسلام للموت، والخيار الثاني هو أسهل الخيارين لكن نتيجته محتومة ومؤكدة وهي النهاية بالموت، ليكون طعاماً للوحوش المتربصة في هذا المكان.. لكن خيار المقاومة هو الخيار الذي يحوي في طياته الأمل، حتى وإن كان ضئيلاً، وهذا الخيار يتطلب صبراً وجلداً كبيرين.. الأمل والصبر أمران متلازمان لا انفكاك بينهما، ومرتبطان بحبلٍ سري يغذي أحدهما الآخر، إن فقدت الصبر؛ تبخر الأمل، وإن مات الأمل؛ تلاشى الصبر.. الصبر هو الطريق الصعب إلى الأمل المنشود، لا يعود الصبر طريقاً مجدياً إن لم يكن هناك أمل يضيء في نهاية الطريق...

بدأ جاد الله يفقد تركيزه الذهني، وأخذ يتمتم بكلمات غير مفهومة للسامع.. وأطلت من ثقب الذاكرة مشاهد قديمة اعتقد أنه نسيها، ها هو يرى نفسه طفلاً مع بقية أطفال قريته التي نشأ وترعرع فيها، يجوبون طرقات القرية في نهاية شهر ديسمبر، وقد عفروا وجوههم بالتراب، حفاة قد خلعوا أحذيتهم، ولبس كل واحد منهم ثوبه مقلوباً، يهزجون أنشودتهم السنوية، وقد انحبس المطر عن أراضي آبائهم التي بذروها منذ أسابيع قمحاً وشعيراً وعدساً وسمسماً.. ها هو يرى نفسه معهم يحملون سراجاً وينطلقون جميعاً صبية وبنات بعد صلاة العشاء ينشدون مناجاتهم لربهم:

يا الله الغيث يا ربي

يا الله الغيث يا ربي ... اسقِ زرعنا الغربي

يا الله الغيث يا ربي ... الخبز قرقد[1] في عبي*[2]

يا الله الغيث يغشينا ... يبلل بشت[3] راعينا

ثم يتوجهون بالسراج إلى بيت جده القديم ويتابعون إنشادهم:

قوموا اسقونا دار الشيخ ... المية عليكم زيح

قوموا اسقونا بالغربال ... ليت ابنيكم[4] خيال

قوموا اسقونا بالطاسة ... ليت ابنيكم ع راسي

---

[1] كركد: قرقد أي نشف وجف وتيبس

[2] عبي: داخل ثيابي

[3] بشت:معطف

[4] ابنيكم: صيغة تحبب من ابنكم

ثم يضعون السراج على الأرض ويتجمعون حوله في حلقة ويصيحون:

يا سامعين الصوت صلوا على النبي

سراج بين كانونين[5] ما ينطفي؟!

يا خيبتنا![6]

من الله عزتنا ... ومن الله رجوتنا

يا الله لا تكسر النا خاطر ... اِرسل غيثك علينا ماطر

ثم ينطلقون عائدين إلى بيوتهم، الغالبية العظمى من المرات كانوا يصلون بيوتهم وقد بللهم المطر.

[5] كانونين: بين موقدين أو بين كانون الأول وكانون الثاني كناية عن تأخر المطر

[6] خيبتنا: خسارتنا وخذلاننا.

كان جاد الله مستعداً في تلك اللحظات التي أخذ يهذي فيها، أن يدفع كلّ ما معه من ذهب مقابل شربة ماء واحدة، يستعيد بها حياته التي بدأت الولوج في ظلمة الغياب، كان هذيانه تمتمة متقطعة بأنشودة الاستسقاء الطفولية:

يا الله الغيث يا ربي .. يا الله الغيث يا ربي .... تسقي زرعنا الغربي....، عندما وقعت عيناه فجأة على بضعة حجارة مبنية على شكل دائرة، هناك على بعد مائة مترٍ غرباً باتجاه الجبل، فأدرك أنها بئرٌ من تلك الآبار التي حفرها القدماء على جانب طريق القوافل.. وصلها مترنحاً على قدميه حيناً، وزاحفاً حيناً آخر، انكفأ على باب البئر، فأنعشت راتحة البئر الرطبة رئتيه، وزادته شوقاً إلى الماء.. نظر إلى داخل البئر فلم يرَ شيئاً، كان معتماً، مرت لحظات وهو ملقٍ رأسه في فوهة البئر، حتى بدأت تتضح الرؤية لديه قليلاً، "يا إلهي، البئر فارغة" قال في نفسه.. بعد وقت من تحديقه داخل البئر، اتضحت لديه الرؤية تماماً، كانت البئر خالية إلا من بقايا ماء في واحدة من جنبات قعرها.. نظر حوله باحثاً عن دلوٍ ينتشل به؛ لم يجد.. لم يكن هناك سوى قطعةٍ غليظةٍ من الخشب كانت جذعاً لشجرة، تم دقها في الأرض بجانب البئر، ويبدو أنها دقت هنا بهدف ربط الدلاء فيها عند انتشال الماء من البئر..

بعد كل هذه المعاناة، ها هو الماء أمام ناظريه، لكنه لا يستطيع الوصول إليه، راح يفكر في كيفية انتشال الماء من البئر، لكن ذهنه لم يكن قادراً على

التركيز لابتداع طريقة ما ينتشل بها الماء، وهو الذي عرف عنه عندما كان ضابطاً ذهنه المتوقد والقادر على ابتكار وابتداع الحلول لأي مشكلة كانت تواجههم كجنود، عدة دقائق من التفكير المشوش لم يسعفه بها عقله في إيجاد الحل، لكن ذاكرته أسعفته في حيلة كان يستخدمها وهو صبي عندما كان يخرج مع أبناء عمومته إلى الجبال للصيد، كثيراً ما كانوا يجدون أنفسهم وقد بلغ بهم العطش بدون ماء، وعند أول بئر يصادفونها كانوا يروون عطشهم حتى وإن كان ماء البئر محسوراً، ولا يستطيعون الوصول إليه، كان يخلع كلٌّ منهم ثوبه ويربطون الأثواب ببعضها على شكل حبل طويل، يدلونه إلى قاع البئر، فيتشبع طرف حبل الثياب بالماء، ثم يسحبونه من البئر، ويعصرون الماء الذي امتصته الثياب في أفواههم، كانوا يكررون هذه العملية مراراً حتى يشرب الجميع ويرتوون.. لم يتطلب الأمر منه تفكيراً، وبحركة تلقائية تلفت حوله ليطمئن إلى عدم وجود أحد، أعاد تثبيت مسدسه أسفل فخذه، ثم خلع قمبازه (وهو الاسم الدارج للثوب الذي يرتديه)، وخلع سرواله، ثم فتلهما بشكلٍ طوليّ وربطهما ببعضهما على شكل حبل، أدلى بحبل الثياب داخل البئر، لكن الحبل لم يصل إلى القعر حيث الماء، كان يحتاج الحبل إلى نصف متر أخرى لينغمس في ماء البئر.

كانت البئر محفورة على شكل كمثرى في الصخر، قبل بداية الارتفاع إلى الجبل، قدر جاد الله عمق البئر بأكثر من ثلاثة أمتار، وقُطر فوهتها يقارب المتر، تتسع البئر كلما نزلت إلى الأسفل حتى تصل إلى القاع التي يقارب قطره الثلاثة أمتار، لم تكن غريبة ضآلة الماء في البئر في نهاية الصيف.. قرر جاد أن يستخدم حبل الثياب لينزل به إلى البئر، سحب الحبل من البئر وربط طرفه في الجذع المدقوق على حافة البئر كمربط للدلاء، فك مسدسه عن فخذه، وسار بضع خطوات حيث رجم حجارة قريب، أزاح بعض الحجارة ووضع المسدس، وأعاد الحجارة إلى مكانها فغطت المسدس، خشي على المسدس والذخيرة من غمرة الماء، عاد وشدَّ حبل الثياب وتأكد من متانة عُقَد الربط، لكنه غفل عن اختبار متانة الجذع المثبت في الأرض، رمى حبله داخل البئر، وراح يتدلى عليه بحذرٍ، كان النزول بهذه الطريقة يحتاج تدريباً جيداً، وجاد مُدربٌ على ذلك، لكنه إضافة للتدريب كان يحتاج جهداً عالياً وقوة كبيرة، رغم الوهن الذي يعاني منه جسده، إلّا أن حاجة جسده الملحة للماء جعلت هرمون الأدرينالين في أعلى مستوياته داخل جسده المنهك، ذلك الهرمون الذي يفرزه الجسم عند الخطر لمضاعفة قدراته على مواجهة أي تهديد للحياة.. نزل المتر الأول، ثم في نهاية المتر الثاني وبداية الثالث سمع طقطقة في الأعلى، لم يسعفه الوقت للتفكير في ماهية الطقطقة، عندما انخلع الجذع الذي ربط الحبل به، فهوى جاد بقوة إلى قعر البئر، وتبعه حبل الثياب الذي صنعه، والجزء العلوي من الجذع

الذي بدا ـبفعل الزمنـ متسوساً في جزئه السفلي المختفي في التراب، لم يحتمل الجذع الثقل فانكسر.

صرخ جاد من أثر السقوط، لكنه لم يفكر في الأمر ولم يكن يعنيه ما حدث في تلك اللحظة، نهض جاد وألقى بجسده في الركن الذي يرقد فيه الماء، وراح يعبُّ الماء كجملٍ أهلكه العطش، حتى ارتوى، ثم زحف إلى الجانب الجاف من البئر، واستلقى على ظهره... كان صدره يرتفع ويهبط بشدة وقلبه يدق بقوة، وصوت أنفاسه قوية مسموعة إلى أن ارتاح قليلاً؛ فانخفض صوت أنفاسه، واستقر صدره، وهدأ قلبه.

كان العطش الشديد الذي وصل إليه بالنسبة له تحدياً كبيراً لحياته، كان في لحظات فاصلة بين الحياة والموت، لحظات كانت أقرب إلى الموت منها إلى الحياة، كان ماء البئر هو القوة التي أعادته إلى الحياة من جديد، أدرك أن الله كتب له حياة جديدة بعد محنة العطش، لكنه لم يدرك بعد أنه وقع في اختبار آخر، ومحنة أخرى، ربما تكون أكبر وأشد من محنه السابقة مجتمعة...

طائر الحسُّون

في البداية كان المكانُ معتماً، ثم ما لبثت عيناه أن تكيّفت مع المكان وقلة الضوء فيه، واتضحت له جدران البئر وقعرها، نهض يتحسس الجدران، لعلّه يجد فيها بعض النتوءات قد تساعده إن حاول التسلق، كانت الجدران ملساء إلا من بعض الشقوق التي كانت كفواصل بين الطبقات الصخرية "مستحيل" تمتم لنفسه، "حتى لو أني وجدت النتوءات والشقوق التي أبحث عنها، فلن أستطيع الخروج دون مساعدة أحد ما في الأعلى خارج البئر".

كانت البئر كمثرية الشكل، وفي مرحلةٍ ما من التسلق سيصل إلى ذلك الانحناء قبل الفوهة، سيكون جسده إلى الأسفل وكأنه يحبو على سقف غرفة، وسيسقط حتماً..

"لست قرداً لأستطيع تسلق الجدار المنحني" قال ساخراً وكأنه يخاطب عقله.

جلس على الجهة الصخرية وأسند ظهره للجدار، وراح يفكر ويحدث نفسه:

"ما الذي يحدث معي؟! لماذا أخرج من محنة لأدخل في أخرى؟! لماذا غيرت طريقي ووجهتي في آخر لحظة لأواجه كل هذه المصاعب والمصائب؟!"

لم يكن جاد يحبذ كلمة مصائب، كان جاد يعتقد أن لا شيء يحدث دون حكمةٍ ما وراءها.

علمه جده أشياء كثيرة في الحياة، وأعطاه بعضاً من الحكمة التي وهبه الله إياها، ما زال يذكر تلك القصة التي حدثت معه وهو في الثالثة عشر من عمره، وحالة الحزن التي انتابته وبكاءه على طائر الحسُّون الذي اصطاده قبل أسابيع من فقده، لقد أحبّ الحسون حبّاً شديداً وتعلّق به، وكان يعتبره صديقه الذي يسري عليه بغنائه العذب، وألوانه الجميلة، ما زال يذكر الريش الأحمر القرمزي في مقدمة وجهه، والبياض الناصع لريش وجهه حتى رقبته وكل بطنه، وذلك اللون الأسود لذيله وأطراف جناحيه، واللون البني لريش ظهره، والأصفر الذي يسرّ الناظرين في منتصف جناحيه.. صنع له قفصاً من أعواد الخيزران، كان ينام بجانبه كل ليلة، إلى أن جاءت تلك الليلة التي استيقظ فيها صباحاً، ولم يجد طائره في القفص، بحث عنه في كل مكان داخل البيت وحوله، كان كالتائه، يبحث مذهولاً ودموعه تنهمر بغزارة وينتحب، كأم أضاعت طفلها.. جاء جده عبد الوارث على صوت نحيبه المرتفع، أشفق عليه وهو يشهق بحرقة، أخذه جده بحضنه ربت على كتفه، أخذه إلى مجلسه، أجلسه إلى جانبه، وراح يتحدث إليه ويواسيه، مازالت كلمات جده له في تلك الحادثة مؤثرة فيه، آمن بها بعد أن أيقن صدقها، وصارت كلماته واحداً من مبادئه التي يرتكز عليها حتى بعد كل هذه السنوات.. قال له جده:

"لا تحزن يا بني ولا تبتئس، إنها إرادة الله وحكمته، إن الله يختار الأفضل لعباده الذين يتوكلون عليه، ويسلمون أمرهم إليه، تدابير الله خير من تدابير البشر مهما اجتهدوا"

كانت دموع جاد تتساقط بصمتٍ وهو يستمع لجده، لكن حزنه لم يهدأ، ظنَّ أنَّ كلامَ جده كلام لمواساته لا أكثر، ولم يرَ طائلاً منه، أيّ كلام لا يعيد له طائره، هو كلام غير مفيد، لكنه تابع الاستماع لحديث جده الذي واصله: "يابني لا تبتئس كثيراً لأي أذى يصيبك، أعلم أنَّ الله بهذا الذي تظنه أذىً قد منع عنك به أذىً أكبر وأشدّ، أو أنّه يخبئ لك نعمةً كبيرةً وخيراً عظيماً في الدنيا خلف هذا الأذى، لن تراه في لحظته، لكنك ستدركه بعد حين وتشكر الله".

قطع حديث جده صرخة أم جاد تستغيث، هرعَ الجدُ وهو يتناول سيفه المعلّق على الجدار إلى حيث الصوت، ولحق به جاد الله خائفاً، عندما وصلا كانت أمه في زاوية غرفتها منكمشة مذعورة، والجدُ يسألها بانفعال:

- ما بكِ يا حسنية؟

أشارت إلى غطاء فراشها:

-إنها تحت اللحاف.

تقدم الجد باتجاه الفراش وهو يسأل

-ما هي؟

-أفعى كبيرة رأيتها تحت اللحاف. قالت وهي ترتجف.

أشهرَ الجدُ سيفه وتقدمَ بحذرٍ وأزاحَ اللحاف، كانت أفعى كبيرة ملتفة على نفسها، عندما رآها الجد ابتسم وأعادَ السيفَ إلى غمده، نظر إلى جاد الله وقال له:

ـ"هات يد المهباش تلك واقترب".

تناول جاد يد المهباش -وهي عصا غليظة يدقون فيها القهوة في جرنٍ خشبي ليطحنوها قبل غليها على النار- ومدها إلى جده

ـ"لا تخف يا جاد، اقترب واقتل الأفعى".

استغرب جاد هدوء جده أمام أفعى قاتلة، واستغرب أكثر طلب جده منه أن يقوم هو الصبي الصغير بقتلها، نظر إلى جده نظرة خوف واستغراب وتساؤل.

-لا تخشَ منها، فهي لا تستطيع الحركة، الأفعى (بالعة).. دُق رأسها بضربة واحدة وكن حذراً.

تقدم جاد بحذرٍ ورهبةٍ، وهوى بمقدمة عصا المهباش على رأس الأفعى فسحقه، ارتعش ذيل الأفعى عدة رعشات، قبل أن تخمد تماماً بالضربة الثانية التي ألصقت رأس الأفعى بالأرض.

انتاب جاد الله إحساسٌ بالقوة تلك اللحظة بعد أدائه هذه المهمة الرجولية نسبة لعمره الصغير، استلَّ الجدُ خنجره، وشقَّ بطن الأفعى بعد أن مدَّدَها، ثم أخرجَ من بطنها الكائن الذي ابتلعته والذي أعاق حركتها وجعلها كالمشلولة..

كانت صدمة جاد كبيرةً، عندما شاهد جده يخرج صديقه طائر الحسّون من بطن الأفعى، وعاوده البكاء وهو يحتضنه ويضمه إلى صدره، أخرجه من صدمته سؤال جده:

ـ "أين كان الطائر ليلة أمس؟"

ـأجابه جاد بأنه كان بجانبه وهو نائم..

ابتسم الجد لجاد وهو يذكره بكلامه قبل دقائق:

ـ"ألم أقل لك، لا تبتئس ولا تحزن لقضاء الله، أرأيت تدبير ربك، ماذا لو لم تلتهم الأفعى هذا الطائر وأنت نائم بجانبه، كانت ستلدغك أنت، ألم يمنع ربك عنك الشر عندما افتداك بهذا الطائر، ثم ماذا لو لم تكن هذه لأفعى مشلولة الحركة في فراش والدتك، هل كانت ستنتظرنا حتى نأتي لقتلها؟ .."

في تلك اللحظة أدرك جاد ما يعنيه جده في حديثه، ومنذ ذلك الوقت، وكلّ التجارب التي مرَّ بها وكلّ ما حصل معه في حياته يؤكد صحة حديث جده، حتى صار لديه إيمان ويقين، فصار هذا الإيمان واليقين يخفف كثيراً عليه في ذروة أيّة محنة يواجهها مهما اشتدت عليه... اغرورقت عينا جاد الله عندما تذكر جده عبد الوارث الذي توفي هناك في بلدته برقان وجاد بعيداً عنه في الغربة، وتذكر نهاية حادثة الأفعى والحسّون عندما قال له جده:

-اذهبْ وادفنْ صديقك بما يليق بمعزته عندك.

دفنَ جاد صديقه طائر الحسّون عند عتبة البيت أمام العقد ليبقى قريباً منه.. لكنه لم يشارك في دفن جده عبد الوارث باني بلدته (برقان) وكبيرها وشيخها الجليل.

تساءَلَ جاد في نفسه وكأنه يواسيها:

"تُرى ما هو الخير الذي يخبئه لي ربي من وراء هذه المحن المتلاحقة، وإن لم يكن هناك خير، فما هو الشر الذي منعه ربي عني".

" أم أنّ هذا المكان فيه نهايتي ومنيتي؟ بعد موتي هنا في هذه البئر اللعينة، هل سيجدني أحد؟ وإن وجدوني هيكلاً عظمياً هل سيتعرف عليّ أحد؟!! عشتُ وحيداً غريباً بعيداً عن أهلي وديياري، وربما أموت وحيداً غريباً أيضاً".

كان التنفس في البئر ثقيلاً وصعباً، الحرارة والرطوبة تكاد تخنقه، نهض إلى حبل الملابس، وفكَ ثيابه وغسلها من الوحل الذي جفّ عليها، ثم لبسها، وجلسَ ينتظر الفرج من عند الله وهو يردد قوله تعالى: "إنّ مع العسر يسرا، إنّ مع العسر يسرا".

كان أمله أن يرِدَ على البئر عابرٌ ما، ينقذه من الموت المؤكد الذي ينتظره، إن بقي هنا، وليزرع في نفسه الأمل الذي يساعده على الصمود، أستذكر قول الشاعر:

"ولرُبَّ نازلة يضيق لها الفتى ذرعاً.. وعند الله منها المخـــــرج
ضاقت فلما استحكمت حلقاتها فرجت.. وكنت أظنها لا تفرج".

ثم مرَّ أمامه شريط أحداث الأشهر الماضية، تلك الأحداث التي ساقته إلى هذا المكان وجعلته يقبع في هذه البئر المهجورة:

الانقلاب.. العزل.. الوصية.. تبديل خطة العودة.. تغيير الطريق.. قرار أداء العمرة...

تُرى ما الذي حدث في الأشهر الماضية، وما هي قصة الأمانة والوصية التي يحملها؟؟.

قبل ثلاثة أشهر

الانقلاب

الوحدة تستدعي الذكريات السيئة..
الذكريات السيئة تجلب الاكتئاب..
الاكتئاب ينتج الحزن..
الوحدة والحزن حالتان متلازمتان.. عندما ينكفئ الإنسان على نفسه في وحدة طويلة يعتاد الاكتئاب ويدمن الحزن.. عند البعض الحزن إدمان، تراهم في ذروة الأحداث السعيدة يبتسمون ولكن بعيون حزينة.. لكن جاد الله ليس من هذا النوع من البشر، كان جاد الله ذا شخصية قوية، كان في حياته متفائلاً دائماً وإيجابياً، اكتسب هذه الشخصية الفريدة إضافة لما أودعه الله به من قدرات ومواهب من جهتين: الأولى تربية والده وجده المبنية على الحكمة في التصرفات تجاه المواقف الصعبة، والإيمان واليقين بقضاء الله وقدره، وتعلمه طريقة التفكير الصحيحة والإيجابية منهما. والجهة الثانية التي صقلت شخصيته، هي التربية العسكرية في الجيش

العثماني التي أكسبته رباطة الجأش في المواقف الصعبة، والقدرة الكبيرة والدقيقة على الإدارة والتنظيم.

رغم ذلك فمع حلول الظلام، انتابته حالة من الحزن وهو يستعرض ذكريات الشهور الثلاثة الماضية وأحداثها.. أسوأ هذه الذكريات، هو ذلك اليوم الذي أطلق عليه جاد الله (اليوم الأسود) قبل ثلاثة أشهر، يوم السابع والعشرين من شهر إبريل(نيسان) من هذا العام ألف وتسعمائة وتسعة **1909**م، الموافق السادس من ربيع الآخر للعامِ الهجريِّ ألف وثلاثمائة وسبعة وعشرين **1327**...

في ذلك اليوم كان جاد الله وهو واحد من الضباط العرب القلائل ضمن كتيبة الحرس في القصر السلطاني في مركز الخلافة (الأستانة)، والبالغ عددها حوالي خمسمائة جندي وضابط بعد أن عاد من بعثة تدريبية في ألمانيا حصل فيها على المركز الأول، وكان جاد الله يحظى بثقة القصر كضابط شاب ابن واحد من علماء الدين الفقهاء الذين لهم صلة بالقصر السلطاني وهو والده (نور الدين)، وحفيد واحد من أخلص الجنود الذين خدموا دولة الخلافة العثمانية وهو جده عبد الوارث الذي توفي قبل سنتين..

أعلنت في ذلك اليوم حالة الطوارئ في القصر.. جهّز الجميع أسلحتهم للدفاع عن القصر، تم توزيع أفراد الحرس على مداخل قصر (يلدز) مقر

السلطان، بانتظار المعركة المنتظرة، بينما جاء توزيع جاد الله مع آخرين للدفاع عن شخص السلطان، فظلّ جاد الله ملاصقاً للسلطان لا يفارقه أبداً.. كان الجميع على استعداد للقتال حتى الموت، عندما تفاجأ الجميع من أوامر السلطان عبد الحميد الثاني لقائد الحرس بأن لا يبدي الحرس أي مقاومة للقوات الاتحادية –التابعة لجمعية الاتحاد والترقي ذات النزعة القومية التركية–التي اجتاحت في اليوم قبل الفائت **25** إبريل العاصمة إسطنبول قادمة من مقرها في مدينة (سلانيك) ذات الأغلبية اليهودية، وقتلت وأعدمت الكثيرين بعد أن سيطرت على العاصمة إسطنبول.. كان (الاتحاد والترقي) هو الجناح العسكري لجمعية (تركيا الفتاة) التي تأسست في باريس بتشجيع ودعم من الغرب واليهود، حيث نظر وروّج للفكر القومي التركي أشخاص مثل اليهودي (موئيز كوهين) في كتاب له أسماه "الرّوح التركية".

حاول قائد الجيش الأول أن يثني السلطان عن قراره، لكنه لم يوفق في ذلك، وكان رد السلطان عبد الحميد "لا أريد أن تراق قطرة دم واحدة، إنهم مسلمين مثلنا".

حاول المجلس المشكل من جمعية الاتحاد والترقي في اليوم الفائت الضغط على (شيخ الإسلام) و (أمين الفتوى) لانتزاع موافقة منهم والتوقيع على خلع السلطان عبد الحميد بتهم واهية للسلطان منها إيقاف العمل

بالدستور وحرق المصاحف وقتل المسلمين وعدم العمل بالشريعة وهي تهم مخالفة لواقع الأمر لكنها محاولة منهم لكسب الرأي العام والتحريض على السلطان عبد الحميد، لكنهم لم ينجحوا، ونجحوا في أخذ توقيع بعض علماء الدين الآخرين، وفي نفس اليوم الفائت طلب المجلس من الصدر الأعظم (توفيق باشا) أن يبلغ السلطان عبد الحميد بقرار العزل لكن الصدر الأعظم رفض ذلك، فأرسلوا له وفداً يضم أربعة أشخاص من قادة جمعية الاتحاد والترقي لإبلاغ السلطان خبر عزله وهم:

عارف حكمت باشا (التركي).. (آرام) الأرمني.. (أسعد طوطاني) الألباني..

(عمانويل قارصو) اليهودي

كان جاد الله يراقب ويستمع للحوار الذي يجري باهتمام شديد، ولاحظ بفراسته تلك الابتسامة الخبيثة المتخفية في وجهه المدعو (قارصو)..

قرأ عارف باشا على مسامع السلطان عبد الحميد قرار العزل الصادر من المجلس المشترك، فوافق السلطان عبد الحميد الثاني بكل هدوء ورصانة، لكنه أشار بإصبعه باتجاه المدعو (قارصو) ووجه كلامه الحازم لبقية الوفد:

"ما عمل هذا اليهودي في مقام الخلافة..؟؟ وبأيّ قصد جئتم بهذا الرجل أمامي؟؟"

قال السلطان هذا الكلام وهو يعلم من المعلومات التي تم جمعها خلال عام من مراقبة تحركات جمعية الاتحاد والترقي أنها تحظى بدعم كبير من الغرب واليهود والماسونية وأنها مخترقة بشكل كبير بدعوى القومية التركية.

تم إجلاء السلطان وأسرته وبعض مرافقيه والضابط العربي الشاب جاد الله كان واحداً منهم إلى مدينة سالونيك ذات الطابع اليهودي بواسطة القطار، ولم يسمح لأحد منهم بأن يأخذ شيئاً من ممتلكاته، وصودرت أموال الأسرة، لكن النساء لا يُعدمنَ الحيَلْ فقد أخذن معهن الكثير من الجواهر والحلي والذهب، وكذلك حمل بعض الرجال الليرات الذهبية، بتعاطفٍ فرديّ من بعض الجنود الذين لم ينتهِ ولاؤهم للسلطان والمكلفين بنقلهم بشكل سريّ هناك في بيت يمتلكه أحد اليهود يشبه القصر..

أفاق جاد من هذه الذكريات المؤلمة على نور يتسرب إلى البئر، كان القمر يطل عليه من فوهة البئر، ظل جاد ينظر إلى القمر حتى أفل عن ناظريه، وعادت إليه عتمة المكان الأولى.. كانت وحدته الرهيبة في قعر هذه البئر المهجورة تذكره بمحنة النبي يوسف بن يعقوب التي وردت في القرآن، فكانت قصة يوسف تبعث الأمل في نفسه، وكان يمنيها بأن الذي أنقذ يوسف من محنته وأوحى له بالطمأنينة في ذروة خوفه ووحشته وبالتمكين في ذروة ضعفه وقلة حيلته، قادر على أن ينقذه ويمكنه في القادم من أمره...

صفقة القرن

عاودته ذكريات رحلته المؤلمة، عندما استدعاه السلطان بعد شهرين من إقامة السلطان الجبرية في سلانيك، وقف جاد أمام السلطان المخلوع بنفس طريقة وقوفه عندما كان السلطان في قصر (يلدز)، بكثير من الاحترام والتبجيل، كان جاد ما زال يعتبر السلطان عبد الحميد خليفة المسلمين رغم عزله وإقامته الجبرية، كانت نظرات السلطان إلى جاد فيها كثير من الشفقة، شفقة لم يفهم جاد سببها، إلا عندما بدأ السلطان المعزول يتحدث، قال:

"حان وقت عودتك إلى ديارك يا بني"

رد جاد دون تردد:

"أنا سأخدم مقام مولاي السلطان دون مقابل.."

بإشارة من يده أوقف السطان كلام جاد ومنعه من الاسترسال:

"لا، أنت لم تفهم قصدي يا بني، أنا لا أضيق من رجالي، لكن ديارك تحتاجك أكثر من حاجتي لك".

صمت قليلاً، ثم أكمل حديثه:

"الوحش قادم إلى بلادكم، فعد إليها يا بني، وواجهوه بكل ما أوتيتم من قوة، وبكل وسيلة"

-"لم أفهم يا مولاي، هلّا أوضحت لي الأمر."، علّق جاد مستوضحاً.
أخذ السلطان نفساً عميقاً، ثم أخرجه بتنهيدة طويلة، أوحت لجاد الله بحجم الهم الذي يحمله هذا الرجل:
"كنت على علم بالاجتماعات التي يجريها اليهود بشكل سري منذ عشرين عاما أي منذ عام **1882**م، في دول أوروبية عدة، ومنها روسيا القيصرية في محاولة منهم لإقامة دولة يهودية تجمعهم، لذا قمت عام **1983**م بإصدار قانون الإرادة الثانية من قانون الأراضي والذي نص على جعل ثمانين بالمئة من أراضي فلسطين، أراضي وقف تابعة للدولة وخصصت عشرون بالمئة من الأرض ملكيات خاصة، وحرصت على تمليك أفراد من رعيتي أراض كثيرة واسعة بشرط زراعة هذه الأراضي وإقامة تجمعات سكنية فيها، وكل أرض خاصة لا يتم زراعتها لمدة ثلاث سنوات يتم مصادرتها وضمها لأراضي الدولة...".
كان جاد الله يعلم من جده عبد الوارث أنّ أراضي بلدتهم (برقان) قد تملّكها جده من أراضي الدولة بأمر من السلطان لرجاله الثقات عام **1878**م وكانت في الأصل خربة لمدينة فلسطينية قديمة جداً، لم يبقَ منها سوى الآثار، بعض الحجارة منذ أكثر من خمسة آلاف عام، وأن جده قام بدوره باقتطاع أجزاء من الأراضي لأفراد آخرين.. كان جده يهب سبعين دونما لكل من أراد زراعة الأرض والسكن فيها، ويملكه إياها، حتى صار

عدد البيوت في بلدته عام **1890** أحد عشر بيتاً بإحدى عشر عائلة من عشائر مختلفة، قدموا من مدن وبلدات محيطة، شكلت هذه العائلات نواة البلدة وخريطة عشائر وحمايل برقان..

واصل السلطان حديثه:

"كنت على علم بكل هذه النوايا منذ زمن، بواسطة جهاز استخبارات الدولة القوي، كنت قبل ذلك وفي عام **1876**م قد أصدرت مذكرة قانونية تمنع بيع الأراضي العثمانية وخاصة الفلسطينية منها لليهود منعاً باتاً وشكلت جهازَ شرطة خاصاً لمتابعة هذا الأمر، ثم بعد أن تم اكتشاف عدة محاولات لاختراق قانون الأراضي العثمانية من قبل بعض اليهود وبعض موظفي الدولة المرتشين، أمرت عام **1887**م بفصل سنجق القدس عن ولاية سوريا وأتبعته إلى مركز الخلافة (الأستانة) لتكون هذه المنطقة وأراضيها تحت رقابتي وعنايتي الشخصية.

بعد هذه الإجراءات المشددة وتلك الاجتماعات السرية اليهودية، جاءني إلى إسطنبول في عام **1896**م وبالتحديد في شهر يونيو/حزيران من ذلك العام، واحد من قيادات اليهود ويدعى (ثيودور هرتزل) وهو صحفي يهودي، وقابلني بعد إلحاح شديد، وكان يملك معلومات كاملة عن الضائقة المالية التي تواجهها دولتنا، وكنت على علم بكتابه الذي كتبه عن "الدولة اليهودية" قبل مقابلتي بأربعة شهور أي في شهر شباط/ فبراير وجاء فيه

أنهم إن لم ينجحوا في أخذ فلسطين فيمكن أن يكون وطنهم في أوغندا أو الأرجنتين.. في تلك المقابلة عرض عليّ هذا اليهودي سداد ديون الدولة كاملة وتزويد الخزينة بفائض من المال مقابل السماح لليهود بالهجرة إلى فلسطين، هذه المقابلة موثقة، وقد كنت أحرص على توثيق كلّ الاجتماعات ومثل هذه المقابلات الشخصية..

استهلَّ هيرتزل حديثه بعد أن عبر عن احترامه وتقديره لنا، ومن ثم تطرق إلى طلبه الرئيس قائلاً:

"إن الأمة اليهودية ومنذ زمن طويلة تتعرض لأقوى وأبشع أنواع الذل والاستحقار والإقصاء، ومن أجل تخليصها من أنواع العذاب الشرسة هذه، فإن كل ما نريده هو قبولكم لهجرتهم لفلسطين لا لشيء سوى إنقاذهم من التمييز البشع الذي يتعرضون له في أوروبا والقيصرية الروسية وأتعهد لكم في مقابل قبولكم هذا بسداد جميع ديون الدولة العثمانية، وحتى تزويد الميزانية والخزينة العثمانية بفائض عن حاجتها"

كان جاد الله يصغي لحديث السلطان عبد الحميد بكل اهتمام وتركيز،

-"وماذا كان ردكم على هذا الخبيث يا مولاي؟"

"رددت عليه بالحقيقة الراسخة في اعتقادنا وإيماننا، قلت له:

-لا أستطيع بيع حتى ولو شبر واحد من هذه الأرض، لأن هذه الأرض ليست ملكاً لشخصي، بل هي ملك أمتي، أخذت هذه الأرض بالقوة وسكب الدماء، ولن نسلمها لأحد إلا بالقوة وسكب الدماء، والله لإن قطع جسدي

قطعة قطعة لن أتخلى عن شبر واحد من فلسطين، فليحتفظ اليهود بملاييننهم لن أقبل أن يقتطع من جسدنا لأي غرض كان إلا إذا كنا جثثاً هامدة"

سادت لحظات صمت شقها جاد الله بسؤال السلطان:

"وماذا ترى يا مولاي؟.. ما العمل؟"

خرجت من صدر السلطان زفرة قوية ثم قال:

"أنا متشائم يا بني، تكالبوا على أمتنا من الخارج ومن الداخل، خفضنا ميزانية الجيش من تسعة عشر مليون ليرة ذهبية إلى سبعة ملايين ليرة بسبب الحرب الاقتصادية التي تشن علينا، فاضررنا لزيادة الضرائب وفرض المزيد منها..

الأحداث التي تجري تنبئ بكارثة على الأمة، هذه الجمعية المسماة (تركيا الفتاة) أو (الاتحاد والترقي) ذات توجهات قومية شوفينية، وهذا سيكون على حساب القوميات الأخرى من أمتنا، والعرب أحد هذه القوميات التي ستدفع ثمن هذا الانهيار في المفهوم الذي شكل دولتنا، والأساس الذي بنى عليه أجدادي دولتهم وهو الدين.. وهذه الجمعية صارت تحكم الإمبراطورية الآن، لن تهتم كثيراً لباقي قوميات المسلمين الأخرى من رعايا دولتنا ولا لأراضيهم، خاصة أنها مخترقة من اليهود ودول الغرب.. منذ أن بدأت هذه الجمعية نشاطها وأنا أحاول مقاومة انتشارها وتغللها في مفاصل الدولة والسيطرة عليها، فقمت باعطاء أدواراً للقوميات غير التركية في

الحكم، قمت في عام... بتعيين الحسين بن علي شريفاً على مكة والحجاز وحاكماً لها، وصار أبناؤه أعضاءً في البرلمان التركي، وقمت بفتح باب التجنيد لكل أبناء القوميات المسلمة الأخرى، لكن فشلت في منع سيطرة هذه الجمعية على مفاصل الدولة والجيش، وأنت شهدت الانقلاب الذي قاموا به بمساعدة ودعم الأوروبيين واليهود ومنظمات الماسون، الدول يا بني قبل انقضاض أعداؤها الخارجون عليها وهدمها، تتفتت من الداخل أولاً، وهذا ما أراه يحدث الآن ومنذ سنوات مضت...

لذلك ها أنا أقول لك عد إلى ديارك فما هو قادم إليها مهول، وأنت شاب ذكي وقوي ولديك القدرة على التنظيم والتصدي لما رأيته وأراه يحاك لديارك في عتمة.. سأعطيك بعض المال ليعينك على مهمتك التي تعجز عنها دول وإمبراطوريات، هذا أقصى ما أستطيع تقديمه لقضيتك القادمة"

نادى السلطان على ابنته (شادية) فخرجت تحمل معها صندوقاً صغيراً، ابتسمت لجاد وناولته إياه.

قال السلطان وهو يهم بالانصراف:

"لن يسمحوا لك بالخروج فيه من هذا البيت، اخفِ المال جيداً، وانصرف، إلى اللقاء يا بني".

كان جاد مذهولاً من الموقف في حينه.. خلال مرور شريط الذكريات هذا وجاد قابع في قعر البئر، كان بين حين وآخر يتهيأ له أنه يسمع أصواتاً في الأعلى، فيصرخ منادياً إن كان هناك أحد، لكنه لم يكن يلقى أية إجابة،

فاعتقد أنها مجرد تهيؤات.. لم تتوقف التهيؤات على توهم الأصوات، صار يتهيأ له أن هناك وجوهاً تطل عليه من فوهة البئر في الأعلى ثم تختفي، تعوذ بالله من الشيطان، وقرأ المعوذتان، وتذكر في وحشة هذه العتمة والمحنة التي يواجهها قصة النبي يونس في جوف الحوت فانطلقت من فمه بصوت مسموع:

"لا إله إلّا أنت سبحانك، إني كنت من الظالمين" وراح يسبح الله في جوف البئر..

لم يدرِ كم من الوقت مضى عليه وهو يُسبح الله، حين بدأت تصل أذنيه أصوات بعض العصافير الساعية إلى أرزاقها بعد أن شق سيف النهار ستار تلك الليلة.

نورا

نورا ابنة الشيخ غياث، ذات السبعة عشر ربيعاً، من أجمل فتيات العشيرة، بل هي الأجمل على الإطلاق، وزادها الله إضافة لجمالها بسطة في الذكاء والفصاحة.

كانت تجتمع في شخصيتها فراسة ابنة البادية وشهامتها، ونشاط القروية ودفئها، ورقي المدينة ونعومتها، ولم تكن هذه الصفات فيها من باب المصادفة، فهي من أصلٍ بدويّ، صفات البداوة متأصلة فيها وفي فطرتها... جدها الشيخ ظاهر كان شيخاً لقبيلة تتنقل صيفاً وشتاءً في رحلات مكررة كل عام بين جبال الخليل صيفاً إلى دفء الأغوار شتاءً، قبل أن يقرر والدها الشيخ غياث الاستقرار على كتف الجبال الغربية للبحر الميت، في منطقة هي أقرب للغور منها إلى الجبل هناك في عين جدي، وتوقفت رحلات الصيف والشتاء الدورية، على خلاف أبناء عمومته، أبناء الشيخ غزوان الذين ظلوا محافظين على عادة الترحال بماشيتهم صيفاً وشتاءً، وانحاز لرأي الشيخ غياث بعض من أبناء عمومته ومنهم أبناء الشيخ غزوان، واستقروا معه، في حين ظل شقيق الشيخ غياث واسمه (متعب) مع بعض مستمرين في حياتهم البدوية المتنقلة، ومواصلة رحلتيّ الصيف والشتاء...

نشأت نورا في بيئة مستقرة فيها بيوت مبنية من الحجر والطين، تسعة عشر بيتاً إضافة لدار الشيخ غياث، كانت هي مساكن أهل بلدة عين

جدي الذين أعادوا إحياء خربة قديمة جداً، كانت بلدة عربية كنعانية مزدهرة قبل ستة آلاف عام، فيها بقايا معبد كنعاني ما زالت بقاياه ظاهرة كأطلال عند سفح الجبل الشمالي، الآثار المتبقية من هذه البلدة تشير إلى أنها احتوت ميناءً كنعانياً قديماً، لنقل المسافرين والبضائع من غرب البحر الميت إلى شرقه وشرق نهر الأردن، استخدم الرومان أيضاً هذا الميناء عندما حكموا بلاد الشام، قابله ميناء عربي أدومي قديم يسمى ميناء هيرود في الجانب الشرقي من البحر.. كانت عين جدي ترتفع مائة وعشرين متراً عن سطح البحر الميت مما جعل حرارة طقسها أقل حدة قليلاً في هذه المنطقة الغورية قريباً من شاطئ البحر الميت، وكانت أرضها سهلة تمتد مسافة كيلو متراً ونصف غرباً وكأنها انبعاجة في سلسلة الجبال، يحدها واديان عميقان غزيرا الماء شتاءً يصبان في البحر الميت: وادي السدر-لكثرة شجر السدر فيه-، ووادي العريجة-لكثرة تعرجاته وكأنه مسار دابة عرجاء.

أما سمات الفلاحة التي اكتسبتها نورا، فجاءت من الاستقرار وفلاحة الأرض، فإضافة لاشتغال العشيرة في تربية الماشية، فقد استصلحوا أراضي عين جدي وفلحوها بالقمح والشعير وعدد من الأصناف الأخرى.. أما نعومة المدينة ودلالها في نورا فلها قصة أخرى.. كان والدها يملك بيتاً في القدس، والتي تبعد مسافة ستين كيلو متراً عن بلدتهم في الجهة الشمالية الغربية ، ودأبَ على المكوث فيه لمدة تقارب الثلاثة أسابيع، مرتين كل عام،

بداية الشتاء وبداية الصيف، كان يحمل إلى القدس بعضاً من الماشية والجلود، وما أنتجته العشيرة من فائض القمح والشعير والعدس والأجبان لبيعها، ويشتري من المدينة حاجة العشيرة من كسوة لأبنائها وبناتها، وكميات من القهوة والأرز والسكر والشاي والأقمشة والبخور وما يجد من احتياجات، كانت نورا منذ كانت طفلة وبعض من أفراد الأسرة يرافقون الشيخ غياث في سفراته الروتينة تلك، وكانت يصحبها معه كلما صلى في المسجد الأقصى في هذه الرحلة، خمسة جِمال محملة بخيرات عين جدي تساق إلى المدينة مع قائمة طلبات لكل أسر العشيرة، وتعود الجمال الخمسة محملة بخيرات المدينة وغرائبها، في كل هذه الرحلات كانت نورا تختلط بجيرانها المقدسيين، وترافق والدها إلى أسواق القدس وتتعلم كل جديد...

لكن هذا الاستقرار المعيشي والنفسي لعائلة غياث لم يجرِ على ما يرام في السنوات الثلاث الأخيرة، فبعد أن رأى (متعب) ازدهار حالة عائلة شقيقه الشيخ غياث، قرر الاستقرار في نفس المكان أيضاً مع عدد من أبناء عمومته، فدبَّ الخلاف بين الإخوة وأبناء العمومة، ووصل الأمر إلى الاشتباك بين الجماعتين، جماعة متعب تقول أن لها الحق في المكان أيضاً فهذه مضارب أجدادهم منذ القدم، وهي ضمن حدود القبيلة، بينما تقول عائلة غياث أنهم أول من استقر في المكان وسكنوه وتعبوا في تسوية الأرض واستصلاحها وتهيئتها للزراعة؛ فنزلت جماعة متعب في شريط ضيق

جانب وادي العريجة، شريط ضاق بهم وبماشيتهم، في الشتاء الماضي نَفقَ عددٌ من ماشيتهم؛ بسبب فيضان وادي العريجة الذي جرف جزءاً من بيوتهم وعدداً من ماشيتهم قبل أن ينقذوا ما تبقى منها بترحيلها بعيداً عن مجرى الوادي إلى الأرض التابعة لجماعة الشيخ غياث، لم يمانع الشيخ غياث هذا الانتقال الاضطراي لشقيقه وأبناء عمومته، لكن حالة الخصومة استمرت، ولها أن تنفجر عند أول اختبار حقيقي لهذه العلاقة المشوبة بالعداء، حيث انتقلت الخصومة من خصومة على الأرض إلى خصومة وخلاف على الزعامة و المشيخة، أيهما أحق بتزعم القبيلة بعد وفاة والدهما الشيخ ظاهر وعمهم الشيخ غزوان، كانا كل من متعب وغياث أبناء الشيخ ظاهر الوحيدين، لم يكن يعيش للشيخ ظاهر أبناء، هذان التوْءَمان غياث ومتعب، وكانت الزعامة تنتقل كما جرت عادة العرب من الأب إلى الابن الأكبر، لم يثبت بشكل قاطع أيهما وُلِدَ أولاً، غياث أم متعب، لكن رواية غياث بأنه الأكبر، وإن كان الزمن الذي فصل بين ولادتهما أقل من ساعة، يدعمها بقصة يرويها عن الولادة، حيث أنّ والدهم عندما بشَّروه بولادة زوجته لطفلٍ ذكر؛ أطلق عليه في تلك اللحظة اسم (غياث)، لأنّ الأمطار كانت تتساقط بغزارة في تلك الساعة، وعندما أبلغوه أنّ هناك طفلاً آخر تحاول القابلة إخراجه، بعد أن أصاب زوجته التعب والإجهاد من الولادة وصعوبتها، وُلِدَ الطفلُ الثاني بعد ساعة من العناء والجهد، فأسماه متعب وهو الاسم الذي يناسب ظروف ولادته، لكن متعب يقول أنّ

النسوة خلطن بين الطفلين وأنه الأكبر رغم أقوال النسوة اللاتي حضرن الولادة أنه الأصغر... انشغل الطرفان بهذه الصراعات على الأرض والسيادة على العشيرة بجناحيها ولم يوليا اهتماماً كبيرا لأولئك الأشخاص الغرباء الذين حطُّوا على الجبل، حيث أطلال المعبد الكنعاني غرباً قبل أكثر من شهرين وأقاموا فيه، وكانوا يفعلون أشياء لم يجد الشيخ غياث أنها مهمة أو مضرة بالعشيرة، ولم تعِقهُ عن اشتغاله وأقربائه بالأرض وفلاحتها، لكنه لم يفقد الحسّ البدوي الأصيل فيه من اليقظة والحذر لكل تطور غريب ومريب في بيئته المحيطة، فعندما قدم هؤلاء الأشخاص أرسل عيونه لمراقبة ما يفعلون، وعادت إليه العيون بالخبر اليقين الذي لم يولِه اهتماماً يذكر، عندما لم يجد وقتها فيه أيّ تهديد لعشيرته وأرضه وكيانهم، فالأرض التي أقاموا فيها حيث أطلال المعبد، وهو مكانٌ بعيدٌ عنهم وعالٍ، أرضه لا تصلح لزراعة ولا لرعي الماشية، ولم يدر في خلد الشيخ غياث أن يكون الأمر أبعد وأكبر من مجرد فلاحة أرض ورعي ماشية...

بعد عصر يوم الواحد والثلاثين من تموز، صادف الموعد الأسبوعي لتجمع فتيات العشيرة، بغية جلب المياه من بئر البلدة القريبة شرق البلدة، وجمع الحطب من محيطها، كانت البئر التي تبتعد سبعمائة مترٍ عن البيوت وافرة الماء، يرد عليها سكان عين جدي لجلب مياه الشرب، ويوردون ماشيتهم عليها، كانت بئر واسعة، وتمتلئ في الشتاء بكميات من مياه الأمطار تكفيهم طوال فترة الصيف، ولم يكن أحد يصل إلى تلك البئر الأخرى

المهجورة على بعد أكثر من كيلومتر ونصف، إلى الجنوب الشرقي من البلدة بمحاذاة طريق القوافل، بئر بعيدة، انحسرت عنها مياه الأمطار كثيراً، وصارت شحيحة الماء، بسبب تغيرات في تضاريس المكان حولها، مما جعل تجمع مياه الأمطار فيها قليل..

نورا واحدة من الفتيات اللاتي انطلقن بجرارهن وأكاليلهن وحبالهن لجلب المياه وجمع الحطب، كانت رحلة جلب المياه عند فتيات البلدة نزهة بالنسبة لهنَّ أكثر مما هي عمل وواجب بيتي، كُنَّ خلال الرحلة يتجاذبنَ أطراف الحديث والخاص منه بكل واحدة، ويأخذنَ راحتهنَّ بالثرثرة والضحك رغم أنهنَّ يعرفنَ أنهنَّ يجب أن يبقينَ متجهماتٍ خارج البيت، كما هي توصيات أمهاتهنَ لهنَّ، وأن لا يصدر منهن أي ابتسامة أو ضحكة يمكن للرائي تفسيرها بشكلٍ مغلوطٍ، وبمعانٍ أخرى، فكان تجمع الفتيات وخلوتهن في هذه الرحلة القصيرة متنفس لهنَّ ينتظرنه يومين في الأسبوع..

عند بئر عين جدي بدأت بعض الفتيات يجمعن الحطب، والبعض الآخر بدأ ينشل الماء من البئر، كان على كلّ واحدة أن تجمع حزمة من الحطب تحكم ربطها بالحبل، ثم تربط الحبل إلى ظهرها، وتضع الإكليل-وهو شال يتم لفه على شكل دائرة ليكون قاعدة مناسبة توضع على الرأس، لتحافظ على الاتزان عندما تحمل الجرة الفخارية المملوءة بالماء على رأسها، بينما انشغلت الفتيات بمهمتهن الروتينية، قررت نورا أن تطيل وقت الرحلة، قالت:

-سأرد على بئر القوافل، فمن ترافقني؟

لم تلقَ أية إجابة بالموافقة على اقتراحها، قالت إحداهنَ "إنها بئر بعيدة وشحيحة الماء"

ثم أردفت: "ولم نأخذ موافقة أهلنا للذهاب هناك" انزعجت نورا من رفض اقتراحها، وكما عرف عنها من اعتداد بالنفس والرأي قالت لهن:

"سأذهب وحدي، إن لم أجد رفيقة"

وبدأت بحمل جرتها وحبلها ودلوها، وهي تهمُّ بالابتعاد عنهن.

_قالت إحداهن ضاحكة: "نخشى عليك من الضبع أن يأكلك"

ردت نورا بصرامة:

_"عليك أن تخشي على الضبع مني يا هذه، أنا نورا يا بنت"

وانطلقت وما زال حديث الفتاة عن الضباع يصلها:

"يقولون أنّ الضبع ينظر في عينيّ الشخص؛ فيضبعه، يفقده وعيه وعقله، فيجري الشخص وراء الضبع منقاداً له دون وعي، فيقوده الضبع إلى وكره المظلم، وهناك، يكسر الضبع رقبته، ويلتهمه"

بينما كانت نورا تبتعد، كانت الفتيات في حالة رعب من قصة الضبع اللاتي سمعنها، خاصة أنه لم يعد يفصلهن عن مغيب الشمس سوى أقل من ثلاث ساعات...

عادت الفتيات قبل مغيب الشمس، ولم تعد نورا، تلك الليلة كانت الفتيات جميعهن يبتن في بيوتهن، لكن نورا باتت في مكان آخر، مكان مخيف ومرعب بالنسبة لفتاة جميلة في مقتبل عمرها...

الوَرْطَة

البئر المهجورة على بعد خطوات من نورا، عندما توقفت تتلفت حولها، سكونٌ في المكان وهدوءٌ يدعو للرهبة!!

فجأة اجتاحت نورا قشعريرة سرت في كلّ جسدها، أنبأها حدسها أنها ليست وحدها في هذا المكان الخالي، انتابها خوفٌ شديدٌ؛ همّت بالعودة من حيث أتت، لكن كبرياءها غلب خوفها قالت في سرها: "لا... كيف أرجع بدون ماء، سأكون أضحوكة الفتيات إن رجعت للبلدة بدون ماء".

حاولت طرد الخوف من قلبها، وقررت الاستعجال في انتشال الماء، خاصة أنه لم يبقَ من عمر نهار هذا اليوم سوى أقل من ساعتين، ثم يحل الظلام، اتجهت بخطوات سريعة دون أن تلتفت حولها إلى البئر، وهي تجهز حبلها وتربطه بالدلو، ما أن أطلت في البئر وهي تتهيأ لرمي الدلو حتى جاءها صوت جهور من داخل البئر أفزعها:

"مَن هناك؟.. مَن في الأعلى؟".

ألقت ما في يديها أرضاً، وأطلقت ساقيها للريح هاربة، لا تلوي على شيء.. الرعب الذي انتابها جعلها لا تفكر حتى بالنظر خلفها، كانت قد ابتعدت عشرات الأمتار، عندما بدرت منها التفاتة إلى الخلف وهي تركض فلم ترَ شيئاً غريباً، كانت قد ابتعدت عن البئر بما يكفي لكي تتوقف وتلتقط

أنفاسها، عاودت النظر باتجاه البئر، وصوت أنفاسها السريعة اللاهثة يكاد يسمعه مَن هم في رؤوس الجبال..

أطالت التحديق باتجاه البئر، وقد هدأت أنفاس تعبها، لكن أنفاس خوفها لم تهدأ بعد، وعشرات الأسئلة المحيرة تطرق رأسها دون ترتيب منطقي:

ما هذا الصوت؟! هل هو حقيقي، أم تهيأ لها؟ هل خوفها خيّل لها وجودَ شيءٍ ما داخل البئر؟ إذا كان صوتاً حقيقياً، فهل هو إنسيّ، أم جنيّ؟ إن كان جِنّياً ماذا ستفعل؟ إذا كان صوتاً إنسيّاً، فمن يكون؟ وما الذي أدخله إلى البئر؟ وماذا يفعل هناك؟ ماذا ستفعل الآن؟ هل تغادر المكان فوراً، وتعود إلى البلدة؟ أم ترجع إلى البئر لتحضر أغراضها: الجرة، الحبل، الدلو، حذاءها الذي انفلت من قدميها عندما قفزت مذعورة وهي تهرب؟ ...

حاولت استعادة رباطة جأشها في تلك اللحظة، وراحت تفكر بعمق أكبر، قالت لنفسها:

عليّ أن أستعيد أغراضي أولاً، إن كان ما سمعته وهم وخيال فلا بأس إذاً.. وإن كان صوت جنيّ، فسأواصل قراءة آية الكرسي والمعوذتان حتى أستعيد أغراضي وأخرج من هذا المكان المرعب، وإن كان ما سمعته صوت إنسيّ فلا بد أنه إنسان مسجون، ضعيف الحيلة داخل هذه البئر، وهو غير قادر على إلحاق الأذى بي".

لكنها في قرارة نفسها تعلم أن الذي أعادها إلى البئر هو الفضول تلك الصفة القاتلة لصاحبها في بعض الأحيان.

استجمعت نورا شجاعتها واتجهت نحو البئر، شاهدت جرتها الفخارية وقد صارت قطعاً متناثرة في المكان، راحت تجمع بقية أغراضها وهمّت بالانصراف عندما أخذ الفضول يلحُ عليها، وأبت الشجاعة الكامنة في شخصيتها إلّا الظهور في تلك اللحظة، تقدمت من باب البئر وصاحت:

-من في الداخل؟ إنسيٌّ أم جِنيٌّ؟

جاءها الرد صوتاً متهدجاً:

-أنا يا ابنة الأجواد، إنسان عابر سبيل سيئ الحظ.

-ماذا تفعل داخل البئر؟

-سقطت فيه وأنا أحاول انتشال الماء لأشرب.

-من أي قوم أنت؟

-من مرج ابن عامر من بلدة اسمها برقان في الشمال.

-لم أسمع بها، لكن ما الذي جاء بك إلى هنا؟

-أنا قادم من الحجاز، قمت بتأدية عُمْرة، وكنت عائداً إلى بلدتي وأهلي عندما أوقعني حظي العاثر في هذه البئر اللعينة.

ساد صمت لبضع ثوانٍ وقد تبدلت حالة نورا من القلق والخوف إلى الاطمئنان قليلاً خاصة بعد أن ذكر لها زيارته للكعبة وقبر النبي، قطع الصمت صوت جاد عندما واصل حديثه:

-أعلم أنك خائفة ومتشككة في حديثي، لا عليك، أرجو منك معروفاً.

ردت:

-ما هو؟

-أن تطلبي لي النجدة من أهل بلدتك، لكي يخرجوني من هنا.

عاود الصمت سيادته لثوانٍ قليلة، قبل أن ترد نورا على طلب جاد الله.

فكرت نورا في طلبه، لكن عقلها لم يستسغه، قالت في نفسها: "إن أنا طلبت النجدة لهذا الرجل، فلن يصدق أحد أني لا أعرفه مسبقاً، ولن يصدق أحد أن مجيئي إلى هذه البئر صدفة، ستتحدث الفتيات عن تصميي وانفرادي في قرار القدوم إلى هذه البئر البعيدة والمهجورة، سيتحدن ويثرثرن إلى الجميع بأن لي عشيق أواعده عند البئر، وسأصير حكاية على الألسن، ومثل هذا الأمر نتيجته المؤكدة هي القتل صوناً لشرف العشيرة".

لم تكن عيناها قادرتان على رؤية شيء داخل البئر عندما أطلت بوجهها الساحر على جاد الله، لكن جاد رأى قمراً في وضح النهار يطل عليه من باب البئر، أطال النظر إليها وهي تحاول استكشاف داخل البئر، تهيأ لجاد أن جنبات البئر قد أنيرت بضياء وجهها.

قالت:

-سأرمي لك طرف الحبل، وأحاول انتشالك.

-لا،لا.. لن تقدري على رفعي أيتها النشمية، الأفضل أن تذهبي وتطلبي النجدة كما قلت لك، وسأكون لك من الشاكرين.

-لا، لن أطلب النجدة، أنا سأساعدك، سأسحبك إلى الأعلى، لكن عليك أن تعاونني، حاول الاتكاء على جنبات البئر أثناء سحبي للحبل، لكي تخفف من الثقل عليّ.

حاولت نورا أن تجد شيئاً تربط طرف الحبل به فلم تجد، فكرت في ربط الحبل حول باب البئر، لكنها وجدت إن فعلت ذلك فلن يتبقى من الحبل ما يكفي للوصول إلى الشاب في الأسفل.

قامت بلف طرف الحبل حول خصرها وربطته جيداً، ثم ثنت الحبل بيدها اليمنى وألقت طرف الحبل الآخر إلى الأسفل.

رأى جاد طرف الحبل عند قدميه، لفه حول صدره من تحت إبطيه وهو يردد "يا قوي، أنت القوي، يا الله.." وصاح لنورا:

-سأدعك تحاولين مرة واحدة فقط، إن وجدت نفسك غير قادرة على الإكمال فاتركيني، حتى لو أدى ذلك لسقوطي، حسناً؟.

لم ترد نورا، فصاح عليها:

-هل سمعتني؟

-نعم سمعتك، حسنا كما تشاء، هل أنت جاهز؟

-نعم أنا جاهز، توكلي على الله يا النشمية.

بدأت نورا بسحب الحبل إلى الأعلى بكل قوتها كررت السحبات وهي تصيح في كل مرة:

- "يا الله... يا معين"

رغم محاولات جاد ضرب قدميه بجنبات البئر ليخفف عنها الثقل إلا أن نورا أخذ منها التعب سريعاً.. وبعد عدد من السحبات للحبل، لم تكد قدما جاد ترتفع أقل من نصف المتر عن قاع البئر، حتى بدأت ذراعا نورا تكِلّان، وتمكن الإجهاد والتعب من ذراعيها ورجليها، وشعرت أن جسدها بدأ ينهار، وأنها على وشك فقدان الوعي، فتركت الحبل كما أوصاها جاد، فسقط جاد إلى القعر ثانية، وراح يحاول التقاط الفتاة التي جذبها الثقل إلى داخل البئر، فسقطت على وجه وصدر جاد الله، تعمد جاد أن يبقي جسده في طريق سقوط نورا عندما رآها تفقد السيطرة وتنهار، في محاولة منه لمنع ارتطام الفتاة في أرضية البئر، وقد نجح في التخفيف من قوة الارتطام إلى حد كبير، وهذا ما أنجاها من موت مؤكد..

وجدت نورا نفسها جاثمة على صدر جاد الله، وهو يئن من الألم بعد أن ارتطم رأسه بالجزء المغمور بالماء من قاع البئر.. قفزت نورا بعيداً عن صدر جاد كمن لدغتها أفعى، وأصابت كل أجزاء جسدها رجفة قوية، انكمشت على نفسها كجنين في ظلمة الرحم، ملتصقة بإحدى جنبات البئر، وجسدها لا يتوقف عن الارتجاف..

كان جاد يراها من حيث لا تراه، لم تكن عيناها قد اعتادت على عتمة البئر بعد، عندما سمعت جاد يقول لها:

"عليك الله وأمان الله يا أختي، هدئي من روعك ولا تخافي"

كانت نورا بالفعل مرتاعة، ومرعوبة.. كان حالها كله في تلك اللحظة مدعاة للارتياع، فهي بعيدة عن أهلها.. وحيدة.. في ظلام بئر مخيفة.. مع رجل غريب.. لا تعرف أي نوع من البشر هو!.. كل الاحتمالات في عينيها سوداء: إن نجت من اعتداء هذا الرجل الغريب، فلن ينجوان كلاهما من الموت في قعر هذه البئر.. وإن أنقذها أهلها من هذه البئر، فلن تنجو من الاتهام في عفتها وشرفها، والذي نتيجته القتل المؤكد في عرف أهلها وناسها.. كان القادم بالنسبة لها مظلم من جميع النواحي، فانهارت نفسيتها وأجهشت بالبكاء...

بدأت الرؤية تتضح لنورا بعد دقائق، استرقت نظرة باستحياء باتجاه جاد الله، فشاهدت شاباً وسيماً، رغم أثر الإرهاق الذي بدا على وجهه، رأته يطأطئ رأسه إلى الأرض، ولا ينظر باتجاهها..

بينما كان جاد يقاوم النظر إلى وجه نورا، كان يفكر في طريقة لطمأنتها كي تكف عن البكاء، فكلماته لها لم تؤتِ نتيجة، استل خنجره ورماه أمامها قائلاً:

-"أعلم أنك خائفة مني، لكني أعاهدك أمام الله بأنك أختي ما دمنا في هذا المكان، وعليك الله وأمان الله، هذا الخنجر أبقيه مشهراً بيدك، لكي تطمئني، ويذهب عنك الخوف والجزع، ولنفكر معاً في طريقة للخروج من هذا المكان اللعين"...

التقطت نورا الخنجر بيديها المرتجفتين، وأشهرته باتجاه جاد الذي كان يجلس بعيداً عنها بأكثر من مترين.. أما الشمس في الخارج فكانت في النزع الأخير لنهار ذلك اليوم...

قُبلةُ الحياة

عندما تصبح اللدغة عذبة

بينما كان الصمت مخيماً في جوف البئر، كان الظلام يخيّم على الأرض، توضأ جاد الله للصلاة، ثم اجتهد في تحري القِبلة، وجمع بين صلاتي المغرب والعشاء، كان يقرأ في صلاته آيات من القرآن بصوت خاشع عذب، شعرت نورا بالخشوع والطمأنينة، بل أحست أنّ المكان كله قد خشع لتلاوة هذا الشاب، قرأ أواخر سورة البقرة، ثم قرأ سورة الضحى، وقرأ سورة الانشراح، ثم المعوذتان قبل أن يختتم صلاته، ثم جلس وهو يبادرها بالسؤال عن اسمها في محاولة منه ليؤنسها في هذا الظلام، ردت بصوت خافت: "نورا" واردفت "نورا ابنة الشيخ غياث"

-نورا اسم جميل نورا اسم على مسمى، أنا اسمي جاد الله وينادوني اختصاراً جاد، أبي اسمه (نور الدين) فقيه معروف في منطقتنا، تلقى علومه الدينية في الأزهر، وجدي الشيخ (عبد الوارث) كبير قريتنا والقرى المجاورة، خدم في شبابه في الجيش التركي، توفي قبل سنتين رحمه الله، أحزنني خبر وفاته.

شعر جاد أنّ نورا تصغي باهتمام لحديثه رغم الظلام الدامس، فالليل صار أليَلَ، ظلامٌ فوقه ظلام، ظلمة جوف البئر في بطن الليل في الأعلى، وشعر جاد أن نورا نسيت ولو مؤقتاً وضعها الذي وجدت نفسها فيه، فواصل حديثه:

-أما أنا فكنت في إسطنبول، كنت قبل أشهر أخدم في قصر السلطان عبد الحميد الثاني كنت ضابطاً في حرسه الشخصي، قبل أن يدبروا انقلاباً عليه ويعزلوه عن الخلافة.

لم يستطع جاد رؤية مظاهر الدهشة على وجه نورا، لكن سؤالها أنبأه عن دهشتها بحديثه عندما قالت:

-أنت كنت تعمل في قصر السلطان عبد الحميد؟!!

-نعم وكنت من المقربين لديه.

-وما الذي جعلك تترك إسطنبول وخدمة السلطان؟

-لم يعد السلطان يقيم في إسطنبول بعد عزله، لقد وضعوه تحت الإقامة الجبرية في مدينة أخرى تدعى سلانيك، وقد طلب مني السلطان العودة إلى بلادي.

قالت نورا بلهجة استنكار وقد وضعت الخنجر من يدها:

-لكن بلدتك في الشمال كما قلت لي، والطريق إليها لا تمر من هنا!، فما الذي جاء بك إلى ديارنا؟!.

-قلت لك أنني أثناء عودتي من إسطنبول بالقطار الحجازي، وجدتها فرصة لأزور الكعبة، وقبر الرسول عليه الصلاة والسلام، فواصلت بالقطار إلى الحجاز، وأديت العمرة، لأنها لن تتاح لي فرصة أخرى لذلك، ومن هناك قفلت عائداً إلى بلدتي على راحلة اشتريتها من المدينة المنورة.

-وأين هي راحلتك هذه؟ لم أرَ أيّة راحلة في الأعلى.

-لقد تعرض لي في وادي عربة قُطاع طرق، فسلبوني الراحلة، فأكملت طريقي مشياً على الأقدام.

خالط نورا مزيج من الشعور بالشفقة وشعور الإعجاب لشخصية هذا الشاب الذي يجلس أمامها:

-يبدو أنك عانيت كثيراً في رحلتك للعودة إلى أهلك..

-نعم كثيراً، هي إرادة الله، واجهت الموت عدة مرات، وفي كل مرة كان الله معي، ولن أقنط من رحمته، حتى في حالتي اليائسة هنا.

قالت نورا بعفوية:

-نحن لا نحب الأتراك، أو لم نعد نحبهم.

-من تقصدين بـ نحن؟

-أبي وأعمامي وعشيرتي كلها، وأهالي البلدات الأخرى وسمعت أحاديث من أناس في المدينة، أهل الخليل والقدس.

-الحقيقة أني لا أعرف حول هذا الأمر، فأنا منذ سنوات في إسطنبول، لكن لماذا هذه الكراهية للدولة العثمانية؟ أرغب بالمعرفة.

-أنا أسمع الكبار يتحدثون بأنهم بدؤوا يأخذون منا ضرائب كبيرة على محاصيلنا الزراعية وماشيتنا في الفترة الأخيرة، وصل الأمر بهم إلى أن يأخذوا أكثر من نصف أرزاقنا بالقوة ودون وجه حق.. يأخذون بالقوة الكثير من الشباب إلى الحرب في بلاد بعيدة، يذهبون ولا يعودون.

كان جاد معجباً بمنطق حديثها وطلاقة لسانها، ومن البداية أعجب جاد بها لشجاعتها وجرأتها في مساعدته، ولم تكن مرغمة على ذلك.

أخذ الحديث الكثير من الوقت عندما أطل عليهم القمر بدراً مكتملاً، من فوهة البئر فأناره قليلاً، وصارت الرؤية متاحة داخل البئر، لم يلتفت جاد إلى قمر السماء، واكتفى بالتحديق بقمر الأرض الذي أمامه، لأول مرة تتضح ملامح كلٍّ منهما للآخر، التقت عيناهما لوهلة، كانت كافية لإرسال واستقبال رسائل كثيرة، فيها كثير من الإعجاب والهيام، قبل أن تخفض نورا عينيها، وقد شعرت بلهيب يخرج من وجنتيها.. ثم تفطنت نورا للحالة التي هي فيها، والتي تنذر بعواقب وخيمة، وتنبئ بأمر جلل، فعاودها القلق والتوتر عندما انفلت لسانها دون قصد بعبارة: "ما هو مصيري، يا ويلي".

انتبه جاد لحالة القلق التي انتابتها فقرر أن يفعل شيئاً، ما لم يقبل فعله لنفسه، سيحاول فعله من أجلها، قال لنفسه:

" ما ذنبها لتقع في هذه الورطة؟ هل ذنبها أنها حاولت مساعدتي؟ سأفتديها بروحي إن تطلب الأمر ذلك، هي من بادر بالمعروف، والمبادر بالمعروف لا يمكن لأي شيء أن يكافئ فعله حتى الموت لا يكافئه".

نهض جاد وأخذ يتفقد جنبات البئر مستغلاً ضوء القمر، وجد بعض الشقوق المتفرقة التي يمكن أن يستخدمها ليتشبث بها بيديه ويثبت بها قدميه في تلسق جنبات البئر، لكن المشكلة تبقى في المنطقة المنحنية التي تأتي أسفل عنق البئر، السقوطُ منها مؤكدٌ، لكنه سيحاول، قال في نفسه:

"لن أقف مكتوف اليدين أمام محنة هذه الفتاة النشمية".

اختار جاد جانب البئر المرتفع والذي تجلس فيه نورا، رأى فيه شقوق متتابعة يمكن أن توصله إلى فوهة البئر، كان يعلم في قرارة نفسه أن مهمته المقدِم عليها أقرب إلى المستحيل، وفيها مخاطرة كبيرة، لكنه صمّمَ على المضي فيها، لم تعلم نورا ما الذي ينوي جاد فعله، لكنه عندما تقدم باتجاهها، استنفرت كل جوارحها، وتناولت الخنجر مشهرة إياه باتجاه جاد مرة أخرى، ابتسم جاد لها وطمأنها:

" لا تخافي، أريد تسلق هذا الجانب لأنه الأنسب للتسلق".

بقيت نورا صامتة تراقب حركته مشهرة الخنجر، وقف قريباً منها وثبت واحدة من قدميه في أحد الشقوق ودفع بجسمه إلى الأعلى مدخلاً يده في شقٍ علوي، ما أن حاول نقل قدمه الأخرى لتثبيتها في شق آخر حتى صدرت منه صرخة قوية، أفزعت نورا، سقط على الأرض يصرخ، نهضت نورا لا تدري ما الذي حدث، ولا تدري ماذا تفعل وهي تسأله: "ما بك ماذا حدث؟".

كان ممسكاً كف يده اليمنى ويضغط عليها بشدة وهو يتألم.. لم يكن القمر قد انزاح بعد عن باب البئر، نظرت نورا حيث كان جاد يضع يده، وإذا بأفعى تنسل خارجةً من الشق الذي كان يتشبث به جاد، كان الخنجر ما زال في يدها، وبحركة لا إرادية، وكأنها حركة تدربت عليها، قفزت إلى الأعلى وغرزت الخنجر في رأس الأفعى التي سقطت تتلوى والخنجر مغروس في رأسها، بحثت حولها عن أي شيء فلم تجد سوى بقايا الوتد الخشبي الذي انكسر بجاد وسقط معه في البئر، تناولته وظلت تضرب به رأس الأفعى، حتى همدت حركتها..

جلست نورا تلتقط أنفاسها التي تصاعدت خوفاً وتعباً، وهي تنظر إلى الأفعى الملقاة أمامها كانت أفعى رقطاء لها قرون يتعدى طولها الذراع.

لم يكن جاد قادراً على تحريك يده، وهو يراقت المعركة التي خاضتها نورا ضد الأفعى، معركة لم تستغرق أكثر من دقيقة واحدة كان يصيح فيها جاد مكرراً:

"عفيه يا النشمية.. عفيه يا النشمية.. عفيه يا النشمية".

عرفت نورا أنّ الأفعى سامة، وليس أمام جاد سوى دقائق معدودة لينجو بحياته..

حلت غطاء رأسها فانسدل شعرها الأسود على طول ظهرها، أمسكت بذراع جاد ولفت شالها على ذراعه بقوة عند المرفق وربطت الشال على مرفقة وشدته بقوة لمنع السم أن يسري عبر الدم إلى بقية جسده، ثم تناولت

الخنجر وشقت مكان اللدغة شقين متقاطعين طول كل منهما يقارب سنتمتراً واحداً، جذبت ذراعة الملدوغة إلى الأسفل، ثم انحنت على ركبتيها، ووضعت فمها على منطقة اللدغة، وأخذت تشفط الدم بقوة، وتبصقه جانباً، كررت هذه العملية ما بين شفط وبصق مرات كثيرة، حتى اطمأنت من أنها أخرجت كلّ السم الذي حقنته الأفعى في ذراع جاد، كان جاد يراقبها وهي تقوم بإسعافه بمهارة ودراية، هو يعرف الإسعافات الأولية بحكم تدريبه في الجيش، لكن هذه الفتاة الصغيرة! من أين اكتسبت هذه المعرفة؟..كان يراوده هذا السؤال..

بالنسبة لجاد كانت شفتا نورا على ذراعه هي الترياق الحقيقي الذي سينقذه من السم، كلّ قُبلة لذراعه كانت تسري في جسده قشعريرة محببة تذهب الألم..

تمضمضت نورا بالماء عدة مرات، ثم فكت شالها عن ذراع جاد، وربطته على كفه فوق مكان اللدغة.. كل هذا العمل وهي صامته لم تنبس بكلمة واحدة، ثم جلست تراقب جاد بقلق، قالت في نفسها، إن مرت الدقائق القليلة القادمة بسلام فقد نجا، كانت بين فينة وأخرى تطلب منه أن يحرك قدميه، أو رأسه أو ذراعه، كانت قدرته على تحريك أجزاء جسده مطمئناً لها بأن السمَّ لم يسرِ في جسده، كان سريان السم في الجسد يعني شلل هذه الأجزاء من جسده قبل موته المحتم.

انزاح القمر عن فتحة باب البئر، فعاود الظلام فرض سطوته عليهما.. لم تقاوم نورا البكاء الذي داهم مقلتيها، فأجهشت به...

"لا تبكي يا أختاه" قالها جاد بخليط من الأنين...

توقفت عن البكاء، بعد أن رانَ لسمعها من بعيد صوت حوافر الخيول تضرب الأرض، ثم ما لبث الصوت أن ازداد وضوحاً وقرباً، بدأ الصوت يقترب بشدة، وسمعت في الأعلى جلبة وأصوات تنادي، عاود نورا الرعب وشعرت بالرهبة، فهذه اللحظة التي كانت تحسب حسابها، تنتظرها، وتخشاها، في تلك اللحظة كان الليل قد قارب على الانتصاف...

بدرٌ قمر السّماء
صفحة البحر ممر من نور
هي وأنا نستأذن الولوج

اختفاء نورا

قبل ساعات في عين جدي

لم تنتبه أم نورا أن ابنتها لم تعد مع الفتيات عند مغيب الشمس، كانت تعتقد أن نورا عادت وانعزلت في غرفتها، أنهى الرجال صلاة العشاء وتجمعوا في مضافة الشيخ غياث، كانت مضافة الشيخ غياث عقد مبني من الحجر طوله اثني عشر متراً وعرضه سبعة أمتار، يجتمعون به للحديث في شؤونهم الخاصة وأحوالهم وفي السياسة أحياناً، يتشاورون أحياناً ويتسامرون أحياناً أخرى، يروون القصص والحكايات يتناولون القهوة وفي المناسبات يتناولون فيه الطعام.

في تلك اللحظة التي نادت بها أم نورا الشيخ غياث من خارج الباب، كان الرجال يتحدثون عن أولئك الغرباء الذي نزلوا عند الخرابة كما يسمونها في البلدة هناك بعيداً على سفح الجبل... خرج الشيخ غياث ملبياً نداء زوجته، انزويا جانباً، اقتربت من أذنه وأسرت له بكلمات، كانت وقعها ظاهراً على وجهه، سألها:

-منذ متى؟

-منذ ما بعد العصر

نادى الشيخ غياث ابنه سعد وقد كان سعد يكبر أخته نورا بسنتين، خرج سعد إلى أبيه الذي أمره بالذهاب مع أمه إلى كل بيوت القرية، وخاصة بيوت الفتيات اللاتي كن يردن الماء مع نورا، والسؤال عن أخته، نبّه الشيخ غياث ابنه أن يترك أمه تطرق الأبواب وتقوم بالسؤال، وعليه أن يبقى بعيداً، وقال له:

"كلّ رجال العشيرة عندي في المضافة، ولا يوجد في البيوت سوى النساء".

بينما كان سعد ينطلق مع أمه إلى بيوت القرية، عاد الشيخ غياث إلى المضافة متجهمَ الوجه وعلامات القلق على وجهه، علامات لاحظها كل الجالسين، سأله أحدهم:

-"عسى ما في شر يا أبا سعد".

-"خير إن شاء الله خير".. أجابه الشيخ غياث دون أن تفارقه مظاهر القلق والتوتر.

الساعة التي غابها سعد وأمه كانت كدهر بالنسبة للشيخ غياث، دخل سعد المضافة وبانفعال قال لأبيه:

"رفيقاتها يقلن أنّها ذهبت وحدها إلى البئر الجنوبية المهجورة، وقد حذرنها، لكنها لم تلتفت لتحذيرهنَّ".

كلمة واحدة مكررة كانت تضرب في رأس الشيخ غياث "الغرباء، الغرباء، الغرباء"

نهض الشيخ غياث والتقط سيفه المعلق ووجه حديثه لرجاله الجالسين:

"على ظهور الخيل يا رجال.. نورا ابنتي ذهبت لترد الماء من بعد العصر ولم تعد حتى الآن".

بدأ الرجال بالانتشار بحثاً عن نورا، وبدأ خبر نورا أيضاً بالانتشار، حتى وصل الخبر لأبناء عمومتهم المخاصمين، فهبوا هم أيضاً يبحثون عن نورا...

الغريب أن مثل هذه الخصومات والفرقة بين أبناء الدم الواحد لا يمكن لأي شيء أن ينهيها أو يوقفها سوى أمرين: العرض أو الأرض، تتلاشى العداوة عند أي تهديد للعرض، أو أي تهديد خارجي للأرض...

قسم الشيخ غياث الرجال إلى أربعة أقسام، وشدد عليهم أن لا يعودوا دونها حية كانت أو ميتة، واتفقوا على أن أي مجموعة تجد خبراً لنورا أن تعود للبلدة وتشعل ناراً كبيرة يستطيع مشاهدتها الجميع من بعيد، ثم وزّعهم في جهات الأربعة، مجموعة من الرجال أرسلها باتجاه وادي العريجة والشلال، والقسم الثاني وجهه باتجاه وادي السدر، وهذان واديان وعران من الصعب تجاوزهما، أما القسم الثالث وكان فيهم ابنه سعد؛ فأرسله باتجاه بئر البلدة شرقاً على أن يجوبوا شاطئ البحر الميت بحثاً عن نورا، وقاد هو القسم الرابع من الرجال باتجاه الجنوب حيث البئر المهجورة.

كان عدم عودة نورا حتى هذا الوقت من الليل ينذر بأمر جلل بالنسبة لأم نورا، جلست تنتظر خبراً سيئاً وهي تنتحب على ابنتها، كلّ الظنون السيئة جالت بخاطر أم نورا: ربما افترسها وحش.. أو ربما اختطفت من قبل قطاع طرق.. أو ربما غرقت في البحر.. عدم عودة ابنتها يعني أنه أصابها مكروه..

الجلبة التي أحدثتها مجموعة الشيخ غياث وهو يقتربون من البئر المهجورة جعلت جاد يستيقظ من الخمول الذي أصابه بعد أن لدغته الأفعى، سأل نورا:

-ما هذا الصوت، ما الذي يحدث؟

-أظنُ أنهم رجال العشيرة جاؤوا يبحثون عني.

صمتت قليلاً، ثم واصلت نادبة حظها:

-يا ويلتاه، سيقتلونني إن اكتشفوا وجودي هنا معك، ولن يصدقوا أيّ شيء أقوله.

عاودت صمتها وهي تسمع المناداة من بعيد: "نورا، يا نورا، أين أنت يا نورا"

ميزت من بين الأصوات المنادية عليها صوت أبيها، فأخذتها رجفة، قبل أن تكمل وكأنها تحدث نفسها:

-لن أرد عليهم، سأختفي في الجانب المظلم من البئر، أفضل أن أموت هنا على هذه الفضيحة التي لن يحتملها أبي، ولا أخي"

ثم حبت على يديها والتصقت بالحائط وهي تكتم صوت بكائها

قال لها جاد:

-"اسمعي، أجيبي عليهم ولا تخبريهم أني هنا".

-"كيف، لا يمكن سيكتشفون وجودك، ثم كيف أتركك تموت هنا وأنت ملدوغ، وأنجو أنا بنفسي"

-"لن أموت، لا تخشي عليّ، أنت ليس لك ذنب في كل هذا، اذهبي أنت وسأتدبر أنا أمري".

أطبق الصمت داخل البئر، ووجه أبيها يطل من الأعلى محدقاً في قاع البئر وهو ينادي عليها.. لم تجِب في بادئ الأمر، ثم أقنعت نفسها بأن على أحدهم أن ينجو لكي ينجو الآخر، اقتنعت بفكرة جاد، وقررت انكار وجوده.. وقفت في الوسط ونادت بأعلى صوتها:

-"أبي، أبي، أنا هنا".

-نورا، هل أنت بخير يا ابنتي؟

-نعم أنا بخير يا أبي.. لقد انزلقت قدمي وسقطت في البئر.

-حمداً لله على سلامتك، سأنزل إليك لكي أربطك بالحبل وأساعد الرجال في سحبك للأعلى.

انتفضت نورا لخطة أبيها، إن نزل والدها إلى البئر سيكتشف أمر جاد، ارتبكت لبعض الوقت، لكنها ردت محاولة تدارك الأمر بحكمة:

-لا، لا يا أبي، لا داعي لتنزل إليّ، أنا قادرة على ربط نفسي، وأستطيع الصعود لوحدي.

-حسناً يابنتي، سأرمي لك الحبل اربطيه تحت إبطيك وتمسكي به بيديك، وعندما تكونين جاهزة هزيه بقوة، لأني لا أستطيع رؤيتك من هنا.

كان جاد يستمع لهذا الحوار لاصقاً جسده بجنبة للبئر، وهو يكتم أنفاسه خشية أن يشعر بوجوده أحد...

لفّت نورا الحبل حولها، وربطته جيداً، ومالت باتجاه جاد وقالت همساً:
-أتركك برعاية الله يا النشمي، سأعود، فانتظرني، لا تمُتْ.
صاح والدها:
-مع من تتحدثين يابنتي؟
-مع نفسي يا أبي، أندب حظي العاثر الذي أسقطني في هذه البئر المشؤومة.
كانت تعلم نورا أنّ الحمى ستداهم جاد من أثر لدغة الأفعى، وأن هذه الحمى قد تقتله.
-"أنا جاهزة يا أبي". صاحت نورا
ثم هزت الحبل بقوة، فبدأ الرجال برفعها من قاع البئر، حتى أخرجوها، ثم عادوا بها إلى البلدة، لكن أباها قد لاحظ قطع الجرة الفخارية المتناثرة في المكان، ولاحظ الدلو في الأعلى بدون الحبل، والأهم أنه لاحظ أن نورا بدون غطاء رأسها، لكنه آثر الصمت في تلك اللحظة... ما أن مضت ساعة حتى كانت نار كبيرة تستعر في مكان مرتفع في البلدة، تنبيهاً لبقية المجموعات التي ما زالت تبحث عن نورا بأن الأزمة قد انتهت، وأن حالة الطوارئ قد رفعت من البلدة...
اجتمع أهالي البلدة قي بيت الشيخ غياث، الرجال يهنؤونه على سلامة نورا، والنساء يهنئن والدتها.
شكر غياث الجميع ودعاهم لتناول طعام الغداء في اليوم التالي، بمناسبة سلامة ابنته.. انصرف الجميع إلى بيوتهم، بينما أمر الشيخ غياث ابنه سعد

بأن يجلب من الماشية كبشاً كبيرًا وستة خراف، ويقوم بذبحهم وتجهيزهم للطبخ غداً، وأمر زوجته أن تبدأ إعداد الطعام صباحاً...

عندما اختلى الشيخ غياث بزوجته، قال لها بلهجة متشككة:

-"اعرفي لي من ابنتك ما الذي حدث معها، البنت وراءها قصة كبيرة".

أبدت أم نورا استنكارها لكلام زوجها وقالت:

-"لا يا أبا سعد، تعرف ابنتك تربت أحسن تربية، ليس أنت من تشكك في قصة اختفائها، لقد روت للجميع ما الذي حدث معها، والجميع يصدق روايتها، نأتي نحن أهلها لنفتح باب التشكيك والأقاويل على ابنتنا".

قال لها بحزم:

-"قلت لك اعرفي لي الحقيقة بينك وبينها، ولا تزيدي في الكلام، أتفهمين؟".

أومأت برأسها مبدية خضوعها لأمره، ثم ردت بنبرة مستسلمة:

-"حاضر يا أبا سعد، أنت تأمر، غداً سأتحدث معها".

في الوقت الذي كانت فيه نورا تهمُّ بالنوم على فراشها الوثير، تنظر إلى سقف غرفتها، شاردة الذهن، تسترجع من ذاكرتها القريبة أحداث اليوم الفائت الغريبة، لم يفارقها القلق وهي تستذكر صورة جاد الله وصوته وكلماته...

كان أخوها سعد قد انتهى من تقطيع لحم الذبائح السبعة، ولم يتبقَّ سوى أقل من ساعتين على بزوغ الفجر...

في تلك اللحظات كان جاد الله في جوف البئر، يرزح تحت وطأةِ الحُمّى التي اجتاحت جسده من أثر لدغة الأفعى، كان العرق يتصبب من جبينه وهو يهذي دون وعي باسم نورا...

مخاطرة تغلفها الجرأة

لم يفارق الانشغال ذهن نورا، جافى النوم عينيها، يكاد القلق على جاد يقتلها.. ما أن هدأت الحركة في البيت، وتأكدت بأن الجميع نيام، حتى نهضت نورا من فراشها مسرعة، وهي عازمة على تنفيذ خطتها الجريئة رغم خطورتها.. راحت تتحرك بحذر، جهزت صرتان، واحدة وضعت فيها رغيفاً من خبز القمح وكمشة من التمر، وقليل من الحليب في إناء محكم الإغلاق، كانت نورا تعرف أن الحليبَ يساعد في تخلص الجسم من السموم، ثم اختلست قطعتان كبيرتان من لحم الذبائح الذي ما زال ساخناً، ووضعتهما في الصرة الثانية، قررت نورا العودة إلى البئر حيث يقبع جاد الله، لم يكن خروجها من باب الدار فكرة صائبة، فهذا ربما يوقظ أهلها النائمين، الذين سيفتقدونها حتماً، وخروجها من الباب سيجعل الكلاب تنبح، ونباح الكلاب بمثابة دعوة للنائمين للاستيقاظ، لذلك عمدت نورا إلى الخروج من شباك غرفتها المنخفض الذي يفضي إلى فناء خلفي ومنه إلى الطريق الترابي باتجاه الجنوب الشرقي للبلدة، أخذت معها سكيناً كبيرة، وحملت صرتيها، وقفزت من الشباك، وانطلقت مسرعة باتجاه البئر المهجورة...

أشد ما كانت تخشاه نورا أن تهاجمها الوحوش الليلية، كانت تخشى الضباع، والذئاب، والنمور.. صحيح أنها لم تصادف نمراً يوماً ما، ولم ترَه، لكن بعض الأهالي يروي مشاهدته لما يسمونه النمر العربي في كل من وادي العريجة والسدر، والذي سمعت مرة والدها يقول أنه شارف على الانقراض من منطقتهم، كان الطريقُ موحشاً ومخيفاً ونورا تحث الخطى حيناً، وتهرول حيناً آخر مسرعة لا تلتفت حولها، كانت في سباق سرعة مع ضوء النهار، يجب أن تنتهي من خطتها قبل انشقاق النهار.. ما أن وصلت نورا البئر حتى أطلت فيه ونادت على جاد، لكنها لم تلقَ إجابة من داخل البئر، عاودت المناداة عدة مرات وهي منكفئة على البئر، لكنها لم تلقَ إلّا صدى صوتها يرتد من داخل البئر، ازداد قلقها، شنفت أذنيها إلى جوف البئر، وأصغت السمع، فجاءها أنين جاد خافتاً لا يكاد يسمع، ثم سمعته يلهج باسمها مع الأنين، فاطمأنت أنه ما زال على قيد الحياة، كانت تعرف أن الحمى ستصيبه، وقد تستمر يوماً إن نجا منها!! كان الوقتُ حبلاً يلف نفسه حول رقبة نورا، فالوقت يضيق الخناق عليها، يجب عليها أن تعود قبل بزوغ النهار، وإلا انكشف كل شيء، بحثت عن الحبل الذي انتشلوها به، فوجدته بجانب البئر حيث تركه الرجال خلفهم، ربطت صرة الخبز والتمر بطرف الحبل ودلّتها داخل البئر حتى استقرت بالقعر، ثم حملت الصرة الثانية التي فيها قطعتي اللحم، وقفلت عائدة بسرعة...

سمع جاد نداء نورا كالحلم، لم يكن قادراً على الرد عليها، كان جاد غارقاً في عرقه المتصبب من كل جسده، وغارقاً أيضاً في ما يشبه الغيبوبة التي جعلته يهذي وهو غير قادر على التمييز بين الخيال والحقيقة،.. رجعت نورا في نفس الطريق الذي جاءت منه، وعادت بنفس السرعة التي قدمت بها، إلى أن توقفت فجأة في منتصف الطريق، بعد أن شعرت أنّ أحداً ما يلاحقها، لم تكن تجرؤ على النظر خلفها، وقفت تصغي السمع، لا شيء سوى السكون، واصلت مشيها بخطى أسرع، فعاودها الشعور بوجود أحد يسير خلفها، توقفت للمرة الثانية تصغي السمع، لم يعد بينها وبين البلدة سوى نصف ساعة من المشي، شك نورا يزداد بأن هناك أحد ما يمشي خلفها، يسير عندما تسير، ويتوقف عندما تتوقف، حاستها السادسة لم تخذلها يوماً، كانت تتمتع بحاسة سادسة قوية تنبه لها والديها منذ سنوات، قررت نورا إزالة الشك باليقين، استجمعت شجاعتها والتفتت خلفها، فشاهدت كتلة سوداء على بعد أكثر من ثلاثين متراً، ورأت عينان تلمعان وسط الظلام، مشت نورا إلى الخلف عدة خطوات وهي مسمرة عينيها على الكتلة السوداء تراقبها، فتحركت الكتلة السوداء مسافة قصيرة، ثم توقفت عندما توقفت نورا، أدركت نورا أن وحشاً ما يلاحقها، لم تستطع تمييزه ضبعاً كان أم ذئباً، أم غير ذلك، لكن الرعب دبّ في نفسها، وهي تحاول التماسك والثبات .. كانت نورا تملك من الفطنة والذكاء وسعة الحيلة ما يجعلها تعد لكل شيء عدته..

بحركات سريعة، حلّت نورا الصرة التي تحملها، وأمسكت بواحدة من قطعتي اللحم اللتين يزيد حجم الواحدة منهما عن حجم كف اليد، ورمتها على بعد أمتار باتجاه الكتلة السوداء، وارتدّت مهرولة باتجاه البلدة، ثم بعد عدة دقائق من الركض، توقفت ورمت قطعة اللحم الثانية، وعاودت الركض.. اطمأنت قليلاً وهي ترى من بعيد بعضاً من ملامح بيوت البلدة.. كان لسانها يلهج بالحمد والشكر لله على نجاتها من الافتراس تلك الليلة، وهي تتسلقُ شباك غرفتها، وتقفز داخل غرفتها، وأنفاسها تكاد تنقطع من التعب والهلع، كانت قطعتي اللحم وسيلة لإلهاء الوحش عن ملاحقتها، كانت تشتري بهما نورا الوقت من الوحش حتى تصل الدار، دست نورا جسدها المنهك في الفراش وصوت آذان الفجر يشق سكون ليل بلدة عين جدي...

قضى جاد الله ليلته يصارع الحُمَّى حتى ظهيرة اليوم التالي، عندما توقف التعرق، وبدأت السخونة تغادر جسده رويداً رويداً، قوى جاد الخائرة وجسده المنهك لم يسعفانه عند محاولته النهوض، فإضافة إلى الحمى خلال الساعات الفائتة، فإن هذا اليوم هو اليوم الرابع على التوالي الذي لم يدخل فيه جوف جاد أيّ طعام، فأصبح خائر القوى، هزيل الجسد، فبدا كقطعة قماش ملقاة في قعر البئر.. فكر جاد في الأفعى التي قتلتها نورا، لم لا

يأكلها؟ سبق له وخلال تدريباته في الجيش أن أكل الأفاعي والجراد والسحالي، وحتى أنه أكل النمل.. زحف ببطءٍ ناحية تجمع المياه، وراح يغرف الماء بكفه، يعبّه مرة ويلقيه على وجهه مرة أخرى، حتى شعر أنه أكثر استفاقة من قبل، جال ببصره باحثاً عن الأفعى القتيلة عندما وقع نظره على الصرة التي دلّتها إليه نورا، زحف بحركة ثقيلة وبطيئة نحو الصُرَّة، وهو يتساءل من أين أتت هذه الصرة، فتح الصرة والتهم بنهمٍ ما بداخلها من تمرٍ وخبزٍ، وشرب الحليب.. أدرك أن نورا عادت إليه كما وعدته، وأنها هي من زودته بهذا الطعام، لكنه لا يعلم متى جاءت نورا، فهو لا يعلم كم مضى عليه من وقت في غيبوبة الحمى، حدث نفسه: ربما ساعات، وربما أيام.. لم يعد جاد يدرك موقعه من الزمن، لكنه أدرك أن قواه بدأت تعود إلى جسده بعد الوجبة التي التهمها.. جلس وهو يسأل نفسه: متى جاءت نورا؟.. كيف جاءت؟.. هل ستأتي إليه مرة أخرى؟.

كان يتأمل الأفعى الصريعة أمامه، ويحاول تذكر وجه نورا، صوت نورا، يتذكر معركة نورا مع الأفعى، وكيف أسعفته، يستذكر لمسات نورا، يديها وهي تشق مكان اللدغ، شفتاها وأنفاسها على يده وهي تسحب الدم المسموم بفمها من ذراعه.. مدّ يده يتحسس شالها الأسود الذي ضمدت به ذراعه، حلّ الشال وراح يتأمله، وهو يتلمس مكان اللدغة، عندما سمع صوت همهمة حوار في الأعلى خارج البئر، وصوت خطوات تقترب من البئر، ثم سمع رجلاً ينادي: مَن في البئر؟...

الحيلة

بدت نورا وهي تساعد والدتها مع بعض النسوة في إعداد طعام الغداء مشتتة الذهن، سارحة الفكر، غير قادرة على التركيز، القلق على جاد الله واضح على تقاسيم وجهها، كان ذهنها منشغلاً في طرح الأسئلة: كيف هي حالة جاد الآن؟ هل أفاق، أم قضت عليه الحمى؟ هل تخاطر مرة أخرى وتذهب إليه هذه الليلة؟ هل سييسر له الله عابرين للطريق وينقذونه؟ ماذا يمكن لها أن تفعل لتساعد هذا الشاب الشهم؟

كانت روح نورا تائهة في ذلك الوقت، ترحل كل حين إلى حيث البئر القبلية، حتى أن النسوة لاحظن ارتباك نورا عندما لذعتها نار الموقد، سألتها إحداهن إن كانت مريضة؟، فأجابتها نورا بالنفي.. عاودت سؤالها بخبث وهي تغمز لها بعينها:

"هل أنت عاشقة يا بنت؟".

أربك السؤال نورا، فانصرفت دون أن تجيبها، راحت تفكر في سؤال المرأة قريبتها..

عاشقة؟ تمتمت لنفسها

سمعت كثيراً عن العشق لكنها لم تعرفه من قبل

"ويحي، أأكون عاشقة لهذا الشاب دون أن أدري؟"

"لا لا، كل ما في الأمر أني أشفق على حاله، وأود مساعدته لا أكثر"

"ثم كيف لي أن أحبَّ هذا الغريب؟، وأنا لم أعرفه إلا لساعات، ولا أعرف عنه شيئاً، دياره البعيدة غير ديارنا، وحياته تختلف عن حياتنا، إن كان حبّاً فهو محكوم بالفشل".

ثم عاودت التساؤل وكأنها تحاول إبعاد الفكرة عن رأسها:

"ثم ما أدراني إن كنت قد أعجبته؟، حتى أنه لم يرني جيداً في ظلمة البئر، وطوال فترة وجودي وهو يغضُّ بصره عني، ولا ينظر تجاهي، كيف سيحبني وأحبّه، ويعشقني وأعشقه؟!".

"إن كان عشقاً ما أنا فيه، فهو عشق من طرف واحد".

تنهدت نورا، وهي تلوم في نفسها قريبتها التي فتحت عليها باب كل تلك الأسئلة، وراحت مرة أخرى تبعد تلك الفكرة عن رأسها وكأنها تثبت قلبها الذي اهتز:

"ما هو سوى عابر سبيل، مجرد شاب من بلدة بعيدة، أقوم بما تمليه عليّ أخلاقي وإنسانيتي في مساعدته، ومحاولة إنقاذ حياته، دون أن أتسبب بالأذى لنفسي".

لكن السؤال الذي لم تسأله نورا لنفسها:

لماذا يخفق قلبها كلما مر جاد ببالها؟!! ولماذا كان جاد يهذي باسمها الليلة الفائتة؟

ما أن انتهى جميع المدعوين من تناول طعامهم، وانصرف كل إلى شأنه بعد أن هنؤوا الشيخ غياث على سلامة ابنته، حتى خطرت لنورا فكرة ذكية، اعتقدت نورا أنها إن نجحت بها، فستحل كثيراً من الأمور، وتختصر عليها الوقت والجهد، وتبعد عنها المخاطر، وأية عواقب سيئة إن هي استمرت بالمجازفة.. فكرة فيها من المكر والدهاء ما لا يمكن توقعه، وأن يخرج من بنات أفكار هذه الفتاة الشابة، فقررت المباشرة في تنفيذها فورا...

نادت أخاها سعد، ثم اختلت به جانباً وقالت:

-"أتعلم يا سعد ما الذي أخافني وأرعبني عند البئر القبلية، وجعل قدمي تنزلق وأقع فيها؟".

-"ماذا يا نورا؟" قال سعد وقد شد انتباهه كلام نورا عن الخوف والرعب، وهو كلام جديد لم تخبره به قبل ذلك.

قالت وهي تجحظ عينيها في محاولة منها لإظهار حجم الهلع الذي واجهته عند البئر:

-"أرأيت رجم الحجارة ذاك عند البئر القبلية؟".

-"نعم أعرفه".

-"كنت أقف على باب البئر، أدلي بدلوي عندما لمحت بطرف عيني حنشاً كبيراً يخرج من ذلك الرجم ويتجه نحوي بسرعة كبيرة هاجماً عليّ، ارتبكت وحاولت الهرب فزلت قدمي وسقطت في تلك البئر اللعينة".

- حنش؟! قال سعد والمفاجأة بادية على وجهه من قصة نورا الجديدة.

ردت نورا محاولة التهويل في قصتها:

-"نعم، حنش أسود طويل وضخم، عيناه حمراوان وله قرون، أظن أنه لو التف على خصر رجل لقطعه نصفين".

-"حمداً لله على سلامتك" تمتم سعد لأخته وهو في حالة ذهول.

-"سلمك الله يا أخي". ردت نورا، ثم واصلت استغلال حالة الذهول عند أخيها وقالت تستفز شهامته ورجولته:

"أنت تعلم يا سعد أن بعض بنات العشيرة يذهبن أحياناً إلى تلك البئر، ووجود هذا الثعبان قرب البئر، خطر على بنات العشيرة وعلى أيّ عابر سبيل"

_"طبعاً، طبعاً، كلامك صحيح". تمتم سعد وهو يفكر بطريقة التصرف مع هذا الخطر.

لم تترك نورا فرصة لسعد للتفكير، قالت:

-"ما رأيك أن تذهب مع بعض الشباب إلى تلك البئر وترصدون الثعبان وتقتلونه".

-"لا، سأذهب وحدي، لا يحتاج قتل حنش إلى فزعة".

قال سعد بلهجة واثقة؛ فصمتت نورا.

امتشقَ سعد سيفه، وعندما ركب فرسه، طلبت نورا مرافقته؛ فرفض سعد... لكنه رضخ لطلبها بعد إلحاحها، وادعائها أنها تعرف مكان الجحر الذي يسكن فيه الثعبان، وأنها ستدله عليه؛ فطلب منها أن تركب خلفه على فرسه، لكنها اختارت أن تركب مهرتها، مدعية أنها لم تمتطِها منذ زمن

بعيد، وأنها اشتاقت لنزهة على ظهرها.. هربت عيناها عندما حدق بهما سعد، وكأنها تخشى أن تفضح عيناها كذب قصتها، وتكشفان ما كانت تخفيه عن الجميع ...

ما أن أقبلا على البئر حتى أشارت نورا باتجاه الرجم الذي كان يبعد عن البئر أكثر من عشرين متراً، ويتوسط المسافة بينهما وبين البئر، ترجلت نورا عن المهرة، وترجل سعد عن فرسه، سحب سيفه من غمده، ثم اقترب من رجم الحجارة، انحنى، وما أن أزاح أول حجر حتى همست له نورا بأن يتوقف، قالت:

"أنصت يا سعد، هناك صوت يأتي من داخل البئر".

استقام ظهر سعد، وهو يصغي السمع، لكنه لم يسمع أي صوت:

-"لا أسمع أي صوت".

ثم همَّ باستكمال ما بدأ به عندما صاحت نورا بصوت مرتفع قاصدة إسماع كل من في المكان:

"بلى، هناك صوت، إنه صوت خافت، وكأنه أنين شخص، تفقد البئر يا سعد"

قال سعد مازحاً، وهو يسير باتجاه البئر ونورا تتبعه:

"أنا يا أخيتي سمعت عن زرقاء اليمامة في حدة البصر، أما زرقاء اليمامة في قوة السمع، فهذا جديد، تسمعين ما لا أستطيع سماعه!".

ثم اقترب سعد من فوهة البئر، أطل بها ونادى بصوت مرتفع:

-"مَن في البئر"؟

فجاءه الرد:

-"أنا يا أخ العرب، هنا".

في بداية الأمر، كان قعر البئر معتماً، ولم يتبين سعد ملامح الشخص الذي يحدثه:

-من أنت؟ ما الذي أنزلك إلى البئر؟.

-"لدغتي أفعى وأنا أحاول إطفاء ظمئي من هذه البئر، فسقطت فيها".

كان الحبل الذي أدلت به نورا الصرتين ما زال يتدلى داخل البئر، أمسك سعد طرفه وهو يتمتم بصوت مسموع:

- "الحمد لله الذي أرسلني في الوقت المناسب لنجدتك، اربط نفسك بالحبل"

ثم وجه حديثه إلى نورا يستحثها الاقتراب:

-"ساعديني يا نورا، لنرفع الرجل".

لم يستغرق الأمر سوى نصف ساعة، حتى كان جاد يتنفس هواءً نقياً خارج البئر، غير هواء البئر الرطب.. والتقت عينا جاد بعيني نورا لحظات معدودة، كانت كافية لتبادل رسائل متعددة عن الشكر والامتنان والاشتياق، والحبّ والهيام، في ذات الوقت الذي كان فيه جاد يشكر سعد على مساعدته له، وسعد يردد "حمداً لله على سلامتك".

سار ثلاثتهم باتجاه البلدة، نورا تركب خلف سعد على فرسه، بينما تركت نورا مهرتها لجاد كي يمتطيها _ كانت مهرة نورا تدعى (المدهشة) والمدهشة

هذه لها قصة، وسيكون لها قصة في قادم الأيام _ ونسي كل من سعد ونورا ما جاءا من أجله، وهو الحنش...

في الطريق إلى البلدة، سأل جاد الله سعد عن المصادفة التي ساقتهما إلى البئر كي يجدانه، فحكى له سعد قصة الحنش كما روتها نورا، وكيف أنهما قدما إلى البئر، للتخلص من الحنش.. أثارت القصة التي اختلقتها نورا إعجاب جاد، وأدرك مدى ذكاء وسعة حيلة هذه الفتاة...

سهرة ليلية

رغم أن جاد قام بغسل ملابسه داخل البئر بعد سقوطه فيها، إلا أنها ما زالت تحمل قدراً من الرائحة الكريهة، إثر سقوطه في المستنقع الآسن قبل أيام.. حاول الشيخ غياث أن يعطيه ثوباً جديداً لتبديل ملابسه، لكن جاد رفض رفضاً قاطعاً، مما أثار استغراب الشيخ غياث... وكان جاد قد حكى للشيخ غياث حكايته منذ كان أحد ضباط الحرس السلطاني، حتى إنقاذ سعد له، لكنه أخفى الجزء المتعلق بنورا، وأخفى قصة الذهب الذي يحمله أيضاً..

في المساء تجمّع رجال البلدة في بيت الشيخ غياث، ليتعرفوا ويرحبوا بهذا الضيف الشاب كما جرت عادتهم مع قدوم أي ضيف، أو عابر السبيل حلّ ببلدتهم، واستمعوا بفضول شديد إلى قصته التي رواها لهم جاد باختصار شديد، ومن الأحاديث التي نالت اهتمامهم، تعداده لآخر الأسلحة التي يتسلح بها الجنود الأتراك: المسدسات، البنادق، العربات والمدافع والتي أبهرت الحضور الذين لم يعرفوا أسلحة سوى الأسلحة التقليدية منذ مئات السنين للدفاع عن أنفسهم: السيف والخنجر والسهام...

ثم راح يصف بتفصيل مدينة إسطنبول: شوارعها، قصورها، حياة البذخ التي كان سكانها ينعمون بها، وراح يصف القصر السلطاني والتحف الثمينة التي يحتويها، وكمية الذهب الذي صنعت منه مرافقه الداخلية، وهنا لاحظ جاد همهمات بعض الحضور، وعدم ارتياحهم عند حديثه عن بذخ القصر السلطاني، وبعض قصور المسؤولين في الدولة، وتأكد من ذلك عندما قاطعه الشيخ غياث بسؤال استنكاري:

-مصنوعة من الذهب، ذهب.. ذهب؟

ثم تابع: يأخذون منا الضرائب المجحفة ليبنوا قصورهم من الذهب، أي شرع ودين هذا الذي يقول بذلك؟

وهنا أدرك جاد الله أنه في جوٍّ معادٍ للدولة وللأتراك، ومجتمع يشعر بالظلم والقهر، وأدرك أن هناك هوة كبيرة بينه وبين مجتمعه، أو على الأقل بينه وبين الحاضرين في هذه السهرة، سببها تلك العزلة التي أبعدته عن مجتمعه سنوات كثيرة قضاها في إسطنبول لا يعلم حقيقة ما يجري في بلاده، أراد جاد أن يستزيد في معرفة حقيقة الأوضاع في بلاده، واعتبر ذلك ضرورياً لما هو مقدم عليه من عمل يتطلب الحقائق والحقائق فقط لكي ينجح به، فسأل الشيخ غياث:

-يا شيخ غياث كل دول العالم تفرض ضرائب على مواطنيها، فلماذا كل هذا الغضب؟

نظر الشيخ غياث نظرة طويلة في وجه جاد وكأنه يتفحص نوعية الشخصية التي أمامه، ثم أخذ نفساً عميقاً وأطلق زفيراً ظهر فيه كم اليأس الذي يكمن داخله، وقال:

-يا بني، نحن ندفع ثلاثة أرباع أرزاقنا ضرائب للعثملي، وبعضنا يذهب كل جهده وتعبه ضرائب، الأمر لم يتوقف على الضرائب، إنهم يأخذون شبابنا بالقوة إلى حروبهم التي لا ناقة لنا بها ولا جمل في بلاد بعيده ولا يعودون، كثير من رجال العرب أعدموا لرفضهم الظلم، سلاطينهم هم أول من اخترع الإعدام بالخازوق في تاريخ البشرية، واستغرب من نظام يريد أن يعدم مناوئاً له؛ فيعذبه في القتل، ببساطة لماذا لا يقتله بالمقصلة وقطع رأسه، أو بالشنق؟ لماذا تدخل سيخاً من الحديد في مؤخرة المحكوم عليه بالإعدام ليخرج من رأسه وهو حي؟

صمت قليلاً ثم تابع مستدركاً:

حتى تراثنا يا بني يقول لنا عند ذبح حيوان: "أرح ذبيحتك" أي هيئ لها كل أسباب الموت السريع دون ألم أو عذاب، ما بال هذه الدولة تتمع في تعذيب ضحاياها قبل موتهم أو قبل موتها؟.

الكلمة الأخيرة كانت كوخزة خنجر في قلب جاد، لكنه لم يتفاجأ، كل المؤشرات التي يعرفها والتي أشار إليها السلطان تنبئ بذبول زهرة هذه الإمبراطورية العظيمة، ذبول سيتبعه موت لا محالة قادم، كان السلطان يستقرئ المستقبل في حديثه الأخير مع جاد.

بعد أن أحس سعد أن والده انتهى من حديثه، تداخل موجهاً حديثه للجميع:

-يا جماعة الخير، يقولون أن أحد سلاطين العثملي، قرر أن يغير كرسي عرشه الخشبي بعرش من الصخر؛ أحضر صخرة كبيرة بحجم غرفة، وأمر المزخرفين والنحاتين بنحت كرسي العرش في هذه الصخرة، وأن يكون كتلة واحدة بلا أرجل، وأن يرصعوها بالحلي والذهب العربي، وأن يكسونها بالفرش العجمي، فكان كرسي العرش الصخري لوحة فنية جميلة في ظاهرها، لكنها شديدة القسوة في باطنها وجوهرها..

قاطعه أحدهم مستهزءاً:

-ماذا فعل بكرسي العرش الخشبي؟

ابتسم سعد، وأشاح بصره إلى الأعلى قليلاً، ثم سرد هذه القصة:

- كرسي العرش الخشبي؟.. الكرسي، وكي لا يطمع به أحد، ويفكر بالجلوس عليه يوماً ما، خلع أرجله الأربع:

واحدة أشعلها ناراً يتدفأ، والثانية يحرك بها جمر الأولى، والثّالثة صارت عصاه، وبرى الرّابعة خازوقاً للشعب.

تعالت الضحكات والقهقهات من الحضور، باستثناء جاد الذي بدا مصدوماً وبدت ملامحه حزينة، لما يصله الآن من مشاعر حقيقية لم يكن يعلم بها

من قبل، "ألهذه الدرجة كنت أعيش في غيبوبة إسطنبول؟" سأل جاد نفسه بمرارة... إطلاق النكات على الحكومات والزعماء من قبل أفراد الشعب، نذير سوء، تحويل الغضب إلى نكتة، والحزن إلى فكاهة، تعبير عن وصول عامة الناس لحالة من اليأس الشديد، الذي قد ينفجر بغتة على شكل ثورة عارمة...

تابع سعد حديثه بلغة جادة هذه المرة، ولم يلحَظ الضيق الذي بدا على وجه جاد:

يقولون أنّ "الحرة تجوع ولا تأكل بثدييها"، كناية عن الأنفة والشرف والعزة والعفاف لدى الأحرار، لكني أرى أن الحرة التي جاعت، أكلها السلطان.

لاحظ الشيخ غياث ضيق جاد، ومن المعيب في العرف والتقاليد أن يتم مضايقة الضيف بأي تصرف أو حديث، فقال محاولاً الاعتذار:

-أعلم يا بني أنك إنسان طيب، وحديثك الذي سمعته طوال اليوم ينم عن أصالتك، أرجو أن لا تكون قد تضايقت من حديث ولدي سعد فهو شاب ما زال يافعاً و.."

قاطعه جاد وعيناه تتحركان بكل الاتجاهات ما عدا جهة الشيخ غياث:

-لا يا شيخ غياث، أنا لست متضايقاً من حديث سعد، أنا في الحقيقة مندهش ومصدوم مما وصلت إليه الأمور في بلادنا، هل كل من يعيش في

العاصمة وحول الحاكم، يكونون في معزل عن بقية الناس، ولا يرون حقيقة الأمور مثلي هكذا، أم أنا فقط؟.

أراد الشيخ غياث أن يغير موضوع الحديث الذي سبب الحزن لضيفه، فسأل سعد:

-يا سعد، ما هي آخر أخبار الغرباء الذي حطوا في الخرابة على سفح الجبل؟

رد سعد، وكأنه كان ينتظر السؤال في أي وقت وقد جهّز الإجابة:

-كما أمرتني منذ يومين ترصدتهم من مكان مطل، لغتهم غريبة لا هي عربية ولا تركية، يلبسون طواقي، لا يضعون المناديل على رؤوسهم مثلنا، لمحت بعضهم يحمل بنادق تشبه تلك التي يحملها الجنود الأتراك في القدس، ثبتوا سياجاً عالياً حول الخرابة، معهم فؤوس وأدوات حفر سمعت قرعها في الصخر...

لفت حديث سعد عن الأجانب الغرباء انتباه جاد الله، فظهرت عيناه وقد تسمّرت على وجه سعد، فاتسعت حدقتاها، وهو يصغي باهتمامٍ بالغٍ، وتركيزٍ شديدٍ لكلّ حرفٍ، وعندما أنهى سعد جوابه لأبيه، سأله جاد:

-معذرة، من هؤلاء الذين تتحدثون عنهم؟ ومتى قدموا؟

أجاب غياث وقد لاحظ اهتمام جاد الله ولمح في عينيه بعض القلق:

مجموعة من الغرباء مجهولين لنا، لا نعرف لهم أصل أو مقصد، نزلوا قرب مضاربنا منذ أشهر، كنا نعتقد أنهم عابرين باتجاه مصر وخيّموا هنا للراحة،

لكنَّ مكوثهم طال، وعددهم أخذ بالتزايد، لم نلقِ للأمر بالاً، لأنهم بعيدين عن بلدتنا، ولا يؤثرون علينا من قريب أو بعيد.

قاطعه جاد بعصبيةٍ ندمَ عليها:

-كيف لا يؤثرون يا شيخ غياث؟

ثم استدرك هذه الفلتة العصبية وقال بهدوء:

أقصد يا شيخ غياث أنهم الآن لا يؤثرون عليكم، لكن هل تضمن ذلك في المستقبل، وأنت تقول أنّ عددهم يتزايد، وسعد يقول أنّ لديهم بنادق، هل تضمن ألّا يغزونكم في المستقبل يا شيخ؟ خاصة أنّكم لا تملكون بندقية واحدة كالبنادق التي لديهم، تدافعون بها عن أنفسكم وأرضكم وعرضكم وحلالكم...

صمت الشيخ غياث والوجوم ظاهر على وجهه ووجه سعد، ووجوه كلّ الجالسين، وكأنّ جاد أشار لهم إلى ثعبان يطل برأسه من جحر في الجدار الذي أمامهم.

-كلامك صحيح يا ضيف الرحمن، كيف فاتنا هذا الأمر، سأفكر فيه، وأرجو من الله أن يهديني وجماعتي للصواب.

انفضَّت السهرة وذهب كلّ رجل إلى بيته، وبقي كلّ من جاد الله والشيخ غياث وابنه سعد، استأذن جاد من الشيخ غياث بأن يسمح له بالرحيل في اليوم التالي، حاول الشيخ غياث وسعد أن يقنعاه بالبقاء بضعة أيام حتى يشفى تماماً، ويستعيد قوته وصحته، لكن جاد صمم على الرحيل شاكراً

الشيخ غياث على كرمه، وسعد على إنقاذه، وضمر في قلبه مساحة كبيرة من الشكر والعرفان والإعجاب لنورا... فعرض عليه الشيخ غياث أن يرافقه غداً إلى القدس ويستضيفه في بيته هناك في رحلته المعتادة إلى القدس، فوافق جاد، ثم دار حديث مهم بين ثلاثتهم له علاقة برحلة جاد إلى القدس، وتطرق إلى الحديث عن الغرباء استمر أكثر من ساعة، قبل أن يخلد الجميع للنوم...

المدهشة

ورأيتُ الصَّباحَ
ينتزعُ من جبينك إشراقته
ومن شفتيك بعضاً من نداه

استيقظت نورا مع أول خيوط النهار، تعمل بهمةٍ عاليةٍ في تحضير طعام الإفطار للضيف، مما أثار استغراب والدتها، التي اعتادت عليها مدللة، لا تستيقظ إلا في الضحى، تقوم بأعمال البيت الخفيفة فقط، أما أن تقوم بعجن دقيق القمح وتوقد النار، وتخبز بهذا النشاط والهمة ولا تتذمر من لسعات النار، فهذا نادراً ما كان يحصل، في هذا اليوم قامت نورا بنفسها باختيار أفضل شاة عندهم وحلبتها... ومع إشراقة الشمس كان الإفطار جاهزاً، حملته على طبق كبير من القش، وتوجهت به إلى المضافة، ونادت بصوتٍ مسموعٍ على سعد الذي باتَ ليلته مع ضيفه في المضافة، شعر جاد بقلبه يتراقص في صدره سعادة، عندما سمع صوت نورا، أحس بدفق هواء منعش ملأ رئتيه، لم يجد تفسيرا لهذا الشوق الجارف لرؤية نورا، رغم أنه لم يعرفها إلا لسويعات.. فتح سعد باب المضافة وهو يردد: "أنا قادم، أنا قادم"..

تناول الطبق القشي المغطى بالقماش، وعاود الدخول، كان جاد يجلس في منتصف المضافة عندما لمحته نورا، وابتسمت قبل أن تلتف بجسدها الرشيق عائدة لتبلغ أباها ليتناول إفطاره مع الضيف، التقت والدها في منتصف المسافة بين غرفته والمضافة، ألقت عليه التحية:

-صباح الخير يا أبي.

-صباح النور يابْنتي.

-أرسلت طعام الإفطار إلى المضافة، هيا كي تتناول إفطارك.

-اللّه يعطيكِ العافية، ما هذا النشاط يا نورا؟ قالها بابتسامة وحنو.

-هل أنتم مغادرون بعد الإفطار إلى القدس؟

-نعم، إن شاء اللّه، هل تريدين شيئاً من القدس؟

-أريد سلامتك، وماذا ستعطي الضيف ركوبة يركبها إلى هناك؟

-لا أدري يابْنتي، أفكر أن أعطيه الحصان (مهران).

زمَّتْ نورا شفتيها، وكانت حركة عدم رضا تلقائية تقوم بها، اعتاد والدها على رؤيتها عندما لا يعجبها الكلام، فقال:

-ماذا، ما بك؟

ردت وهي تكرر زم شفتيها:

-(مهران)؟ إنه حصان كبير السن، وأنت تعرف أنه ليس بالحصان العربي الأصيل، لا يليق بالشيخ غياث أن يهديه لضيفه، خاصة أنّ الرجل من الأجاويد كما قلت لنا أمس.

-هدية؟، أنا لم أفكر بمهران كهدية، أردته ركوبةً للضيف في رحلته إلى بلدته.

-ولم لا تعطيه ركوبة وهدية بنفس الوقت؟ فيذكرك بها أمام عشيرته يا أبي.

-يسرني أن أهديه، لكن لا يوجد إلا مهران، أم تريدين مني أن أعطيه حصاني (الأغبر)؟!

-لا يا أبي، ما عاش من يركب الأغبر غير فارسه.

صمتت قليلاً متظاهرة بالتفكير وهي تحكُ بإصبعها خلف أذنها، ثم انتفضت وهي تقول:

-(المدهشة)، لماذا لا تهديه مهرتي المدهشة؟

-(المدهشة)؟! وهل تفرطين بمهرتك التي تعشقينها، (المدهشة) رفيقتك منذ ولادتها، أتستغنين عنها؟

-لا بأس يا أبي، هي هدية تليق بك، وواضح أنك معجب بهذا الشاب وواضح أنه نشميّ وسيصونها ويعتني بها، ويستحق على ما وصفته لنا بأن يكون خيّالها.

صمت الشيخ غياث قليلاً وهو يفكر بكلام نورا، ربت على كتفها قائلاً:

-حسناً، مشورتك محل تقدير مني، ولو أنّ اقتراحك بإهداء (المدهشة) مثير للدهشة.. لم أكن أتصور أنك ستستغنين عنها يوماً ما.

ثم سار باتجاه المضافة وهو يهز رأسه يميناً وشمالاً تعجباً...

الطريق إلى القدس

كان مشهد مغادرة جاد الله مع الشيخ غياث من فناء البيت في عين جدي متوجهين إلى القدس، مؤثراً ومختلطاً على الجميع، كان الشيخ غياث يمتطي حصانه (الأغبر)، وجاد الله يمتطي هديته المهرة (المدهشة)، ومجموعة من الرجال بينهم سعد يدعون للرجلين بالسلامة واليمن، فيما وقفت نورا بعيداً تنظر بانكسار ودموعها تنهمر بغزارة على خديها وهي تلوح بيدها، لاحظ الجميع بكاء نورا، لم يثر الأمر أي ريبة لديهم، الجميع يدرك أن نورا متعلقة جداً بمهرتها، وفراقها صعب ومؤلم لنورا، ولا غضاضة أن تتساقط دموعها على رفيقتها، وهي تعلم أنها لن تراها مرة أخرى، لكن الحقيقة أن نورا كانت تذرف دموع الوداع بحرارة على أغلى مخلوقين عرفتهما من غير أهلها: حبيبها جاد، ورفيقتها المدهشة..

لمح جاد بكاء نورا وتلويحها، فأصابه همٌّ وغمٌّ وحزنٌ، همَّ بالترجل عن المهرة وإعادتها، لكنه تراجع بعد أن قرر في تلك اللحظة شيئاً ما في نفسه.

لاحظ الشيخ غياث وهما يتجاوزان آخر بيت في البلدة تكدر جاد الله وصمته، وبدا له أنه فهم السبب، فقال لجاد محاولاً شرح الأمر:

- ابنتي نورا شهدت ولادة مهرتك المدهشة، وهي من أسمتها المدهشة.

صدرت منه ضحكة خافتة وهو يتابع حديثه:

- لقد كنت أراقب ابنتي الصغيرة نورا، وملامح الدهشة بادية على وجهها، وهي تشاهد الولادة، كانت منبهرة بما تشاهده لأول مرة في حياتها، وعندما رأت نورا المهرة الوليدة، وهي تجاهد للوقوف على قوائمها بعد الولادة، نظرت إليّ وقالت "مدهشة.. إنها مدهشة يا أبي!.." قالت أنها تريدها، فأعطيتها إياها، ومنذ ولادتها وهي تعتني بها، تطعمها وتسقيها، وتغسلها، لدرجة أنها كانت في بعض الليالي تبيتها عندها بالخفية عني بعد أن منعتها من ذلك.. وعندما كبرت صارت تمتطيها وتعدو بها، دربتها، وتدربت عليها.. نورا ابنتي فارسة لا بأس بها.. أرجو أن تعذرها في بكائها على رفيقتها، أنا أهديتك المدهشة بنفس رضية، بارك الله لك بها.

كان جاد يستمع باهتمامٍ بالغٍ لحديث الشيخ غياث، كيف لا يهتم ونورا هي محور الحديث، قال وقد بدا الخجل ظاهراً عليه:

- لا أجد كلمات تعبر لك عن شكري وعرفاني لطيب ضيافتكم، وكرم عطيتكم وهديتكم هذه (المدهشة)، التي اتضح لي أن قيمتها لا تقدر بثمن لأنها غالية عندكم وخاصة عند ابنتكم نورا، وأعدك يا شيخ غياث أني سأعيد المدهشة لابنتكم المصونة بعد أن تستقر أموري.

قاطعه الشيخ غياث وقد ظنّ أن جاد فسر كلامه تفسيراً خاطئاً لم يقصده:

- لا يابُني، المدهشة هدية مني لك بنفسٍ رضيةٍ وكذلك نورا، سأفشي لك سراً حتى يهدأ بالك، نورا هي من اقترحت عليّ أن تكون المدهشة ركوبتك وهديتي إليك، وقد ألحت عليّ بهذا الأمر.

- أرجو عندما تعود بسلامة الله أن تبلغ شكري لها على تضحيتها.

ثم ساد صمت لا يخرقه سوى صوت دعسات حوافر الخيل على الأرض، عندما تذكر جاد أمراً مهماً عزم عليه منذ الليلة الفائتة، طلب من الشيخ غياث أن يعرج بهما إلى مكان نزول الغرباء الذين تحدثوا عنهم بالأمس.. استجاب غياث لطلب جاد، رغم أنه قال أن المكان ليس في طريقهم إلى القدس، وسيضطر للانحراف قليلاً عن مسارهم.

بعينيّ صقر كان جاد يتفحص المكان وهما يسيران بالقرب من السياج المضروب حول أطلال المعبد الكنعاني القديم، لاحظ بعض الرجال ينظرون إليهما نظرات عدائية وكأنهم يقولون ما الذي جاء بكما من هنا، بعضهم كان يحمل بنادق، ورأى بعض النساء أيضاً، جميعهم ببشرة شديدة البياض، حاول جاد معرفة لغتهم؛ فألقى عليهم التحية باللغة العربية؛ فلم يردوا، ثم ألقاها بالتركية، ولم يردوا، ألقاها بالألمانية التي تعلمها في الدورة العسكرية، لم يعرِهما أحد أي اهتمام، ثم ألقى التحية بالإنجليزية فأشاحوا وجوههم. قرر أن يختبر ما كان يخشاه، قال بصوتٍ مرتفعٍ:

- "شالوم".

فانتبه الجميع وأطالوا النظر إليهما، لكنهم لم يردوا أيضاً، وظلت نظرات الغرباء تراقبهما حتى اختفيا عن أعينهم.

بعد أن ابتعدا عن المنطقة المسيّجة، نظر جاد إلى غياث وقال ونبرة الخيبة في لهجته:

- هذا ما كنت أشك به وأخشاه يا شيخ غياث.

- ماذا؟! قال غياث مستفسراً.

- أتذكر ما حدثتكم عنه ليلة أمس أنت وسعد بعد أن غادر الرجال المضافة؟

- أتقصد حديثك عن مخططات ومؤامرات لتهجير يهود إلى بلادنا، والاستيلاء عليها؟

- نعم، صحيح.

- اسمع يا جاد، رغم أن كلامك أمس غير منطقيّ، وغير قابل للتصور، لأنه لا يمكن لعدة آلاف يتم تهجيرهم إلينا من يهود العالم، أن يستطيعوا السيطرة على بلادنا ونحن بهذه الكثرة، لكن هات ما عندك.

- يا شيخ غياث، عندما تكون المؤمرات والمخططات لدول كبرى وجيوش عظمى تجتمع وتتفق على كارثةٍ ما لشعبٍ ما، سيكون الأمر أكبر من طاقة وقدرة الشعب على إفشاله، خاصة إذا كان هذا الشعب لا يرى ما يحاك له ولوطنه، إلا في حالة واحدة، أن يتم وأد هذه الكارثة في مهدها قبل أن تكبر وتستفحل، وها أنت من البداية لا تستطيع أن تصدق أو تتصور أن هناك

مؤامرة تحاك ضد بلادنا، وتعتقد أن كل ما في الأمر هو بضعة آلاف من اليهود، لن يحدثوا تأثيراً على شعب بكامله. أتعرف من هؤلاء الغرباء يا شيخ؟

- قلت لك بالأمس أننا لا نعرف لهم أصل ولا نعرف هدفهم من نزولهم وإقامتهم هنا.

- صهاينة، هؤلاء صهاينة يا شيخ غياث.

بدا أنّ الشيخ غياث لم يسمع بهذه الكلمة من قبل، عندما سأل:

- وماذا يعني صهاينة؟ لم أفهم!

- الصهيونية يا شيخ هي حركة سياسية أنشأها بعض اليهود الأوروبيين قبل أكثر من إحدى عشر سنة، بدعم من دول أوروبية عظمى مثل بريطانيا، هدفهم إقامة دولة لليهود في مكانٍ ما في العالم، وبلادنا واحدة من الأماكن المقترحة لإقامة هذه الدولة.

كانت الدهشة بادية على غياث وهو يستمع لتلك المعلومات يلقيها جاد على مسمعه:

- يهود؟.. وكيف تعرف كل هذه المعلومات يا بني؟!

- أنسيت أني كنت في حرس السلطان وكنت مقرباً من السلطان عبد الحميد؟! لقد شاهدت بأم عيني المبعوثين اليهود الذين كانوا يحاولون مساومة السلطان على بلادنا فلسطين.

ساد الصمت لأكثر من عشرة دقائق كل منهما يفكر في أمر ما، الشيخ غياث يفكر بكلام جاد ويقلبه في رأسه، وجاد يفكر فيما يجب عليه فعله في القدس، ثم فجأة أوقف جاد مهرته المدهشة، ونظر إلى الشيخ غياث نظرة أظهرت للشيخ غياث قوة شخصية هذا الشاب عندما قال بلهجة حاسمة:

- هؤلاء الغرباء يا شيخ غياث يهود أوروبيون صهاينة، ومن قسماتهم التي رأيتها وطبيعة أجسامهم وحركتهم هم مقاتلون مدربون، يملكون سلاحاً لا تملكونه، ووجودهم في هذا المكان ليس محض مصادفة، بلدتك وعشيرتك في خطر، أراضيكم في خطر ماشيتكم في خطر، لن تعلم متى سيداهمك هذا الخطر، ولا نعلم كم بلدة أخرى في بلادنا تواجه نفس هذا الأمر!!

صمت قليلاً وقد بدا عليه التردد، لكنه قرر التخلي عن حذره وقال لغياث:

رحلتي هذه إلى القدس لها علاقة بهذا الأمر، أتوسم فيك خيراً يا شيخ غياث، ولن أخفيك سراً...

عاود الصمت لثوانٍ وكأنه ينزع فتيل قنبلة ليلقيها على غياث:

- أنا يا شيخ غياث عدت لبلادي في مهمة محددة وتاريخية لإنقاذ بلادنا قبل أن تستفحل المؤامرة، الإمبراطورية التركية ستنهار عاجلاً أم آجلاً، كل المؤشرات تشير إلى ذلك، هذا ما أنبأني به السلطان عبد الحميد قبل عودتي إلى هنا، لدي مهمة مع الشرفاء أمثالك في منع هجرة اليهود إلى بلادنا ومنع

تسريب أراضينا إليهم، أريدك معي في هذه المهمة أنت والنشمي سعد ولدك، وأي شخص من عشيرتك يكون مكان ثقة لك.

لم يتردد الشيخ غياث في إجابة جاد الله:

- أنا وولدي معك على الموت يا بني، كلامك جدي ومقنع.

ظهر الارتياح على وجه جاد، واستعاد ملامحه البشوشة بعد جواب غياث له، لكنه قال بلهجة تحذير واضحة:

- هذا الأمر سريٌّ جداً يا شيخ، لا يجب أن يعرفه أحد، إلا من تعتقد أنهم محل ثقة ولديه الرغبة بالعمل معنا في مهمتنا، سأعاود التواصل معك بعد أن أرتب أموري هناك في شمال البلاد، ومن الآن أنت مسؤول في هذا الأمر عن منطقة جنوب البلاد.

رد غياث بلهجة فيها حماسة:

- طبعاً طبعاً، السرية والحذر مطلوب، حسناً بعد عودتي من هذه الرحلة، سأذهب إلى الخليل، وبئر السبع، ففيهما رجال ثقات كُثر ممن أعرفهم، ويملكون نزعة وطنية لمستها كثيراً فيما مضى.

لكز جاد مهرته التي عاودت المسير وكذلك فعل غياث مع حصانه:

- "بقي هناك أمر واحد يا شيخ غياث".

- ما هو يا بُني؟

- أسرع بالتصالح مع شقيقك وأبناء عمومتك، هذا أول شيء يجب أن تفعله فور عودتك من القدس.

- لكنهم يريدون أن يقاسمونا أرضنا التي تعبنا فيها وعمّرناها بعرقنا وجهدنا.

- أنتم مختلفون على الأرض؟ حسناً، إن لم تتصالح مع أبناء عمومتك وتكونوا وحدة واحدة لن يبقى لديكم أرضاً كي تختلفوا وتتصارعوا عليها. التغلب على الخطر القادم يتطلب بعض التضحية، وأن يتنازل بعضكم لبعض.

هزَّ غياث رأسه:

- سأرى ما يمكنني فعله في هذا الشأن.

عندما دخل جاد والشيخ غياث القدس كان آذان المغرب ينطلق من المسجد الأقصى، فتوجها إليه، وأديا صلاة المغرب جماعة، قبل أن يتوجها إلى دار الشيخ غياث المغلقة منذ أشهر، ربط كل منهما راحلته في المكان المخصص لذلك في فناء الدار الخارجي، وفتح الشيخ غياث الباب، ومر على كل الشبابيك يفتحها واحداً تلو الآخر، لتهوية الغرف وهو يحدث جاد عن الدار:

نقضي فيها من شهرين إلى ثلاثة في صيف كل عام، أنا وزوجتي وسعد ونورا، سعد ونورا يعرفان القدس شبراً شبراً.

"أنتم مقدسيين إذاً"... قال جاد مازحاً.

"نصف مقدسيين" قال غياث وهو يضحك، فضحك معه جاد الله...

علاقة غير شرعية

لندن 1896م (قبل ثلاثة عشر عاماً)

كانت (رفكة) ذات السبعة عشر ربيعاً، فتاة يهودية بريطانية من عائلة غنية ومتدينة جداً، بل أنّ عائلتها كانت رمزاً دينياً يهودياً تتمتع بعلاقات متشعبة وجيدة مع جميع التجمعات اليهودية في العالم وفي أوروبا خاصة، جمعتها الصدفة بداية عام **1896**م مع ضابط شاب في مرحلة التأهيل العسكري في الجيش البريطاني يدعى (إدوارد) ونشأت بينهما علاقة حبٍّ غير معلنة، كانت رفكة تخفي عن عائلتها تلك العلاقة غير المرحب بها حتماً –كما كانت تعتقد–مع ذلك الشاب الإنجليزي...

استمرت لقاءاتها مع إدوارد طوال ذلك العام بشكل دوريّ في كل إجازة له من الجيش، حتى جاء ذلك اللقاء الأخير في الأول من شهر ديسمبر في واحد من أيام الشتاء العاصفة، عندما أرسل لها أنه ينتظرها في بيته لأمر هام وعاجل.. بدت رفكة مرتبكة تتلفت يميناً وشمالاً وقد بللها المطر، فشفَّ جزءاً من جسدها عبر مقدمة ثوبها الأبيض، وهي تطرق باب ادوارد خشية أن يشاهدها أحد ممن يعرفون أسرتها، فيتعرف عليها.. فتح إدوارد الباب،

وبدرت منه ابتسامة ترحيب صاحبها، ارتباكٌ لمحته رفكة في وجه حبيبها، قال إدوارد:

-"مرحباً رفكة".

لكنه ظل واقفاً بالباب يسده بجسده، فقالت رفكة:

-"ألن تدعوني للدخول".

ازدادت مظاهر الارتباك على وجه إدوارد وهو يقول:

-"لا، كل رفاقي الضباط في الداخل، نحن في إجازة والأجواء صاخبة في الداخل، سأدخل وأستأذن منهم، انتظريني في الحظيرة، وسآتيك بعد قليل".

وهو يشير إلى يمين البيت حيث حظيرة الخنازير.. ثم دخل وأغلق الباب خلفه.. وقفت رفكة لحظات واجمة، فكرت بالتراجع، قبل أن تتوجه إلى حيث أشار إدوارد..

لم تكن رفكة تصدق نفسها وهي تجلس على كومة من القش الجاف تجول بنظرها داخل الحظيرة في هذا المكان القذر الموحل، تشاهد نفسها وسط الخنازير وصغارهم من الخنانيص ونخيره المزعج.. بالنسبة لها ولعائلتها المتدينة هذا مكان نجس، لا يصح أن تتواجد فيه، لم تعلم رفكة أنّ نجاسة الأنفس والأرواح، أشد أذىً من نجاسة الأماكن.. كانت الشمس قد أفلت ذلك اليوم عندما دخل عليها إدوارد الحظيرة، وأخبرها بأنّ رفاقه في الجيش يقيمون له حفل وداع صاخب في البيت بمناسبه تعيينه في الهند كواحدة من المستعمرات البريطانية، وعندما سألته رفكة عن هذا التطور الجديد

وتداعياته عليهما، طمأنها بأنّ سفره سيكون بعد أسبوعين ولن يؤثر على حبّه لها، وأنه سيرتبط بها قبل سفره.
هناك عاصفة من الرياح والأمطار كانت تشتد خارج الحظيرة، وعاصفة أخرى من المتعة المحرمة ابتدأت داخل الحظيرة، حيث واقع إدوارد رفكة عندما كان الشيطان ثالثهما.

انتهت العاصفتان: الأولى لم تترك أثراً يذكر، لكن العاصفة الثانية التي كانت داخل حظيرة الخنازير ستترك آثاراً وخيمة على كثير من الأبرياء.
اختفى إدوارد بعد تلك الليلة، كأنه لم يكن من قبل، سألت رفكة كثيراً عنه، لكنّ أحداً لم يعطِها جواباً شافياً، سافر إدوارد في اليوم التالي، ولم يظهر بعدها أبداً، غاب إدوارد وذاب كما يذوب الملح في الماء، حتى اعتقدت رفكة لفترة أنه لم يكن هناك وجود لشخص اسمه إدوارد، وتخيلت إنما هو مجرد شيطان غواها واختفى.
بعد ثلاثة أشهر من تلك الليلة العاصفة، بدأت مظاهر الحمل تظهر على رفكة، كانت رفكة حزينة ومكتئبة فبعد ستة أشهر ستلد طفلاً غير شرعي، طفل لا أب له.. كثيراً ما سألت رفكة نفسها: هل كانت ضحية في هذه الغواية، أم أنها شريكة فيها؟

في قرارة نفس رفكة، كانت تعتبر نفسها شريكة في هذه الجريمة، لكنها كثيراً ما كانت تكابر أمام والديها -اللذان عرفا تفاصيل ما حدث معها- وتقول أنّها كانت ضحية لذلك الإنجليزي الخبيث -الذي كانت تطلق عليه وصف الشيطان-الذي أغواها للرذيلة.

طوال الأيام الماضية، كان والد رفكة ووالدتها يفكران في طريقة للخروج من هذه الورطة التي ورطتهما فيها ابنتهما، فسُمعتهم كعائلة ذات مكانة اجتماعية ودينية مرموقة، تحتم عليهما إيجاد حلٍ مناسب، ومن سيجدان غير رجال السياسة الميكافيلليين الطموحين لوأد هذه الفضيحة؟، أولئك السياسيين الانتهازيين الذين يؤمنون بأنّ "الغاية تبرر الوسيلة، مهما كانت دناءة هذه الوسيلة"...

وجد والد رفكة ضالته في صحفي وسياسي يهودي نمساوي يدعى (زئيف)، كان زئيف كثير التردد على والد رفكة خلال السنوات الفائتة، في محاولة منه لضمان دعم وتأييد ديني لطموحه المعلن في تشكيل تنظيم يهودي عالمي، وكان زئيف يبالغ في التقرب إلى والد رفكة لدعمه مالياً أولاً، والأهم كان الدعم الديني لإشباع رغبته وطموحه في ارتقاء أعلى المناصب السياسية، وبلغت ذروة التقرب إلى والد رفكة أن طلب قبل عام الزواج من رفكة، إلا أن رفكة رفضته باعتبار أنه زواج مصلحة، ووالد رفكة رفض طلبه بسبب نهجه العلماني في كتاباته وتوجهه السياسي، اتصل والد رفكة بالصحفي زئيف وطلب منه الحضور، وبعد أن تناول زئيف العشاء مع العائلة بوجود

رفكة، اختلى والد رفكة بزئيف وعرض عليه الزواج من رفكة، فوافق على الفور، حتى عندما أبلغه والد رفكة بأنّها حامل في شهرها الثالث، وحكى له تفاصيل قصتها، لم يبدِ زئيف أيّة ردة فعل أو انزعاج مما فعلته رفكة مع الضابط الإنجليزي، لكنه في نفس الجلسة طلب زئيف من والد رفكة أن يستخدم نفوذه على الجاليات اليهودية في أوروبا والعالم كي يساندونه في زعامته السياسية، فوافق والد رفكة معتبراً ذلك ثمناً مقبولاً للخدمة التي سيسديها له زئيف.. عندما تمتم: "نحن اليهود، لا نقدم شيئاً دون ثمن، وعادة ما يكون الثمن أكبر من قيمة ما نقدمه" ...

خلال أسبوع كانت مراسم الزواج قد تمت.. وبعد شهر من الزواج طلب والد رفكة من زئيف أن يأخذ زوجته ويغادر لندن وإنجلترا كلها، في محاولة منه لإبعاد رفكة عن الأعين، كي لا ينكشف أمرها.. تدبّر والد رفكة عملية نقله كصحفي من إنجلترا إلى سويسرا...

المسخ

لم تكن رفكة على وفاق مع زئيف في جميع النواحي، الاجتماعية والسياسية والسلوكية، كانت تعرف أنه سياسي انتهازي، وأنه قبل بزواجها من أجل مطامعه ومطامحه السياسية ومصالحه الشخصية، كانت رفكة سياسياً مع الرأي القائل باندماج اليهود في مجتمعاتهم أين ما وجدوا، في حين كان زئيف مع المروجين لفكرة إيجاد دولة خاصة باليهود.. ففي حين كان زئيف يحاول إقناع العالم عبر كتاباته أن اليهودية هي قومية وليست فقط ديانة، كانت رفكة وأسرتها تعتقد أن اليهودية ليست أبعد من كونها ديانة، ودللت على ذلك في أحد النقاشات الحادة التي فرضها عليها زئيف عندما قالت له:

-أنت تعلم يا زئيف أن كل اليهود في أوروبا ينحدرون من شعوب الخزر ولم يكن لهم عبر التاريخ أي رابط دم أو عرق مع يهود الشرق، أصول اليهود متعددة، حتى الصفات الوراثية مختلفة بشكل واضح للعيان.

ثم تابعت:

-أنا وعائلتي وكثيرون مثلنا في أوروبا يؤمنون باليهودية كديانة فقط ويرفضون اعتبارها قومية تؤسس لفكرة شعب.

كان زئيف يحاول دائماً ابتزازها حتى برأيها بتذكيرها بعارها، كان كثيراً ما يغمز ويلمز عن حملها من تلك العلاقة غير الشرعية قبل أن يقبل بالزواج منها.. لكنها كانت ترد عليه بقوة في كل مرة:

-"لقد قبضت الثمن يا زئيف".

بل أنها في المرة الأخيرة زادت عندما قالت له باحتقار:

-"نعم أنا أعترف بالخطيئة التي اقترفتها.. خطئي هذا لا يساوي شيئاً مع الزنا السياسي الذي تمارسه أنت في البيت اليهودي، وقبولك أن تكون أبا لطفل غير شرعي، كل منا له عاره، لكنك موصوم بأكثر من عار أيها الزعيم".

فرد عليها بغضب:

-"أنا أمارس دوري القيادي لليهود في العالم".

فردت عليه بحدة، وهي تضع يدها على ظهرها وقد أصبحت في شهرها التاسع في ذلك اليوم:

-أنت لا تمارس دور القيادة لليهود يا زئيف، أنت تمارس دور القوادة على اليهود.. القادة الحقيقيون لليهود هم أمثال أبي، من الذين لا يوردون اليهود المهالك، كما تفعلون أنتم الآن.

ما أن أنهت رفكة جملتها الأخيرة حتى شعرت بآلام المخاض...

عانت رفكة على مدى يومين من مخاض عسير أنهكها واستنزف كل طاقتها للحياة، لم يكترث زئيف لمعاناة رفكة، كان يجلس فوق رأسها ببرود استفز جميع الحاضرين.

في نهاية شهر أغسطس من عام **1897** أنجبت رفكة طفل الخطئية، لم تشاهد رفكة ما أنجبت سوى مرة واحدة، صدمتها به كانت مؤلمة، اعتقدت أنه عقاب إلهي، وأنه لعنة المكان النجس الذي واقعها فيه إدوارد، فراحت في غيبوبة لم تستفِق منها أبداً، فارقت روحها الجسد بعد يومين من الولادة، في الواحد والثلاثين من أغسطس ماتت رفكة، إثر نزيفٍ حادٍ ما بعد الولادة.

كان المولود رغم بشرته البيضاء وعيناه الزرقاوان ذا شكلٍ قبيحٍ، ولد بتشوهات خلقية متعددة: بدت كفاه كأخطبوط بتلك السبعة أصابع الطويلة في كلّ كف، رأس كبيرة وجبين بارز في مقدمته، أنف أفطس أقرب لأن يكون ثقبين في منتصف الوجه، وشفة علوية مشرومة، وأذنان كبيرتان مشنفتان إلى الأمام باستمرار...

دُفنت رفكة في سويسرا، وسجل زئيف الطفل باسمه، وأطلق عليه اسم (زِيُون)...

كان والد رفكة يشعر بالخزي كلما وقعت عيناه على زيون، فإضافة إلى أن زيون طفل خطيئة، فهو بشع وكريه الشكل، قبل أن يكتشف هو وزئيف بعد سنوات أن زيون ولدٌ أصم غير قادر على السماع، ونتيجة لذلك فهو غير قادر على الكلام، رغم ملاحظتهما أنه ذكي بشكل ملفت لقدرته على قراءة حركة الشفاه...

حصل زئيف على ألف وخمسمائة جنيهاً من والد رفكة مقابل التخلص من زيون بطريقة لا تثير الشبهات.. لكن زئيف فكر بطريقة أخرى بعد أن قبض المال.

اجترار

الأفكار التي ثبت نجاحها سابقاً
يمكنك اجترارها الآن
وإعادة تشكيلها لتناسب الحاضر

اجترار الفكرة

على مدى شهرين متتابعين، جال زئيف معظم الدول الأوروبية، والتقى مع مسؤولين في هذه الدول بصفته الصحفية، كان يستغل تلك اللقاءات الصحفية مع رؤوساء الحكومات ليطرح على هامش هذه المقابلات فكرته الخبيثة على شكل صفقة، وكان كالعادة يُدخل في صفقته بعض المال من صندوق الوكالة الذي تم إنشاءه على شكل رشوة مقنعة تحت بند مساعدة الحكومات ودعمها، كانت فكرته تلقى ترحيباً من البعض، واشمئزازاً من البعض الآخر بداية الأمر، ثم سرعان ما يتحول هذا الاشمئزاز إلى قبول تحت إغراء المال، وتحت أسلوب زئيف المقنع واللبق في نفس الوقت..

في مقابلة زئيف مع (روبرت سيسل) رئيس وزراء بريطانيا العظمى وأيرلندا في عهد الملكة فكتوريا، وقد كان أيضاً إضافة لرئاسته للحكومة يحتل منصب وزير الشؤون الخارجية وشؤون الكومنولث، كان زئيف ينظر إليه وهو يقول في نفسه: "سأصطادك أيها الدب الأحمر"..

كان روبرت سيسل ضخم الجثة، أصلع الرأس، بذقن حمراء طويلة وكان يلقب بـ (ماركيز سالزبوي الثالث)، كان من المؤمنين بخبرات الرجال، كان يردد على مسامع من حوله دائماً مقولته: "غرام من الخبرة، يوازي طناً من النظريات"، كان شكله يوحي أنه مفكر أو فيلسوف جاء من الزمن الإغريقي القديم.. قال له زئيف وقد أحنى رأسه احتراماً وتذللاً:

-"نحن لدينا رغبة وأمل يا سيدي بأن تساعد حكومة جلالة الملكة في تشجيع هجرة اليهود إلى فلسطين".

-"من تقصد بـ نحن؟". قال سيسل مستفسراً

-"نحن زعماء اليهود، الصهاينة الجدد".

عاد سيسل بظهره إلى الكرسي شابكاً أصابع يديه على بطنه:

-"أنت تعلم يا زئيف أن أية تصرفات من هذا النوع من قبل حكومة جلالة الملكة سيثير غضب الأتراك، خاصة السلطان عبد الحميد الثاني، فهو متشددٌ في موضوع فلسطين، ومثل هذه التصرفات، ستعكر علاقتنا بالدولة التركية بشكل قد يدخلنا في حرب لا نريدها الآن.."

صمت سيسل قليلاً ثم قال مستفسراً وكأنه تفطن لشيء:

"هل عدلتم عن فكرة إقامة وطن لكم في أوغندا".

تنحنح زئيف وهو يجهز رداً متملقاً لرئيس الوزراء:

-"يا سيدي، أنت تعلم أن قيادة اليهود الجديدة بعد المؤتمر الصهيوني لا تألو جهداً في خدمة بريطانيا العظمى، واختيارنا أوغندا لإقامة دولتنا كان لنفس الأسباب التي اخترنا بها فلسطين، إن السماح لنا بإقامة دولة في أي من الخيارين المقترحين يصب في مصلحة بريطانيا العظمى الاستراتيجية في العالم..."

ثم تابع زئيف وهو متأكد أنّ هذه هي اللحظة المناسبة لفتح باب القفص، واستدراج الدب الجالس أمامه للدخول قبل الإطباق عليه:

-"نعلم يا سيدي أهمية مصر الاستراتيجية للمملكة المتحدة، ومدى حرص حكومتكم لاستمرار التأثير على الحكم في مصر أياً كان الذي يحكمها، وإبقاء السيطرة على قناة السويس عصب الاتصالات والنقل بين مستعمراتكم المترامية خاصة في شرق آسيا، ولأنّ مصر هي هبة النيل كما يقول الحكماء والشعراء والسياسيون القدماء منهم والجدد، فوجود مستعمرة لكم باسمنا نحن اليهود في أوغندا، سيجعلكم قريبين من منابع النيل، سيكفل لكم التحكم في مصر عن طريق التحكم بمنابع النيل، مما يعني عدم خروج قناة السويس عن السيطرة البريطانية، بوجودنا هناك ستقبضون على روح مصر بأيديكم.. أما مساعدتكم لنا بإقامة دولة في فلسطين، فسيضمن لكم حماية القناة دون جهد يذكر منكم،

وسيوفر لكم السيطرة على قناة السويس بدماءنا نحن اليهود، ولن تبذلوا قطرة دم واحدة من دماء جنودكم، سنشكل نحن اليهود مستعمرتكم الجديدة في المنطقة العربية والإسلامية.. "

قاطعه سيسل بسؤالٍ مستفزٍ:

-"هل ترضون أن تكونوا كلبَ حراسة لنا في المنطقة؟.. وهل جميع زعمائكم يوافقون على ذلك؟".

كان رد فعل زئيف بارداً جداً، مما أثار استغراب سيسل، حتى أن حمرة الخجل مما يقترحه لم تظهر على وجه زئيف الذي قال:

-"أنا يا سيدي أسميها المصالح المتبادلة بيننا، أما سؤالك الثاني، فإجابته لا، هناك زعماء ومفكرين وسياسيين يهود يرفضون فكرة إقامة دولة لليهود في أي مكان، وهم الذين رفضوا فكرة المنظمة الصهيونية، وهم قلة ولا يعتد برأيهم لدينا".

ثم أخرج قلماً وورقة وكتب فيها بضعة أسطر ودفعها لسيسل الذي أخذ يقرأ بصوتٍ مرتفعٍ:

"سنستخدم كل إمكانيات اليهود في العالم بما فيها المالية، لجعل فلسطين ضمن النفوذ البريطاني بعد زوال الحكم التركي لها، وإذا ما دخلت فلسطين ضمن النفوذ البريطاني ووافقت الحكومة البريطانية على تشجيع إسكان اليهود فيها، فإنه يمكن أن يصير لنا فيها خلال عشرين أو ثلاثين عاماً نحو

مليون يهودي أو ربما أكثر من ذلك، فسيشكلون حراسة عملية قوية لقناة السويس، أرجو منكم عرض هذه الورقة على وزارة الحرب البريطانية".

بدا الاقتناع على وجه سيسل، بعد قراءة هذا التعهد المكتوب، فوجه سؤالاً مباشراً لزئيف:

-"ما الذي تطلبونه بالضبط".

بعد أن اطمأن زئيف أنّ الدب الأحمر دخل القفص، قرر أن يطعمه الفكرة العملية الثانية:

-"نرغب منكم يا سيدي أن تساعدونا بهجرة اليهود إلى فلسطين، ولا نطلب أن يكون الأمر علنياً، بل بشكلٍ سريّ، ونحن سنتكفل بإدارة عمليات الهجرة وتكاليفها، فنحن لا نريد أن تتعكر علاقاتكم مع الأتراك.."

ثم صمت قليلاً وكأنه ينظم أفكاره وتابع:

-"نعلم أن اليهود الأغنياء لن يذهبوا إلى هناك، نحن نستهدف أولئك الفقراء والمعدمين من اليهود، لكن في المرحلة الثانية، فهناك مرحلة تمهيدية مهمة نرجو منكم الموافقة عليها".

-ماذا؟.. سأل سيسل

-"ماذا لو أطلقتم جميع السجناء ومنهم اليهود من سجون المملكة المتحدة، ونحن نتكفل بإرسالهم إلى فلسطين في مجموعات، هكذا ستتخلص

مملكتكم من المجرمين وتكاليفهم، وسيكون لنا نحن مخلب قط لتمهيد السيطرة على تلك البلاد".

نظر سيسل إلى زئيف بازدراء وهو يقول بلهجة حازمة:

-"هذا أمر ليس أخلاقياً أبداً، ندفع باللصوص والمجرمين القتلة والمغتصبين بأعداد كبيرة إلى شعوب أخرى؟! هذا غير مقبول".

حدّق زئيف في عيني سيسل وأطال النظر فيهما، وكأنه يريد تنشيط ذاكرته لكسر عينه في موضوع الأخلاق الذي تنافخ به.

-"ما بك؟". قال سيسل مستفسراً عن مغزى نظرات زئيف

-"لا شيء يا سيدي، لكني آبى أن تتصرف إمبراطوريتكم بطريقة غير أخلاقية، هل أذكركم بالتاريخ يا سيدي كي تقتنعون أن الأمر أخلاقي جداً، ولا غبار عليه"

لم يترك زئيف مجالاً لسيسل للرد بنعم أو لا؛ فتابع:

-"ممن تشكلت الطلائع الأولى لجيشكم في السيطرة على أستراليا ونيوزلندا، ألم تكن من السجناء، من اللصوص والمجرمين والقتلة الذين تم إخراجهم من السجون وتدريبهم عسكرياً وإرسالهم تحت قيادة ضباط الجيش البريطاني؟، كيف أبيد سكان تلك البلاد الأصليين، وكيف اغتصبت أرضهم؟... من هم الذين أبادوا الهنود الحمر واغتصبوا أرضهم وبلادهم، قبل أن تصبح الولايات المتحدة الأمريكية، أليسوا تلك الأعداد الكبيرة القتلة والمجرمين ممن أطلق سراحهم من السجون؟! مقابل فرصة لحياة أخرى لهم

في تلك البلاد، وأيضاً ضمن قطاعات جيوشكم وتحت قيادة ضباطكم؟"... هلا رجعت للتاريخ يا سيدي ولوثائقه، إنها أعمال مشروعة للدول، التضحية بدماء بالمجرمين الذين لا أمل لهم لتوفير دماء الصالحين الذين يستحقون الحياة.. نحن لا نطلب أكثر من ذلك، أعطونا لصوصنا ومحتالينا، ومجرمينا من القتلة والمغتصبين وسنمهد بهم لقيام دولتنا في فلسطين، هل هذا كثير، بل هذا يعد رفعاً لعبء هؤلاء عن كاهل دولتكم".

ثم نهض من مكانه وهو يشاهد الصدمة على وجه سيسل، وتقدم من مكتب سيسل ورمى أمامه ورقة شيك قائلاً:

-"هذا شيك موقع من الوكالة اليهودية، مبلغه مفتوح تضعون ما ترونه مناسباً كتكاليف لهذه العملية".

ثم استأذن بالانصراف حانياً رأسه سائراً إلى الخلف باحترامٍ زائفٍ حتى وصل الباب، ثم استدار وخرج...

دنين

عندما يكون المجرمون سلعة قابلة للتصدير

تساوقت كثير من الدول الأوروبية مع مطلب الحركة الصهيونية ممثلة بـ زئيف في التخلص من النزلاء اليهود في سجونها، وبدأت بقذفهم عن طريق الوكالة اليهودية إلى فلسطين، أرسلت الدفعة الأولى المكونة من ثمانية وأربعين شخصاً منهم تسع نساء على متن سفينة بضائع، حملت على متنها ثمانية وأربعين صندوقاً فارغاً، وصل منهم خمسة وأربعين فقط، حيث قتل ثلاثة منهم خلال شجار نشب على ظهر السفينة، وتم إلقاء جثثهم في البحر.. رست السفينة في ميناء حيفا، وبعد أن تم وضع كلّ شخصٍ في واحد من الصناديق الفارغة، استخدمت الرشوة والنفوذ لإنزال الصناديق وتمريرها دون تفتيش. كان (زِيُون) ابن الخطيئة في واحد من تلك الصناديق، فقد سبق لزئيف أن أوهم والد رفكة، بأنه قد قام بالتخلص من حفيده كما طلب، لكن الحقيقة أنه قام بدسه وسط فوج المجرمين على متن السفينة المتجهة إلى فلسطين.. خلال الرحلة التي استمرت شهراً تعلّمَ فيها زيون الكثير، وكان قد رأى المعركة التي نشبت بين فريقين من

المساجين المسافرين، ورأى مقتل ثلاثة منهم، كان الجميع يستخدم هذا الصبي ذو الخمسة أعوام في الأعمال القذرة.. خلال الرحلة تشرب زيون أساليب المجرمين وسلوكهم وطريقة تعاملهم مع بعضهم، والحقيقة أنه أعجب بقوتهم وسلوكهم العنيف، كان في قرارة نفسه يرغب في أن يصبح قوياً مثلهم، فما واجهه خلال أعوام عمره القصيرة من استهزاء الجميع به للتشوهات التي ولد بها، وسلوك جميع أقرانه في عدم مخالطته، وقسوة زئيف عليه والعار الذي كان يشعر به جده كلما رآه، كان كفيلاً بأن يضيف إلى التشوهات في شكله الخارجي تشوهات أكثر بشاعة في نفسه وفي روحه.. فنشأ منطوياً على نفسه.

والانطواء سيف ذو حدين، فهو عادة لا ينتج منه إلا خيارين لا ثالث لهما: إما أن ينتج شخصاً مبدعاً، أو شخصاً مجرماً.. فأيهما كان زيون؟...

ما أن ابتعدت الصناديق عن الأعين حتى تم إخراج من فيها، انقسموا إلى خمس مجموعات، وتوجهوا إلى يافا حيث بيارة (دنين)، وصلوا تباعاً، تواجدوا في البيارة تحت غطاء عمال يعملون في البيارة، كانت بيارة برتقال، وأشهر ما في يافا برتقالها...

لكن، من هو دنين هذا؟

دنين هو يهودي بولندي من مواليد مدينة بياليستوك يدعى (يحزقئيل سوكويولسكي)، تزوج من فتاة تدعى راحيل والدتها عراقية تدعى سارة من مواليد بغداد ووالدها يدعى يهوشو حاخام مشهور في القدس، خدم دنين في

الجيش التركي، وساعده زواجه من يهودية شرقية، وخدمته في الجيش التركي على تملك قطعة أرض حكومية كبيرة في يافا عن طريق الرشوة عام **1888**م بداعي استصلاحها، أقام عليها بيتاً وبيارة، لم يكن قادتُه وزملاؤه في الجيش التركي يستطيعون لفظ اسمه لصعوبته، فاطلقوا عليه اسم دنين..

كثيراً ما تساءَلَ دنين لماذا أرسلت المنظمة الصهيونية هذا الصبي المشوة مع أولئك الرجال المكلفين بمهام صعبة؟.. لكنه لم يصل لإجابة شافية، حتى عندما سأل بعض الرجال القادمين عن ذلك، لم يستطيعوا الإجابة على السؤال، كل ما قالوه أنّهم تفاجؤوا بدسِّ هذا الطفل بينهم واكتشفوا ذلك بعد إبحار السفينة.

ستة أشهر من التدريب العسكري السري لأولئك الرجال داخل البيارة، قبل أن ينقسموا إلى ثلاثة أقسام تم توزيعها في اتجاهات مختلفة داخل فلسطين، ستكون كل مجموعة بعد سنوات نواة لعصابة كبيرة وخطيرة ستضم إليها اليهود القادمين من أوروبا، ويشكلون فيما بعد التجمعات اليهودية الاشتراكية (الكيبوتسات).. وبقي زيون في بيارة دنين، ودنين هذا أنجبت له زوجته راحيل ولدهم عيزرا عام **1903**م، والذي سيستخدمه التنظيم الصهيوني فيما بعد كجاسوس ضد مجتمعه العربي، وسيكون له شأن كبير في الصراع الذي احتدم بعد سنوات، وذلك لمعرفة عيزرا بالثقافة

العربية وتفاصيل الحياة الاجتماعية وتشابكها في فلسطين، وهو ما كان يجهله اليهود الأوروبين، وسيكون مؤسساً وأول رئيس لجهاز استخباري صهيوني منظم.

ترسّخَ في صدر زيون حقدٌ كبير على راحيل خاصة بسبب اختلاف لون بشرتها السمراء واستئثارها بقلب دنين، وزاد هذا الحقد بعد ولادة عيزرا، فقد تعددت محاولات زيون لإيذاء عيزرا منذ كان في المهد، رغم أن راحيل عاملته بود ولطف طوال وجوده عندهم في البيارة، اشتكت راحيل كثيراً لدنين عن عدوانية زيون تجاهها وعيزرا وتجاه جيرانها العرب، لكنه كان دائماً ما يجيبها:

-ماذا سنفعل؟ لقد تورطنا به، فهو صغير وبلا أهل، لا جذور له بهذه البلاد.

حتى جاء شهر أغسطس من عام **1909**م، كان زيون قد بلغ الثالثة عشرة من عمره، بينما صار عيزرا في عمر السادسة، عندما أطلت راحيل في ذلك اليوم الحار من النافذة باتجاه بيارة البرتقال، ليقع بصرها على مشهد مريع، غير أشياء كثيرة في حياة زيون: رأت زيون يوقف عيزرا عند جذع شجرة برتقال، رابطاً عنق عيزرا بحبل غليظ، يلفه طرفه على غصن غليظ، ويحاول سحب الحبل لأعلى.. هرعت راحيل لإنقاذ ابنها، وهي تصرخ مستنجدة، عندما فكت راحيل الحبل عن عنق عيزرا كان وجهه مزرقاً

وراح يسعل بشدة، استطاعت راحيل أن تلحق ابنها قبل أن يكتم حبل زيون أنفاسه..

في تلك الليلة لم يظهر على زيون أي شعور بالذنب، بينما كانت راحيل تقطع غرفتها ذهاباً وإياباً بتوتر وعصبية منتظرة دخول زوجها الذي قالت له عندما دخل:

-عليك التخلص من هذا الصبي، وعليك الاختيار: إما أنا وعيزرا، أو هذا المسخ الأوروبي.

لم يكن أمام دنين خياراً سوى التخلص من هذا الزيون، قال لها وهو يحاول تهدئتها:

-اهدئي يا عزيزتي، غداً سأتصرف كما تشائين.

انطلق دنين في الصباح الباكر لليوم التالي مصطحباً معه زيون، مخترقاً ضواحي يافا الشمالية، وظهرت على وجهه ابتسامة خفيفة وخبيثة وهو يمر في حي المنشية وصولاً لقرية الشيخ مؤنس، عندما رأى حركة البناء النشطة في تلك المنطقة، كان يعلم أن هذه الأبنية التي تقام في غفلة من سكان يافا وبعيداً عنهم، نواة سكنية يقيمها اليهود بناء على اقتراحه بإقامة مدينة يهودية خالصة ستعرف فيما بعد باسم تل أبيب..

اتجه دنين بالصبي زيون شمالاً في الطريق المحاذي لشاطئ البحر، وعندما وصل منتصف المسافة بين يافا وحيفا، أدار ظهره للبحر واتجه شرقاً متوغلاً في منطقة سهلية إلى أن وصل إلى منطقة جبلية وعرة مع غروب الشمس،

جلس دنين بين مجموعة من الصخور، وأجلس زيون للاستراحة بعد رحلة متعبة أغلبها كان سيراً على الأقدام.. مع حلول الظلام غط الصبي بنوم عميق، فرأى دنين فرصته الذهبية لتنفيذ ما خطط له، انسحب دنين من المكان بهدوء وحذر من أن يصدر عنه أي صوت خشية أن يستيقظ زيون، كانت طريقة ابتعاده الحذرة تلقائية في مثل هذه المواقف، لقد نسي دنين أن زيون الغارق في نومه أصم أصلاً، لن يسمع مهما كانت الجلبة التي سيخلفها خلال مغادرته المكان.

قفل دنين عائداً من حيث أتى، معتقداً أنه تخلص من هذا المسخ، وعندما استيقظ زيون قبيل الفجر وجد نفسه وحيداً بين الصخور، وسط عتمتيّ العين والأذن.. ظل طوال اليوم التالي يتحرك وسط الجبال وكلما شعر أنه وجد طريقاً لمكان فيه بشر، كان يجد نفسه في نفس المكان الذي انطلق منه، جائعاً عطشاً أنهكه السير من غير هدى في دوائر لا تنتهي...

ثلاثة أيام في القدس

كان (سنجق القدس) أو متصرفية القدس يضم أقضية: القدس،يافا، غزة، الخليل، الناصرة، وبئر السبع. وخلافاً للواء نابلس؛ فقد كانت المتصرفية ذات إدارة مستقلة تشكلت عام **1874**م، تم معاملة سنجق القدس كولاية عثمانية من حيث الاستقلالية، يتعامل المتصرف فيها مباشرة مع الباب العالي دون العودة إلى والي دمشق كما كان يحدث في السابق، فقد حوت القدس جميع الدوائر والمؤسسات الحكومية التي تحتاجها أية ولاية عثمانية أخرى، وتم فصلها عن ولاية دمشق وإتباعها مباشرة إلى الحكومة المركزية أو الباب العالي (قصر السلطان) لتشديد القبضة على فلسطين منعاً لتسرب أراضٍ لليهود، حسب التصريحات الرسمية للباب العالي، بعد أن توضحت أطماع اليهود في فلسطين، وازداد التشديد بعد ظهور الحركة الصهيونية وازدياد نشاطها في فلسطين، ووصول احتجاجات عربية إلى إسطنبول، وبدء حركات عربية سياسية بتنظيم نفسها لمواجهة الاستيطان اليهودي الصهيوني الذي أخذ بالتزايد في تلك الفترة...

قبل أن يخلدا إلى النوم سأل الشيخ غياث جاد الله عن ماهية خططه ليوم غد.

-في البداية سأذهب إلى خيّاط لتفصيل ثوب جديد بدلاً من هذا الذي أرتديه والذي لم يعد يليق، خاصة أني أنوي مقابلة متصرف القدس.

-ولماذا ستقابل والي القدس؟.. (سأله غياث وقد تغيرت ملامحه).

-أريد أن أعرف منه حجم الأراضي التي يمتلكها اليهود ومواقعها.

صدرت عن الشيخ غياث قهقهة شعر بعدها بالحرج بعد أن سأله جاد عن سبب ضحكه..صمت غياث قليلاً وقد استعاد ملامح وجهه الجادة، ثم قال:

-كاظم بك؟، تريد مقابلة الوالي التركي كاظم بك، ليعطيك معلومات عن شراء اليهود للأراضي؟.

-نعم، ما المضحك في الأمر يا شيخ؟!

-المضحك أنهم "أوكلوا القرد بخابية الطحين" كما يقول المثل..

-ماذا تعني؟

-أنا يا جاد كما تعرف شيخ عشيرتي، والتقيت شيوخاً وزعماءَ في كثير من أنحاء البلاد، وأعلم ما الذي يتحدثون به، حاكم بيت المقدس كاظم بك هو أساس الفساد في هذه البلاد، إذا كان يوجد هنا من يسهل استيلاء اليهود على أراضينا، فهو هذا الوالي الفاسد والظالم، ألم تسمع بالضرائب الكاظمية؟.. لقد بالغ هذا الوالي في فرض الضرائب على الفلاحين، حتى صار مطلوباً من الفلاح أن يدفع نصف غلته ضريبة، وأطلق المحصلين ليستولوا على غلة الفلاحين بالقوة ومن يقاوم يزج به في السجن، وعندما يكون الكبير فاسداً، يتشجع الصغير ليمارس الفساد، فكان المحصلين يسلبون الفلاحين

أكثر مما هو مطلوب منهم، صار عرق ودماء الفلاحين مصدر دخل للقصر المذهب التي وصفته لنا في إسطنبول، مروراً بالطغمة الفاسدة التي يلعق فيها كل واحد منهم لعقة من دمائنا وهي في طريقها إلى سلطانك المبجل.

كانت طريقة حديث غياث عدائية مما أشعره مرة أخرى بالحرج تجاه جاد، فحاول الاعتذار عن لهجته العدائية عندما استدرك قائلاً:

-ألّا أقصد الإهانة يا أخي، لكن من الواضح أن فترة غيابك كل هذه السنوات عن بلادك حجبت عنك ما يعانيه أهلك وناسك من فقر وتجويع وتجهيل.

لم يتفاجأ جاد الله مما قاله غياث، فقد مهّدَ حديث ليلة الأمس الذي جرى في مضافة الشيخ غياث لقبول أي جديد، وبدا أن جاد يقتنع أن مشاعر هؤلاء الناس حقيقية، وأن الأمر ليس على ما يرام كما كان يتصور سابقاً.

-لا عليك يا أخي أبا سعد، ماذا ترى؟؟ أريد مشورتك..

أطرق غياث رأسه في الأرض قليلاً، ثم نظر إلى جاد وهو يطلق زفيراً:

-غداً سأعرّفك على شخص ستجد مبتغاك عنده، شخص قابلته عدة مرات وأعرف مدى حرصه على الناس، ومدى بغض وكره كاظم بك له.

-من يكون هذا الشخص؟

-إنّه نجيب عازوري مساعد الحاكم الذي تمت إقالته من منصبه بتدبير من حاكم بيت المقدس كاظم بك على ما يبدو.

قبل أن يستسلم جاد الله للنوم، كان يحاول تقليب الأفكار في رأسه بعد الذي قاله غياث، لكن طيف نورا كان يزاحم كل هذه الأفكار، فيزيحها ويلقي بها بعيداً.. ليبقى طيفها يداعب خياله إلى أن غاص في بحر النوم العميق.

الوجه الآخر

عبق الشوارع

مع إشراقة شمس اليوم التالي أخذ الشيخ غياث ضيفه جاد الله وخرجا لتناول الإفطار، قال غياث:

-لا يمكنك زيارة القدس دون أن تتذوق طبق حلويات المطبق، وهذا الإفطار هو خير ما تبتدئ به نهارك الشاق.

ابتسم جاد وهما يحثان الخطى باتجاه سوق باب خان الزيت:

-كنت أعتقد أنك ستدعوني لتناول الكباب أو الحمص والفلافل، أما أن أفطر على طبق من الحلوى فهذا جديد.

-لا، الكباب والحمص والفلافل تجده في أي مكان، أما المطبق فلن تجده إلّا هنا في القدس، وهو يعمل للفطور فقط.

وصلا إلى محل صغير يقع بمحاذاة درج دير الأقباط، كانت رائحة نار الحطب تعبق بالمكان، لم يكن المحل يسع للجلوس فيه، حمل غياث وجبة المطبق من محل (زلاطيمو)، وقطع الشارع إلى المحل المقابل حيث قهوة (ازحيمان)، وجاد يتبعه، جلسا على طاولة في المقهى، كان المكان يعج

بالناس، حركة دؤوبة في كل شوارع القدس، مشاة، وخيول، وجِمال، وعربات مدولبة تجرها الخيول.. استغرب جاد هذه الحركة، لأنه لم يشاهدها بهذه الكثافة أمس عندما وصلوا المدينة، سأل الشيخ غياث عن الأمر، فضحك الشيخ غياث وهو يقضم لقمة من المطبق الشهي، أخبره أنّ القدس صباحاً تعج بأولئك الذين يأتون من القرى والبلدات المجاورة لقضاء حوائجهم، يبيعون منتجاتهم، ويشترون حوائجهم، بعض القادمين إلى القدس يأتون للصلاة في المسجد الأقصى من مدن أخرى، وبعضهم يقضي معاملات رسمية في دوائر القدس، وكثير من الحجاج الأوروبيين النصارى يتواجدون أيضاً، أما في المساء تكون الغالبية العظمى ممن قدموا إلى القدس قد غادروا إلى بلداتهم وقُراهم، فتقل الحركة في الشوارع ، قال غياث لجاد أنّ هذا تجده في كل المدن الفلسطينية، كان غياث قد انتهى من تناول إفطاره، ارتشف رشفة من القهوة التي طلبها وقال:

سأعطيك نصيحة قد تكون مضحكة، وسأريك كيف يعاملنا أهل المدن، هل زرت نابلس؟

-نعم زرتها عندما كنت صغيراً مع جدي.

-كم لبثتما في نابلس؟

-هو يوم واحد، دخلناها صباحاً وغادرنا قبل المساء.

-هل أكلت الكنافة النابلسية؟

-بالتأكيد، لا أحد يخرج من نابلس قبل أن يتذوق الكنافة بالجبن المشهورة بها نابلس.

-حسناً كيف وجدتها؟

-من هي؟ نابلس؟

قهقه غياث وهو يقول:

-لا، لا أقصد نابلس، أقصد كيف وجدت الكنافة؟

-رائعة المذاق، ما زال طعمها تحت أسناني.

-هل تعلم أنّ الكنافة التي أكلتها مع جدك، لا تساوي نصف لذة الكنافة النابلسية الحقيقية.

-كيف؟

-في نابلس يصنعون صنفين من الكنافة، صنف تجاري يصنعونه نهاراً، لأولئك الفلاحين الذي يقدمون إلى نابلس من القرى والبلدات المجاورة، أما الكنافية الأصلية كما ينبغي أن تكون فيصنعونها مساءً لأهل نابلس، في المساء يكون جميع القادمين إلى نابلس من الفلاحين والبدو قد غادروها إلى بلداتهم، ولا يبقى في نابلس إلا سكانها، لذلك أنصحك، إن زرت نابلس، فامكث فيها حتى المساء، وتذوق الكنافة على أصولها.

وأطلق ضحكة عالية وشاركه جاد الضحك، وكانا قد انتهيا من احتساء قهوتهما، نهضا واتجها إلى محل خياطة يتعامل معه الشيخ غياث، أخذ الخياط قياسات جاد ليفصل له ثوباً، وأعطاه موعداً بعد يومين لاستلام

الثوب، وهو ما اعترض عليه جاد، لأنه لا يملك وقتاً للانتظار يومين في القدس، ضغط الشيخ غياث على الخياط ليعطي ثوب جاد الأولوية، وبعد أخذ ورد، أعطاهم موعداً لاستلام الدماية في ظهيرة اليوم التالي.

انطلقا إلى المسجد الأقصى أديا صلاة الظهر، وتوجها مباشرة حيث كان يقيم نجيب عازوري.

لاقى الشيخ غياث ترحيباً حاراً من نجيب عازوري، وقام الشيخ غياث بالتعريف بجاد الله:

-جاد الله شابٌ عربيّ من بلدة برقان، وضابط سابق في الجيش التركي وحرس السلطان.

نظر نجيب إلى جاد الله متفحصاً:

-أهلاً بكما، أي سلطان تقصد؟

ارتبك غياث قليلاً وكأنه لم يفهم السؤال بداية الأمر، ثم استدرك مبتسماً:

-السلطان المعزول عبد الحميد الثاني.

-أها، أهلاً بكما تفضلا، تفضلا.

دخلا حيث أشار لهما نجيب وهو يردد كلمات الترحيب، إلى صالة يقارب طولها الثمانية أمتار، وعرضها الستة أمتار، يلفها طقم آرائك حلبي الصناعة موحد الألوان ، ويجلس في صدر المكان شخصان، اتضح أنهما ضيفان أيضاً، عرّف عليهما عازوري بك: من اليمين الأستاذ يونس، أصلع الراس في منتصف العقد الخامس من عمره، نحيل البنية، يعمل أستاذاً في

دائرة المعارف العثمانية، وجلس بجانبه باتجاه صدر الصالون الصحفي الفلسطيني نجيب نصار من مواليد الشويفات في لبنان في أواخر العقد الرابع من عمره، من سكان حيفا، مالك ورئيس تحرير جريدة الكرمل التي تصدر في حيفا، بدا ضخم الجثة بشعر غلبه الشيب، حليق اللحية كثيف الشاربين اللذين ساد فيهما الشيب..، تصافح الجميع بعد أن قام عازوري بتعريف الجميع ببعض، ثم جلسوا باستثناء الشيخ غياث الذي انزوى بعازوري جانباً، وتحدث بصوتٍ هامسٍ للعازوري لأكثر من خمسة دقائق، كان العازوري يصغي باهتمامٍ إلى الشيخ غياث، وبين حين وآخر كان يلتفت العازوري إلى جاد الله، مما أوحى للجميع أنَّ الحديثَ يدور حول جاد الله..

عاد كلّ من العازوري والشيخ غياث إلى حيث الضيوف، وجلسا والعازوري يوجه حديثه للشيخ غياث:

-لا بأس يا شيخ غياث، إذا كان هذا هو الموضوع، فلا تخشَ شيئاً، لا غرباء في هذه الجلسة، كلنا في الهم عرب.

أطلق ضحكة، وضحك معه الجميع...

حوار ساخن

جريدة ومعارضة وفضائح

عرّف الشيخ غياث بنفسه، ثم عرّف بجاد الله بكلام أثار اهتمام ضيفي عازوري وضيقهما بنفس الوقت، قال وهو يشير إلى جاد الله:

-جاد الله أفندي ضابط في الجيش التركي، وأحد أفراد حرس السلطان المعزول، انتهت خدمته العسكرية، وهو الآن عائد إلى بلدته، بعد أن زار الديار الحجازية، وحلَّ ضيفاً علينا أثناء عودته من الحجاز، يقول أنّ السلطان المعزول أوصاه بالعمل على درء الخطر القادم على بلادنا من أوروبا ويهودها.

صدرت ضحكة مكتومة من الأستاذ يونس، حاول التبرير بعدها قائلاً:

-أنا لا أقصد الإهانة، فوالد وجدّ السيد جاد الله معروفان وهما من خيرة الناس، لكن ضحكت على الجزء الأخير من كلام الشيخ غياث، وأود أن أسأل السيد جاد، هل أوصاك قبل عزله أم بعده؟

رد جاد وقد ظهر الضيق على وجهه:

-بعد الانقلاب عليه من جمعية الاتحاد والترقي.

قال الأستاذ يونس:

-الآن!، وقد استشرى الخطر على بلادنا.

-ماذا تقصد؟ (سأله جاد).

-أقصد أن سلطانك المبجل قتل القتيل، ويريد أن يمشي في جنازته، سلطانك تحت ضغط حاجة خزينته للمال، تفاوض على إقامة دولة لليهود في فلسطين مع اليهودي (إدموند جيمس دي روتشيلد)، سلطانك يا سيد جاد كما من سبقه من سلاطينهم، تربى في أجنحة الحريم وسط مكائدهن لبعضهن البعض، فلم يحتمل ضغوطات الحكم، فهرب إلى الدروشة والتصوف، ليزداد انفصاله عن الواقع المؤلم الذي تعيشه سلطنته.

وهنا قاطعه جاد وقال له بحدة:

-السلطان عبد الحميد لم يدخر جهداً في مقاومة محاولات الصهيونية لإقامة دولة لهم في فلسطين، لقد طرد (ثيودور هرتسل) من قصره عندما فاتحه في هذا الأمر، السلطان الذي تتهجم عليه يا أستاذ يونس، جعل من القدس ولاية مستقلة تابعة مباشرة له، بعد أن فصلها عن ولاية دمشق إدارياً، ليمنع أيّ تساهل في محاولات اليهود للسيطرة على أراضٍ في فلسطين، ويغلق الباب على تلاعب الموظفين والولاة في هذا الأمر، أرجو أن تُظهِرَ بعض الاحترام عندما تتحدث عن خليفة المسلمين.

صدرت من يونس ضحكة استهزاء أخرى:

-هيء.. طرد هرتزل؟! يا إلهي، لم يكن هرتزل سوى وسيط ذو مصلحة بين عبد الحميد وروتشيلد في صفقة بيع فلسطين، هلا أجبتني على سؤال، إذا كان السلطان رافضاً لفكرة إقامة دولة لليهود في فلسطين من الأساس، فلماذا اجتمع به خمس مرات؟!، أليست هذه الاجتماعات المتعددة دليل تفاوض على صفقة، نعم لم تنتهِ بإقرار دولة لليهود في فلسطين، لكنها انتهت بنصف صفقة، وهو تسهيل هجرة اليهود إليها، وبيعهم أراضٍ سراً، وإقامة مزارع لهم، مقابل التضييق على الفلاحين العرب وإثقالهم بالضرائب كي يتخلوا عن فلاحة الأرض.. ومقابل نصف الصفقة تلقت خزينة السلطنة عدد من القروض من بنك روتشيلد في لندن.. الذي عطل الصفقة كاملة، أن روتشيلد اشترط إعلان موافقة السلطان على دولة لليهود في فلسطين قبل قبض الأموال، فيما اشترط السلطان قبض الأموال أولاً.

كانت بداية متوترة للجلسة، وظهرت لغة يونس العدائية تجاه جاد، لم يجد جاد تفسيراً لها، هل لأنه كان ضابطاً في الجيش العثماني؟، لكن يونس نفسه يعمل موظفاً في دائرة المعارف العثمانية، أم أن الجمل لا يرى اعوجاج رقبته كما يقولون.. هذه البداية المتوترة دفعت المضيف نجيب عازوري كي يتدخل لتلطيف أجواء الجلسة:

- أرجو منكما الهدوء، وأرجو ألّا تتحول الجلسة إلى مناكفات حول شخص السلطان، السلطان له ما له، وعليه ما عليه، ولا تنسوا أنني كنت مساعداً لوالي القدس، ومن رجال الدولة التي تتحدثون عنها، السيد جاد الله جاءنا

بطلب، وهو طلب وطني ومخلص، ونقدر وصية السلطان له، أن تأتي متأخراً خير من ألّا تأتي أبداً كما يقولون.

في هذا الوقت كان أحد الخادم يصب الشاي للضيوف، فأشار إليهم عازوري:

-نفضلوا اشربوا الشاي، ولنتحدث في الأهم.. ولنعلم أن هذا التباين في وجهات النظر هو نتيجة حتمية لاختلاف مكان الرائي، فالنظر إلى الأمور من داخل القصر، مختلفة عن رؤيتها من خارجه، والنظرة من إسطنبول تختلف عنها من القدس، وشعور ضابط في الجيش التركي مختلف عن شعور فلاح يجاهد بأرضه، وعن راعٍ يهشُ الغنم في الوديان والجبال، فأرجو أن يحتمل بعضنا بعضاً.

صمت قليلاً وهو يلاحظ إنصات الجميع، ثم تابع:

- من موقعي السابق في الوظيفة ومن مشاهداتي في هذه الأيام علينا أن لا نعول على الدولة العثمانية خاصة حكومتها الاتحادية لتقاوم أو تدافع عن بلادنا وشعبنا، بل ربما تكون خصماً لا يقل ضراوة عن الصهيونية، خير من يعينك على سؤالك يا سيد جاد هو السيد نصار، فقد تبنى هذا الأمر، وكان طليعة الناس هو وحرمه السيدة ساذج من الذين عملوا على فضح هذه المؤامرة في جريدته وفي ندواته، السيد نصار درس الصيدلة في مدينة صفد، اشتغل في مستشفى طبريا في البداية، ثم انتقل للعمل في الزراعة واكتشف خلال اشتغاله في الزراعة أمراً خطيراً ومروعاً، أبى السيد نصار على نفسه إلا

أن ينذر حياته للتحذير منه والتوعية به، ومقاومة حدوثه، وهو ما جعله يتوجه للصحافة، له مقالات عديدة لم تنشر في الصحف بسبب منع الرقابة "المكتوبجي" من نشرها، تفضل يا صديقي.. وأشار إلى نصار

أسند نصار ظهره إلى الخلف وعدّل جانبي بذلته الأنيقة فبدت أكثر اتساقاً مع جسده مع ربطة عنقه السوداء، ثم اتكأ بمرفقه على حافة المقعد وراح يتحدث:

كنت قد اشتريت خمسة عشر دونماً في بيسان لفلاحتها، لكنني ولقلة خبرتي وعدم معرفتي في الزراعة؛ فشلت.. فاستعنت بأحد الأصدقاء الإنجليز، وقد كان رجلاً مثقفاً جداً، إضافة لخبرته في الزراعة، كان هذا منذ أكثر من ثلاث سنوات، وخلال عمله معي أهداني مجموعة من الكتب باللغة الإنجليزية، وكان منها "الموسوعة اليهودية"، عندما اطلعت على هذه الموسوعة أدركت أننا أمام خطرٍ داهم، ومنها اكتشفت ماذا تعني الصهيونية، ومدى خطورة هذه الحركة على بلادنا، فعقدت العزم على توعية الناس، وخاصة الفلاحين لخطورة هذه الحركة العنصرية عليهم، فالناس لم تكن تعلم ما يحاك لبلادهم، وخير وسيلة لتشكيل هذا الوعي ومحاربة المشروع الصهيوني هو الصحافة، فقررت العام الفائت إصدار صحيفة في حيفا أسميتها (الكرمل) .. كنت قد استبشرت خيراً بإعلان الدستور العام الفائت، وكنت أعتقد أن هذا الدستور سيخفف قبضة "المكتوبجي" عما ينشر في الصحف،

لكن هذا لم يحدث، خصصت **50** نسخة من كل عدد لجريدتي لأرسلها إلى السلطان والصدر الأعظم وولاة الشام ومتصرف القدس، لعلهم يرتدعون عن تواطئهم مع الصهيونية للاستيلاء على فلسطين وشرق الأردن، ومن هذه النسخ أرسل بانتظام إلى جميع الجرائد التركية والعربية، حتى باتت جريدتي الكرمل المصدر الأساسي لكل الصحف لمتابعة تطورات الأوضاع في فلسطين.

قاطعه جاد فجأة مستفسراً:

أنت توحي أنَّ السلطانَ متواطئٌ في تملّك اليهود للأراضي في فلسطين وشرق الأردن، فكيف تفسر وصيته لي بأن أعمل على مواجهة هذا المشروع، وقراره المعروف بفصل سنجق القدس عن ولاية دمشق لتكون علاقة والي القدس مع الباب العالي مباشرة، أليس هذا القرار يعني حرصه على فلسطين وأن لا يتسرب أي من أراضيها للحركة الصهيونية؟

ابتسم نصار، في الوقت الذي بادر فيه الأستاذ يونس في الكلام:

-حرصه على فلسطين وأراضيها، أو حرصه على أن لا يتسرب شيء من المؤامرة عبر موظفي الدولة، فكلما قل عد الأشخاص الذين يعرفون بالمؤامرة، كلما كان حليفها النجاح، وصَعُبَ كشفها للرعية، وهذا يجعل المؤامرة محصورة بين شخصين، حاكم القدس العثماني والباب العالي والذي يعني السلطان، وهذا يفسر عزل والي القدس السابق "توفيق بك" عام

1900م والذي كان معروفاً بتشدده تجاه الهجرة اليهودية وتم تعيين "كاظم بك" والياً على القدس، ومعروف عنه ميوله لمشروع الوطن القومي لليهود، فقد كان في مجالسه يصف العرب بـ "سقط المتاع" وينعت اليهود بـ "أبناء العم" ، وكانت لديه تعليمات من إسطنبول بفتح الباب لهجرة اليهود الأوروبيين إلى فلسطين بشرط أن يضفي عليهم الجنسية العثمانية، ليصبحوا مواطنين عثمانيين لهم حقوق تملك الأراضي والزراعة، ومنذ اليوم الأول لكاظم بك راح يهيّئ الظروف لهذه المؤامرة، فعيّن رؤساء المحاكم والقضاة في القدس من الأتراك ورفع راتب القاضي من 40 فرنك إلى 200 فرنك، ليضمن أحكامهم في القضايا التي كان يرفعها الفقراء والضعفاء من الفلاحين، وسمح لهم بتلقي الرشوة تحت مسمى الهدايا والبقشيش، عجز الفلاحون عن دفع الضرائب التي فرضها كاظم بك، فعمل على مصادرة كل الأراضي التي عجز أصحابها عن دفع الضرائب، وكان يعلن عن بيعها في المزاد، وكان آل روتشيلد هم من يرسو عليهم مزاد البيع، حتى صار هناك دولة غير معلنة لآل روتشيلد عبر إقامة كثير من المستوطنات...

صمت الأستاذ يونس لحظات يسترد فيها أنفاسه، ثم تابع بنفس الحِدّة:

والسؤال هنا يا سيد جاد، من سمح لليهود بالتملّك؟، هل تعلم أنّ القوانين كانت تمنع اليهود من تملك الأراضي في فلسطين وتمنعهم من العمل في

الزراعة أو تربية الماشية، فمن الذي كسر هذه القوانين القديمة؟، أليست الدولة العثمانية، سأروي لك شيئاً من التاريخ القريب، قبل ثمانين عاماً اجتاحت قوات محمد علي فلسطين بقيادة ابنه إبراهيم باشا، وواصلت المدن، أقصد مدن الشام تساقطها أمام القوات المصرية، وتقهقرت قوات السلطان العثماني محمود الثاني، وقد وجدت قوات محمد علي ترحيباً من السكان المحليين في غزة والقدس ونابلس، بسبب الظلم والضرائب التي كانت تفرضها الدولة العثمانية، وهو ما جعل الثورات تتوالى من السكان في هذه المنطقة، وكان يتم قمعَ هذه الثورات وزعمائها بالقوة الغاشمة، واستمر حكم محمد علي للشام عشر سنوات، حاولت خلالها بريطانيا التسلل لوضع ركيزة لدولة يهودية غريبة في الشام تكون موالية لها لتؤمن الطريق إلى الهند، فافتتحت أول قنصلية أجنبية في القدس عام **1838**م لرعاية المصالح البريطانية والأمريكية واليهودية، وأرسلت كبار ضباط التجسس لإقامة علاقات مع الأقليات السكانية، وكان من بينهم الكولونيل (جولر) والذي كان ينسق مع زعماء اليهود في بريطانيا والشام لكسب التأييد في هجرة اليهود إلى فلسطين، فعمل مع رئيس المجمع اليهودي البريطاني (موشيه مونتفيوري) على افتتاح أول مدرسة لليهود في القدس، وهو ما شجع اليهود على إرسال عريضة إلى "مجلس الشورى" المحلي في القدس للسماح لهم بتملك الأراضي والعمل بالزراعة وتربية المواشي وإقامة

المعاصر والمصابن التي كانوا ممنوعين منها بالقوانين نتيجة المعرفة القديمة بأطماعهم في القدس والسيطرة على فلسطين وطرد أصحابها، لإقامة دولة لهم، فرفض رسمياً مجلس الشورة في القدس، وجاءت مصادقة من القاهرة على الرفض من محمد علي باشا، وفي نهاية عام **1940**م طلب السلطان العثماني مساعدة بريطانيا في إخراج محمد علي من الشام، وكان له ذلك، لكن هذه المساعدة لم تكن مجانية، فكان السماح بهجرة اليهود وتسهيلها أكبر ثمن لهذه المساعدة.. فمن أعاد السماح لليهود بالتملك؟، سوى الدولة العثمانية تحت حجة المواطنة بعد أن يمنحو المهاجرين اليهود الجنسية العثمانية.

كان الحضور يستمعون باهتمام لحديث الأستاذ يونس وخاصة جاد الله، وعندما لاحظ نصار بوادر الاقتناع التي بدت على وجه جاد الله حول فساد الدولة العثمانية، تدخل بمزيد من المعلومات ليؤكد كلام الاستاذ يونس:

أنا أعكف في هذه الفترة على كتابة كتاب يتحدث عن الصهيونية، ملخص تاريخها، غايتها وامتدادها حتى سنة **1905**. نجح الثري اليهودي (إدموند جيمس دي روتشيلد) ما بين عامي **1886** و**1890** في شراء **350** ألف دونم وتوطين أربعين ألفاً من اليهود الأوروبيين في عدد من المستوطنات اليهودية جاء أغلبهم من روسيا ورومانيا، وكان أغلبهم من المفلسين المغامرين، وكما تعلمون فإن هذه الفترة كان عبد الحميد سلطاناً...

تابع نصار حديثه بعد رشفة من فنجان الشاي:

كما قالوا قديماً، إن كان عبد الحميد يعلم فتلك مصيبة، وإن كان لا يعلم فالمصيبة أعظم، سأزيدك يا أخ جاد من الشعر بيتاً، في عام **1895**م أعلنت الدولة العثمانية عن نيتها بيع مناطق كل من (الخضيرة) و (متولا) في مزاد علني، بعد عجز أصحابها وملاكها عن دفع الضرائب، وتم بيعها للمدعو (إدموند روتشيلد) وقامت القوات العثمانية بقمع السكان بعد رفضهم لقرار البيع، وطردتهم بالقوة من أراضيهم، فقام روتشيلد بتهجير أكثر من ثلاثة آلاف يهودي إلى هاتين المنطقتين... وقبل ستة أعوام ساعد والي القدس كاظم بك جمعيات الاستيطان التابعة لروتشيلد في شراء ثلاثمائة وخمس وثلاثون دونماً من أراضي فلسطين مقابل عمولة مقدارها نصف ليرة عثمانية عن كلِّ دونمٍ يتم شراءه، فحصل على مائة وخمس وسبعين ليرة عثمانية كرشوة مقابل بيع أراضي فلسطين إلى المؤسسات الصهيونية.. لقد كان كاظم بك من أكبر السماسرة في هذه البلاد، بل أنه السمسار الأكبر في بيع فلسطين، لقد دعوت عبر جريدتي كل الأهالي إلى طرد كل السماسرة من فلسطين.

فجأة قال جاد وهو يحدّقُ بالأرض:

-بل قتلهم...

ثم رفع رأسه جائلاً ببصره على الجميع، وملامح غضبه بادية للجميع:

-سماسرة الأراضي يجب قتلهم وليس طردهم، حتى يكونوا عبرة لكل ضعاف النفوس والخونة.

قطع الحديث إشارة من عازوري بك يدعوهم فيها لتناول طعام الغداء في غرفة مجاورة لمجلسهم، نهض الجميع حيث قادهم عازوري ففتح باباً سحّاباً، دلفوا منه إلى قاعة للطعام، يتوسطها طاولةٌ يعلوها صَحْفَةٌ واسعةٌ من الأرز ولحم الضأن، التفَّ حولها الجميعُ، وبدؤوا بتناول طعام الغداء، عندما وجّه عازوري حديثه إلى جاد والشيخ غياث:

-بعد أن ننتهي من الطعام، سأعطيك ملفاً كاملاً عن حجم تملك اليهود للأراضي كتبته بخط يدي أثناء وظيفتي، وكثيراً من المعلومات التي في هذا الملف كتبتها بتفصيل إلى السلطان لأنبهه إلى ما يفعل كاظم بك، وقبل أن يتم عزلي من الوظيفة، وقع بين يديّ خطابٌ من المخابرات العثمانية موجهٌ إلى كاظم بك ينصحه فيه بالتخلص مني.

غسلَ الجميعُ أيديهم بعد الغداء، وعادوا الجلوس في الصالة الكبيرة، دار عليهم فنجان القهوة، عندما جاء عازوري بملف أعطاه لجاد، الذي راح يتصفحه بسرعة، ومما حواه:

أول قطعة أرض امتلكها اليهود كانت في عهد السلطان عبد العزيز عام **1854**م، وهي القطعة التي أقيم عليها (حي مونتيفيوري) في القدس نسبة إلى الثري اليهودي البريطاني (موشيه مونتفيوري)، الذي زار فلسطين مراراً وشجع فكرة الاستيطان اليهودي ونشر التعليم الزراعي بينهم، وفي عام **1856**م اشترى هذا الثري أول بيارة برتقال امتلكها اليهود في فلسطين، وتقع شمال مدينة يافا بأربعة كيلو مترات وسُميّ الحيّ الذي تقع فيه البيارة الآن حيّ مونتيفيوري نسبة له.

في عهد السلطان عبد العزيز أيضاً، منحت الحكومة العثمانية لليهود أرضاً مساحتها ألفان وستمائة دونماً بالقرب من يافا، حيث أقيمت عليها مدرسة زراعية أطلق عليها العرب مدرسة نيتر نسبة لمديرها.

ابتدأ تأسيس المستوطنات اليهودية في الريف الفلسطيني في عهد السلطان عبد الحميد الثاني، إثر مذابح تعرض لها اليهود في روسيا عام **1876**م وما بعده، مما اضطر الكثيرين منهم للهجرة إلى فلسطين وبعض البلدان

بترحيب من الحكومة العثمانية، ولم يجد السكان العرب غضاضة من قبولهم كلاجئين مضطهدين.

أول مستوطنة يهودية أُنشِئَتْ في الثامن من آب (أغسطس) عام **1878**م شمال يافا على بعد اثني عشر كيلو متراً منها في منطقة تسمى نبلس أو مبلس بلغة اليافاويين.

عام **1884**م بلغ عدد المستوطنات اليهودية خمس مستوطنات في كل منها حوالي مائة يهودي وكان توزيعها كالتالي: ثلاثة مستوطنات بجوار يافا، وواحدة في منطقة حيفا، وواحدة في الحولة.

عام **1900**م ازداد عدد المستوطنات إلى **22** مستوطنة ضمت **5210** يهودي غربي، معظمها كان في منطقة الساحل الفلسطيني في المنطقة الممتدة بين الكرمل ومصر، وفي القدس، والجليل، والأغوار.

في وقتنا ونحن في عام **1909**م بلغ عدد المستوطنات ثلاثون مستوطنة ضمت حوالي عشرة آلاف يهودي توزعت أغلبها على امتداد الساحل الفلسطيني، يليها الجليل، ثم الأغوار، ثم القدس ومرج بني عامر، أكبرها مستوطنة (بتاح تكفا) تضم أكثر من ثلاثة آلاف يهوديّ غربيّ.

التوقع بازدياد وتيرة شراء اليهود للأراضي وازدياد المستوطنات بعد تولي حكومة الاتحاد والترقي مقاليد الحكم في البلاد.

توقف جاد عن القراءة، وأخذ نفساً عميقاً، ولم يكن قادراً على إخفاء ملامح الصدمة التي بدت على وجهه.

بعدها استأذن الشيخ غياث مضيفهما بالمغادرة، حمل جاد الله أعداداً من مجلة الكرمل التي أعطاه إياها نصار، وضمها إلى ملف عازوري بك، صافح الأستاذ يونس، ثم نصار الذي طلب منه ضرورة البقاء على تواصل، فوعده جاد بزيارته في حيفا بعد أن يرتب أموره، وقال له:

-حيفا قريبة منا، سأتواصل معك وسأتابع جميع الأعداد القادمة لجريدتك، سعدت وتشرفت بلقائكم جميعاً.

كانت الشمس تميل إلى المغيب عندما غادر جاد الله بمعية غياث منزل عازوري والصمت الذي التزمه جاد أثناء توجههما إلى المنزل كان يشير إلى انشغال وتشوش ذهني، ولم يكن يعلم بالمفاجَأة التي تنتظره في المنزل...

نورا مرة أخرى

ما أن دلفَ جاد وغياث باب الدار الخارجي، حتى لاحظا وجود ناقة وحصان مربوطان في فناء الدار، إضافة بينما فرس جاد وحصان غياث داخل الإسطبل، أقفل وقوف نورا بباب الدار كل باب للتكهن لدى جاد، كاد قلب جاد يفر من صدره فرحاً، مفاجأة لم يتوقعها، غمرته سعادة لم يخبرها من قبل عندما التقت عيناه بعيني نورا، والتي انطلقت مسرعة تعانق أباها، ثم ألقت التحية على جاد، ما كاد جاد يرد التحية لنورا حتى خرج سعد وتوجه إلى جاد يصافحه وهو يقول:

-"لم تكن فكرتي، كانت فكرة نورا، التي صممت على أن تخبر والدي بكل ما جرى أمس".

ثم مال يصافح والده الذي داهمه القلق، فبادره بسؤاله:

-ماذا هناك يا سعد، هل حدث مكروه في العشيرة؟

- الجميع بخير يا أبي، لكن قوة من الدرك جاءت أمس تسأل عنك، فقلنا لهم أنك في القدس.

-وماذا يريدون؟

-أنت تعلم.. يبدو أنه موعد جمع الغلال للدولة، جاؤوا يطلبون منا الضريبة، ولما لم يجدوك ساقوا معهم بعض الماشية، وأخذوا معهم عمي الشيخ متعب رهينة لحين حضورك ودفع الضريبة، قالوا أنّنا مطالبون بمائة وخمسين ليرة ذهبية.

استشاط غياث غضباً:

-ويحهم، مائة وخمسون ليرة! .. ومن أين لي بهذا المال؟.

رغم الخلاف الذي طال أمده بين غياث وأخيه متعب، لكنّ مزيجاً من الحزن والغضب استولى على نفس غياث لخبر اعتقال أخيه.

-اعتقلوا متعب، ولو أنهم وجدوني لاعتقلوني أنا، ولما كانوا أخذوا أخي رهينة، وجب عليّ أن أفك رهنه، لكني لا أملك سوى خمسين ليرة..

صمت قليلاً يفكر ثم تابع غياث:

-لعلّهم يقبلون بالخمسين ليرة كدفعة لتحريره، لحين تدبر أمر المئة ليرة الباقية.

تقدم جاد من الشيخ وربت على كتفه مواسياً وهو يقول:

-ستفرج بإذن الله يا شيخ غياث، من الآن وحتى الصباح سيبعث لنا الله الحل.

-والنعم بالله. (قال غياث وهم يدخلون البيت)

هذه الأخبار السيئة أفسدت بهجة جاد بقدوم نورا، لكن السعادة ظلت تداعب قلبه وفكره طوال الوقت.

كان بيت الشيخ غياث مبني من الحجر الخليلي، زينته الأقواس على كل أبوابه الداخلية والخارجية، يتكون البيت من طابقين إضافة لصحن الدار، في الطابق الأرضي صالة استقبال واسعة، وغرفة ومطبخ، وفي الطابق العلوي أربعة غرف مخصصة للنوم، يتم الصعود إليها من الفناء بواسطة درج جانبي، إحدى هذه الغرفة هي غرفة نوم نورا منذ كانت صغيرة، على يمين صحن الدار الواسع بُني إسطبل للدواب، وعلى يساره بُنيت غرفة كانت تُستخدم كمخزنٍ للقمح والشعير ومؤن أخرى.. صعد غياث وسعد ونورا كلٌّ إلى غرفته بعد أن ألقوا التحية تباعاً على جاد، في حين ظلَّ جاد في غرفة النوم المخصصة للضيوف في الطابق الأرضي، جلس على حافة السرير، ألقى برأسه بين كفيه، وغاب في تفكير عميق، كان يسأل نفسه أسئلة متلاحقة، ما العمل؟ من أين يبدأ؟ كيف يبدأ؟، لم تكن مشكلة الشيخ غياث وأخاه المعتقل من ضمن المشاكل التي يبحث لها عن حلول، فهذه المشكلة عرف سبيل الحل لها، في نفس اللحظة التي طرحت فيها، كان يفكر فيما هو أكبر وأهم من قضية اعتقال شخص، كان يفكر أيضاً فيما دار في بيت عازوري، سواء حديث نصار أو يونس ويتساءل إلى أين تؤول الأمور في هذه البلاد؟...

رفع رأسه، فوقع بصره على الملف الذي زوده به عازوري، وعلى صف أعداد جريدة الكرمل التي زوده بها رئيس تحريرها نجيب نصار، كان قد ألقى بها

على الكرسي عند دخوله إلى الغرفة، تناول صف الجرائد وراح يستعرض عناوينها عدد تلو الآخر على ضوء السراج المعلق بعد أن أشعله:

كانت أغلب العناوين والمقالات تهاجم الفساد المستشري في الدولة العثمانية، وتهاجم تواطؤ هذه الدولة لتسهيل هجرة اليهود إلى فلسطين، وتهاجم تضييق هذه الدولة معيشة العرب، وبيع أراضٍ لليهود، وتحاول الجريدة أن تظهر وجود علاقة مشبوهة بين أركان في الدولة العثمانية والحركة الصهيونية.

كانت الجريدة هي صحيفة يومية، لكن الأعداد كانت تشير إلى أنّ صدورها كان يتم يومي الثلاثاء والجمعة من كلّ أسبوع...

كان يقرأ في أغلب الأعداد عبارة رآها قد صارت شعاراً للجريدة:

"أيّها العرب بيعوا كلّ شيء باستثناء الأرض، ولا تشتروا شيئاً من اليهود إلّا الأرض".

قرأ واحداً من الأعداد الصادرة في شهر مايو (أيار) لهذا العام **1909**م، فيه خبر عن مشاجرة بين يهود صهاينة في مستوطنة "الشجرة" مع أهالي قريتي "كفركنا" و "الرينة" خلّفت ثمانية جرحى من الفلاحين العرب، وعقّبت الصحيفة على الخبر، أنَّ هذا نتيجة التساهل مع الصهيونية الذي تظهره الدولة العثمانية... ثم في العدد الذي يليه خبر عن شكوى تقدم بها مندوب

شركة الاستيطان اليهودي "ايكا" إلى السلطات على الحرية، ثم خبر أنّ الجريدة ستحتجب عن الصدور مدة شهرين بأمر السطات العثمانية.

في العدد الأخير خبر عن طلب إحاطة للنواب العرب في مجلس المبعوثان (البرلمان العثماني) حول حقيقة الصفقات التي نشرتها جريدة الكرمل، وخبر عن تعهد من (طلعت باشا) وزير الداخلية في حكومة الاتحاد والترقي العثمانية قدمه للنواب العرب بأن لا يسمح لليهود بامتلاك أراضٍ في فلسطين، وأن لا تسمح حكومته بهجرات يهودية جديدة...

وفي نفس العدد مقالة عن الأراضي المدورة، وهي تلك الأراضي التي لم يقدر أصحابها العرب على دفع الضرائب المترتبة عليها فمنحوها للسلطان عبد الحميد الثاني، وبعد عزل السلطان آلت هذه الأراضي إلى خزينة الدولة العثمانية، وتشير الصحيفة إلى علاقة مشبوهة بين نجيب الأصفر مساعد والي بيروت، وأنه يحاول استئجار تلك الأراضي الشاسعة لصالح الحركة الصهيونية عبر شركة بلجيكية صهيونية في كل من حيفا ويافا وطبريا والقدس والخليل وغزة، وفي المقال تفضح الصحيفة تواطؤ (نجيب إبراهيم الأصفر) واستخدام نفوذه في هذه الصفقة وتهاجمه بشدة ...

وفي العدد الأخير أيضاً إعلان من نجيب نصار رئيس التحرير عن قرب نشر سلسلة من الأوراق المترجمة للموسوعة اليهودية، والتي ستشمل معنى الصهيونية وأهدافها وغاياتها وأساليبها في فلسطين والعالم.

ألقى جاد بالأعداد جانباً وعاود إلقاء رأسه بين كفيه وهو يشعر بصداع شديد، وراح يؤنب نفسه على إهماله خلال السنوات الثمانية التي قضاها خارج بلاده عن متابعة هذه التطورات الخطيرة، لكن جاد لم يكن حالة شاذة في الإهمال، معظم الشعب العربي لم يكن يعلم بما يجري تحت ضغط الفقر والمرض وانعدام التعليم للغالبية العظمى من أهل البلاد، وانقطاع التواصل للمثقفين بين التجمعات السكانية والمدن الكبرى.

في حين كانت نورا تحدق بسقف غرفتها تفكر بجاد تلك الليلة، كان جاد يحدق في أعداد جريدة الكرمل يفكر في أشياء أخرى لم تكن نورا من بينها...

الرهائن

استيقظ جاد باكراً، والاستيقاظ مبكراً ليس بالضرورة يعني النشاط والحيوية، بعض الأحيان يوقظك القلق، لم يعاود جاد النوم بعد صلاة الفجر كعادته، فقد انكبّ بعد الفجر على ثوبه يستخرج من بطانته ما يحتاجه من الليرات الذهبية، انتزع ما يزيد قليلاً عن قيمة الضريبة المطالب بها الشيخ غياث ليحرر أخاه من السجن.. بعد تناول الإفطار الذي أعدته نورا، قالت بابتسامة موجهة إلى جاد أنها قدمت الإفطار أيضاً للمدهشة، ثم استدركت هذا التخصيص المحرج، وتابعت أنها أطعمت أيضاً الحصانين والناقة، شكرها جاد، ودعا لها والدها بالعافية والقوة.. استغل جاد انفراده بالشيخ غياث بعد خروج نورا وسعد لتفقد الخيول في فناء الدار، وأخرج قطعة من القماش ملفوفة على كيس، وقدمها للشيخ غياث وهو يقول:

-تفضل يا أخي، هذه المائة عصملية التي تنقصك لافتداء أخيك متعب.

فغر غياث فاهه من المفاجئة، وظهرت الدهشة على محياه، آمن دائماً أن فرج الله قريب، لكنه لم يتوقعه بهذه السرعة، ثم من أين يأتي الفرج؟! من عابر السبيل هذا، والذي لم يتوقع للحظة أنه يملك قرشاً واحداً، لقد أخرجوه من

البئر خائفاً فأمنوه، وجائعاً فأطعموه، وماشياً فأركبوه، وحافياً فقدموا له المداس.

-لكن! من أين لك كل هذا المال؟.. سأل الشيخ غياث جاد

-إن الله يرزق من يشاء من حيث لا يحتسب، ومن يزرع الخير مثلك؛ يحصد الخير حتماً.. كنت أملك هذه العصمليات بعد انتهاء خدمتي مع السلطان، ولدي نية لأشتري ركوبة لي وبندقية لأتابع طريقي، وأتزوج بالباقي عندما أصل بلدتي، لكنك وفرت لي الأمان، وأمنت لي الركوبة، وإن تكرمت عليّ وقبلت بي زوجاً لابنتك فتكون قد أجزلت لي العطاء، وتفضلت عليّ ما بقي من عمري، وإن لم تقبل فاعتبر المال هدية من ابن لأبيه عن طيب نفس وخاطر، وهذا المال أنت أولى به مني.

ساد صمت ثقيل في الصالة، كانت المفاجئة الثانية بطلب يد نورا تلجم فم الشيخ غياث، لكنه استجمع شتات ذهنه وقال لجاد:

-يا بني، نحن لا نزوج بناتنا هكذا، ليس من عاداتنا ولا...

قاطعه جاد ولم يدعه يكمل:

-أتفهم طبعاً ما تريد قوله، لذلك أنا لا أنتظر جواباً منك الآن، ولا اليوم ولا غداً، أعلم أنك بحاجة لاستشارة ابنتك، واستشارة أمها وأقاربك، سأغادر اليوم إلى بلدتي، بعد أن ننتهي من مراجعة المتصرفية، خذ وقتك، أنت تعرف بلدتنا، إن وصلني منك جواب فسآتيك مع جاهة كبيرة كما يليق بك وبابنتك، وإن لم يصلني منك جواب، فسيكون عدم رد الجواب هو الجواب،

وهذا لا يغير من معزتك ومكانتك عندي.. وهذه الليرات كما قلت لك هي هديتي تقديراً وعرفاناً مني إليك.

-حسناً يا بني كما تشاء، أنت شاب تستحق كل خير.

مد جاد يده تحت حزامه وأخرج خمسة عشر عصملية أخرى، وقال:

-أريد منك وعداً يا شيخ غياث.

رد غياث:

-لك الوعد على ما أستطيع.

قال جاد وهو يناوله العصمليات الخمسة عشر:

-هذه الليرات لتشتري بها سلاحاً لك ولعشيرتك، السيوف لم تعد تفي بالغرض يا صديقي، يمكنك بهذا المبلغ أن تشتري بندقيتان أو ثلاثة، وربما مسدس أيضاً، اليهود الصهاينة الذي نزلوا بجواركم، يؤسسون لمستوطنة قريباً منكم، وسيأتي الوقت الذي سيغدرون بكم، فابتع سلاحاً لك ولعشيرتك بقدر ما تستطيع، اجمع أموالاً من عشيرتك واشتري بنادق من أي مكان تستطيع الحصول عليها منه، لا تتهاون في هذا الأمر...

تناول غياث العصمليات، وقد أربكته هذه المفاجئات المتلاحقة من هذا الشاب، وسأل:

-لكن من أين سأشتري البندقية؟ وكيف سنستخدمها؟ لا أحد يعرف كيفية استخدام البندقية.

رد جاد وهو مشغول بإعادة بضعة عصمليات تحت الحزام:

-ليست مشكلة سأتدبر الأمر اليوم بإذن الله، لا تشغل بالك بهذا الأمر.

مع دخول كل من نورا وسعد كان غياث يضع المال إلى جانبه، التقت نظرات نورا وجاد، وانفرجت ابتسامة صغيرة على فم جاد، لم تفهم نورا مغزى تلك النظرة والابتسامة، لكنها شعرت أن نظرة جاد هذه المرة مفعمة بالحبّ بخلاف ما سبق، وفيها رسالة لم تستطع فك شيفرتها، لكنها تيقنت أنّ أمراً ما حدث بين جاد ووالدها أثناء غيابها وأخيها سعد.

قال غياث بصوتٍ مرتفعٍ بلهجة لم تخل من الرسائل أيضاً:

-سنذهب أنا وجاد الآن إلى المتصرف من أجل عمكم متعب، ومن هناك سيغادرنا جاد إلى بلدته وأهله، تمنوا له أن يصل بالسلامة.

قال سعد وهو يتقدم إلى جاد يعانقه:

-بالسلامة يا صديقي، رحلة ميسرة وموفقة بإذن الله.

في حين التزمت نورا الصمت، فرغم أن فراق جاد متوقع ومعروف لديها، إلا أن ما قاله والدها وقع كالصاعقة على رأسها، استدارت وخرجت إلى حيث تقف المدهشة، راحت تمسح على رأس المهرة والدموع تنساب على خديها، وهي تحدث نفسها:

-ما الذي جرى لك يا نورا، لماذا كل هذا الضعف والهوان، هذا شاب عابر سبيل، لم يبدر منه أي شيء يشي بأنه يبادلك الحب، سوى تلك النظرات المبهمة، على ماذا تبكين؟ ولماذا تتعلقين بأمل ضعيف لا فرصة لتحقيقة، ربما هذا الشاب له حبيبة في بلدته، وتنتظره الآن، عليك أن تنسي هذا

الشاب، بل عليك أن تمحي من ذاكرتك كل تلك الأحداث التي جمعتك معه.

-"أتبكين على فراق المدهشة؟" فاجأها صوت جاد خلفها، لم تلتفت، فهي لا تريد أن تظهر بمظهر الضعيفة المهزومة، تقدم جاد وراح يمسح بيده أيضاً على جبهة المدهشة:

-إنها فرس أصيلة، تقدر فارسها، وهي أجمل هدية تلقيتها، من أجمل فتاة في بلاد العرب والترك.

تفاجَأت نورا بكلام جاد عن الهدية:

-ماذا تقصد؟

-أقصد أن والدك أخبرني أنك من صممت على أن يهديني مهرتك الغالية على قلبك، وسيكون غلاها وصاحبتها بنفس القدر على قلبي.

انتبهت نورا لحالتها، قالت وهي تمسح دموعها:

- المدهشة غالية جداً عليّ، وهي فرس معتدة بنفسها، لم تعتد على المهانة؛ أرجو أن تحافظ عليها يا النشمي، وأن لا تهينها.. الله أعلم إن كنت سأراها مرة أخرى أم لا.

رد جاد بابتسامةٍ وهدوءٍ رداً تلاعب بأعصاب نورا وجعلها تضرب أخماساً بأسداسٍ:

-هذا يعتمد عليك، أنت من تقررين إن كنت تريدين رؤيتها أم لا.

-لا أفهم ما تقول، هلا وضحت...

قاطع كلامها صوت والدها:

-هيا يا بني لقد تاخرنا، ماذا تفعلين عندك يا نورا، هل تودعين المدهشة مرة أخرى؟.

ركضت نورا مسرعة إلى الداخل وهي تبكي دون أن تنبس شفتاها بكلمة واحدة...

في الوقت الذي كان فيه نورا وجاد قرب المدهشة في الخارج يتحدثان، كان الشيخ غياث يتحدث في الداخل مع ابنه سعد، وأوصاه بمهمة بدت لهما صعبة سيقوم بها في بحر هذا اليوم...

ركب جاد الله فرسه المدهشة، وتبع الشيخ غياث على حصانه، وخرجا من الدار متجهين إلى مبنى متصرفية القدس، لكنهما عرجا في طريقهما إلى الخياط فوجدا ثوب جاد جاهزاً، ارتداه جاد فبدا مناسباً، وإن ظهر الاستعجال في خياطته، ثم اشترى سروالاً وعباءة وارتداهما فظهر جاد أنيقاً بملابسه الجديدة، اشترى حقيبة ووضع ملابسه القديمة فيها بما في ذلك الثوب المحشو ذهباً، شعر جاد بنفسه خفيفاً يكاد يطير عن الأرض بعد أن خلع الثوب السابق المثقل بقطع النقد الذهبية، والتي كان كثير منها مصكوكات من فئة الخمسة ليرات.

كان مبنى المتصرفية مكون من طابقين بنيا من الحجر، مقدمة المبنى مكون من عدة أقواس مسقوفة، قال الشيخ غياث وهما يهمان بالدخول إلى المبنى:

"تفضل يا بني ادخل من أي قوس نصر شئت، فرموز النصر كثيرة في هذه البلاد"

كان الشيخ غياث يحمل المائة والخمسين ليرة ذهبية قيمة الضريبة المفروضة على عشيرته في كيس من القماش، توجه إلى غرفة (الجمركجي) ليدفع المال، ويأخذ منه براءة ذمة مالية، وأمراً مكتوباً لدرك السجن بإخلاء سبيل أخيه متعب، في حين كان جاد ينظر في المراجعين الذين اكتظت بهم ممرات المبنى، الجميع كان يشكو، تداول أطراف الحديث مع بعضهم، وسمع قصصاً عجيبة منهم، أحدهم كان شيخ قبيلة، قال له أنه جاء للاستبدال، وعندما سأله ماذا سيستبدل، أجابه أن الوالي يحتجز خمسة من شباب القبيلة في السجن كرهائن منذ ستة أشهر، وأنه يريد إخلاء سبيلهم، وسيستبدلهم بستة شبان آخرين ليكونوا رهائن بدلاً منهم لستة شهور قادمة أخرى، وعندما سأله جاد لماذا يأخذهم الوالي رهينة، أجابه أن الوالي يريد أن يضمن أن لا تقوم القبيلة بمهاجمة قوافل الحجاج، وهناك قبائل أخرى يحتجز الوالي من شبابها رهائن لنفس السبب...

آخر قال أنّه جاء ليستعطف الوالي ليطلق سراح شيخ عشيرتهم، لأنه مسجون لعدم قدرته على دفع مائتي ليرة ضريبة فرضت على العشيرة فأخذوا شيخ العشيرة رهينة لحين تسديد المال المطلوب، وقال أنّ العشيرة منذ أشهر وهي تجمع المال، فجمعت خمساً وثمانين ليرة فقط، وجاء هذا الرجل يستعطف الوالي ليقبل بالمبلغ ويفك أسر شيخهم...

قصصاً كثيرة مثل هذه سمعها جاد وهو يتجول في الردهات بين الناس بانتظار أن ينتهي الشيخ غياث من إنهاء المعاملة، إلى أن وقعت عيناه على رجل يخرج من إحدى الغرف ببذلة رسمية وطربوش وفي مشيته عرجة خفيفة، دقق النظر فيه فعرفه، فنادى عليه:

-رستم، رستم.

التفت الرجل حيث مصدر الصوت فشاهد جاد، ركز النظر يدقق في وجه جاد، ثم تهللت أساريره وأقبل على جاد مسرعاً، يشق طريقه في الزحام، واحتضنه وهو يردد: جاد الله، جاد الله، الثعلب العربي.

ابتعد رستم برأسه قليلاً وسأله بابتسامة عريضة:

-ماذا تفعل هنا يا صديقي؟

-جئت برفقة أحد الأصدقاء، له حاجة يقضيها هنا.

رستم ضابط تركي، تزامل مع جاد الله خلال الدورة العسكرية التي تلقياها في ألمانيا، وجمعتهما صداقة وطيدة، كان رستم وبقية الضباط يطلقون على جاد الله لقب الثعلب العربي، لذكائه وتميزه في الدورة العسكرية، ونجاحه في كل الاختبارات الصعبة التي تعرض لها خلال الدورة، بعد عودة الجميع إلى إسطنبول تم إرسال رستم إلى الفيلق الذي كان يحارب الإيرانيين في منطقة الموصل في العراق، وأصيب قدمه إصابة بالغة في هذه الحرب، فعاد للعلاج في إسطنبول، شفي من الإصابة لكن عرجة في رجله اليمنى ظلت

ملازمة له، فتم تسريحه من الجيش، وتعيينه موظفاً إدارياً في وزارة الداخلية، وانتقل إلى سنجق القدس منذ سنة..

-ما هي أخبارك، هل تم تسريحك من الخدمة بعد عزل السلطان عبد الحميد؟.. هل أستطيع مساعدتك في شيء يا صديقي؟ أنا في خدمتك، ولو أن سلطتي محدودة هنا في المتصرفية.

-نعم صحيح تم تسريحي بعد الانقلاب على السلطان عبد الحميد الثاني مباشرة، لكني بقيت برفقة السلطان إلى أن قام بتسريحي هو من خدمته.

ما أن انتهى من آخر جملة حتى رأى الشيخ غياث مقبلاً عليه.

سأله جاد بإشارة من يده، إن كان قد انتهى من الأمر، فأشار غياث برأسه بإيمائة التأكيد وهو يلوح فرحاً بورقة إخلاء سبيل أخيه.

عرّف جاد رستم بالشيخ غياث، وقال أنه صديق عزيز عليه، ثم أشار إلى رستم يعرف الشيخ غياث على رستم بأنه صديق عزيز له ورفيق سلاح قديم.. تصافح الرجلان، ثم تفطن جاد لشيء مهم، فخطر بباله أن يجرب هذه المحاولة:

-سألتني يا صديقي إن كنت بحاجة إلى خدمة.

-نعم، تفضل أطلب حاجتك، وسألبيها بإذن الله.

تنحنح جاد وقال بتردد:

- الخدمة ليست لي، لكن كأنك تؤدي الخدمة لي وأكثر من ذلك، إن أديت خدمة لصديقي الشيخ غياث.

لم يفهم رستم ما الذي يقصده جاد، كذلك غياث تفاجأ، ولم يعرف ما هي حاجته التي سيطلبها جاد من رستم، "مال الفدية تم دفعه، وأمر إخلاء سبيل أخيه بيده، فما الذي تبقى؟". سأل نفسه.

مال جاد على أُذنِ رستم وهمس فيها:

-أريد منك أن تتدبر بندقية أو اثنتين لصديقي غياث، ثمنهما جاهز معه، السلاح ليس موجهاً ضد الدولة، هو وعشيرته في أمسِّ الحاجة للسلاح لأنّ هناك عصابة صهيونية مسلحة استوطنت في مضاربهم، وأخشى أن تهاجمهم في أي وقت.

-سلاح؟!، لكن يا أخي هذا خطير وصعب.

-ليس صعباً عليك، بعبارة مختصرة، الرجل سيقوم بما يجب على الحكومة أن تقوم به، ولا تقوم به، وهو حماية المواطنين، هم سيحمون أنفسهم بأنفسهم.

-حسناً، لن أرفض لك طلباً يا أخي، فليأتِني بعد أسبوع، سأتدبر الأمر، وأعرفه على من يعقد معه هذه الصفقة.

شكره جاد بحرارة ووعده بأن يزوره في المستقبل القريب، وتصافحا وغادر كل من الشيخ غياث وجاد المبنى إلى السجن لإطلاق سراح متعب... كان سعد بانتظارهما عندما وصلا مبنى السجن، تفاجأ جاد بوجود سعد، بينما لم تظهر أية مظاهر للمفاجَأة على وجه الشيخ غياث، ما أن اقتربا من سعد، حتى مال سعد على أذنِ والده وهمس له ببضع كلمات، فابتسم غياث، وربت

على كتفه، ثم نظر إلى جاد وابتسم له، لم يفهم جاد ما يجري، أراد أن يستفسر عما يجري، لكنه لم يشأ أن يظهر بمظهر الفضولي؛ فامتنع عن السؤال.

بعد ساعة كان الشيخ غياث يحتضن أخاه متعب وهو خارج من السجن، صافح الجميع متعب وهنؤوه على السلامة، ثم قفلوا عائدين إلى المنزل، حيث كانت نورا بالانتظار.. في الطريق ودعهم جاد الله متوجهاً شمالاً إلى بلدته، وقبل أن يفترق عنهم جاد، اقترب الشيخ غياث منه، وهمس له ببضع كلمات في أذنه، كانت بالنسبة لجاد صدمة غير متوقعة...

قبل ساعات

بعد توجه الشيخ غياث وجاد الله إلى مبنى المتصرفية صباحاً، جلس سعد في الصالة ونادى بصوت مرتفع على نورا التي كانت في غرفتها في الطابق العلوي، عندما نزلت نورا، وقفت صامتة أمام سعد، وبدا الاحمرار على جفونها من أثر البكاء، فسألها سعد "ما بك لم أنت حزينة؟"

فأجابته: "لا شيء سوى حزني على المدهشة وفراقها".

نظر سعد بتشكك إليها قائلاً:

-هل ألحق بهما وأعيد المدهشة لك.

انتفضت نورا وظهر الارتباك على صوتها وهي تقول:

-لا، لا عيب أن نستعيد عطية أعطاها أبي وأهداها.

هنا طلب سعد من نورا أن تجلس:

-أريد أن أتحدث إليك في موضوع مهم.

-تفضل، أنا أستمع.

قالت نورا وهي تجلس قبالة سعد، وقد أثار فضولها لهجة وتقاسيم وجه سعد الجادة، تنحنح سعد وهو يحاول إيجاد الكلمات المناسبة، فقال:

-الضيف تقدم لخطبتك من أبي.

احمر وجه نورا، ولمعت عيناها فرحاً، لكنها استدركت، واستعادت بسرعة تقاسيم وجهها الحزين السابقة، قالت:

-الضيف؟.. من تقصد بالضيف؟.

قال: أقصد جاد.

قالت وهي تدعي استدعاء الذاكرة:

-جاد؟.. من جاد؟

قال سعد بعصبية:

-هل تتغابين عليّ، أنا أكثر الناس معرفة بك عندما تدعين الغباء.

تابعت وكأنها تريد تأكيد عدم اهتمامها بالأمر:

-أنا لا أتغابى، حقيقة من هذا جاد الله؟.. هذا اسم ليس موجوداً في عشيرتنا.

بدت العصبية على سعد، وقال بجمل متقطعة وهو يشدد لفظ الحروف:

-ليس من عشيرتنا.. جاد الله.. ضيفنا.. عابر السبيل الذي أخرجناه من البئر.. جاد الله الذي أهداه أبي مهرتك المدهشة.. الشاب القادم من إسطنبول، الشاب الذي خرج مع أبي قبل قليل ليخرجا عمي متعب من السجن،... هل أوضح أكثر حتى تتوقفي عن الاستغباء؟...

ابتسمت نورا ابتسامة خفيفة لا تخلو من الخبث:

-آه تقصد ضيفنا الفلاح.. هل طلب يدي من أبي؟

-نعم، طلب الزواج بك من أبي.

-وماذا رد أبي عليه؟

-لم يعطِه جواباً، لأن أمنا غير موجودة معنا، أراد أبي مني أن أقوم بدور الأم، وأن أعرف منك رأيك؟

سكتت نورا قليلاً ثم قالت:

-لا أريد الزواج، فأنتم تعلمون أني أريد إكمال تعليمي.

نهض سعد، وهو يضع على رأسه الحطة والعقال:

-حسناً، سألحق بأبي، وأبلغه أنك غير موافقة.

انتفضت نورا وقد تفاجأت بهذا الاستعجال من سعد، وكانت تمني نفسها بأخذ ورد في الحديث، وبقليل من التمنع والدلع وادعاء التفكير في مثل هذه الحالات.. فأمسكت سعد من كتفه وهي تديره باتجاهها:

-سترد خبراً لأبي الآن، بهذه السرعة!

-نعم، أوصاني والدي أن أوافيه بالخبر قبل الظهر، قبل أن يغادر جاد القدس إلى أهله.

- انتظر قليلاً يا سعد.

-لا وقت لدي.

صمتت قليلاً وهي تبحث عن كلمات مناسبة لاستعادت زمام المبادرة التي فقدتها بمحاولاتها التلاعب التي لامت نفسها عليها:

-ما رأيك أنت يا سعد؟

-رأيي بماذا؟

-رأيك بجاد الله، هل تراه زوجاً مناسباً لأختك؟

عاود سعد الجلوس، وأخذ نفساً عميقاً:

-الرأي رأيك قبل كل شيء، لكني أرى أنه شابٌ ذكيٌ وواعٍ وشهمٌ، وابن أصول، وأراه مناسباً لك..

ثم تابع سعد بابتسامة:

لكن في النهاية لست أنا من سيتزوجه، فالقرار يعود لك.

انفرجت ابتسامة صغيرة عن ثغر نورا وهي تسأل:

-وما هو رأي أبي؟

قال سعد:

-لا أعرف، لم أتحدث معه في هذا الشأن، هو طلب مني أن أستكشف رأيك فقط.

قالت:

-حسناً، أبلغ أبي أني سأقبل بما يراه أبي مناسباً لي.

-يعني موافقة؟

ردت بخجل:

-قلت لك، ما يراه أبي مناسباً لي لا أعترض عليه.. الرأي لأبي.

قال سعد وهو يخرج مسرعاً: السكوت علامة الرضا كما يقولون، حسناً، سأعود بعد الظهر مع أبي، السلام عليكم.

ردت نورا: مع السلامة يا أخي...

ما أن غاب سعد عن ناظري نورا، حتى راحت تجوب صالة البيت ماشية على أصابع قدميها بخفة، ترفرف بيديها كأنهما جناحين، تُحرك قدميها ويديها بالرقص، تتطاول بجسدها إلى الأعلى، ثم تقبضه للأسفل بحركة تشبه تفتح الزهور، وهي تدندن بكلمات غير واضحة لأهزوجة كانت تسمعها بحفلات الأعراس.. لوهلة شعرت بحاجتها للخروج إلى الناس في شوارع القدس وإخبارهم بأن حبيبها تقدم لخطبتها، كانت فرحة نورا غامرة لأنها لم تأمل للحظة بأن يبادلها هذا الشاب الإعجاب والحبّ، فقد بدا لها مشغولَ الذهنِ دائماً، وذا ملامح جادة جداً، وليس لديه الوقت ليحب ويعشق... ثم راحت تستعيد ذكرياتها معه في البئر، وتوقفت عند آخر جملة قالها لها بخصوص المدهشة، فهمت الآن ماذا يعني بأن الأمر بيدها إن شاءت أن لا تفارق مهرتها الغالية...

عندما همس سعد بأذن والده، أمام السجن، أبلغه بما قالته له نورا عندما سألها رأيها بخطبة جاد لها.. ثم عندما همس الشيخ غياث في أذن جاد، أبلغه بأنه يستطيع إحضار الجاهة، والتقدم لخطبة نورا في أي وقت يراه مناسباً...

الصبي الضّال

قبيل الغروب وصل جاد إلى نابلس، بات ليلته بها، لكنه قبل ذلك أخذ بنصيحة الشيخ غياث، وتذوّق الكنافة النابلسية المسائية، ثم في اليوم التالي واصل مسيرته على ظهر المدهشة، قاصداً مسقط رأسه، ومرابع طفولته بلدته (برقان)، تلك البلدة الغافية على سفوح الكرمل كفتاة تتوسد ذراع حبيبها.. قدّر جاد المسافة المتبقية إلى بلدته بمسيرة ثلاث ساعات مع هبّات نسمات هواء العصر المنعشة، اشتدَّ حنينه إلى أهله وبلدته؛ لكز المدهشة لتسرع الخطى، عندما لاحظ زوالاً يتحرك على بعد بضعة كيلومترات باتجاه مسيره، شيء ما يتحرك، كانت رؤيته تتضح كلما اقترب أكثر، حتى تأكد أن ما يراه ليس حيواناً، بل كياناً بشرياً، رآه جاد يمشي بضعة خطوات، ثم يسقط، ثم ينهض، ثم يسقط، فلما دنا منه، رأى صبياً منهكاً لا يقوى على المشي، استعاذ بالله من الشيطان الرجيم عندما شاهد دمامة خلقته، اقترب حتى صار على بعد خطوة من الصبي، لكن جاد تفاجأ أن الصبي لم يشعر به، ولم يسمع وقع خطى فرسه التي كانت تحدث صدى مسموعاً، نزل جاد عن فرسه وأمسك الصبي من كتفه، كانت ملامح الذعر بادية على وجه الصبي عندما التفت إلى الوراء ليرى اليد التي أمسكت به،

بينما راح جاد يردد "لا تخف يا بني، لا تخف، لا تخف" ، ظل الصبي خائفاً، وهو منكمش على نفسه، ولم يظهر عليه أي تأثر بكلمات جاد المطمئنة، عرف جاد أن الصبي عطش وجائع، ويبدو أنه لم يدخل جوفه شيء منذ عدة أيام، كان واضحاً ذلك من جفاف شفتيه، ووجهه الباهت، وقواه المنهارة، تناول جاد قربة الماء، وقربها من فم الصبي، الذي بدا عليه الاطمئنان بعد رؤية جاد يقدم له الماء، كان جاد يتحدث للصبي محاولاً معرفة اسمه وقصته، وما الذي جاء به إلى هذا المكان الخلاء، لكنه لاحظ أن الصبي لا يبدي أية ردة فعل تجاه أسئلته وكلماته، ولم ينطق بأي كلمة، فأدرك جاد بعد وقت أن الصبي أصم وأبكم، فراح يفكر جاد وهو يقوم بإطعامه، في القصة التي يمكن أن تكون وراء هذا الصبي الضّال وسط هذه الأودية والجبال، واستقر على قصة خُيّلت له منطقية، قال لنفسه: ربما أهل هذا الصبي لم يحتملوا دمامة خلقته وصممه وبكمه، فقرروا التخلص منه، وتركوه في هذا الخلاء الواسع ليموت، أو لعلّ أحداً ما يعثر عليه ويأخذه، اشمأز جاد من هذه الجريمة التي ترتكبها هذه النوعية من الأهل: "يحرصون على إنجابهم، ثم يرسلونهم بدناءة إلى المجهول" .. "كما يوجد عقوق للوالدين، يوجد أيضاً عقوق للأبناء" .. تمتم جاد لنفسه باشمئزاز

عندما لاحظ جاد أن الصبي بدأ يستعيد بعضاً من قواه، وضعه أمامه على ظهر المدهشة، وأكمل رحلة عودته، وهو يفكر في الحكمة التي أرادها الله من وضع هذا الصبي في طريقه...

أطل جاد على بلدته التي بدت هادئة تماماً مع أفول شمس ذلك النهار، وقرر أن يعرجَ على مقبرة البلدة ليقرأ الفاتحة لروح جده عبد الوارث، كان جاد يحفظ المقبرة عن ظهر قلب، ويعرف كل قبر باسم ساكنه، لاحظ جاد عند دخوله المقبرة، ثمانية قبور جديدة عن آخر مرة زار فيها المقبرة، ميَّزَ من القبور الثمانية الجديدة قبر جده الذي لم يحضر وفاته، فتح كفيه وقرأ الفاتحة، وما كاد ينتهي حتى لاحظ قبراً جديداً قدّره جاد ببضعة أسابيع لرطوبة ترابه وطريقة نثره، والريحان المزروع حديثاً على القبر، أجهش جاد بالبكاء، كان الصبي يرى بكاء جاد لكنه لم يكن يستطيع سماع انتحابه، عرف جاد أنَّ أباه قد مات منذ أسابيع، فقد كانت وصيته أن يدفن على يمين جده عندما توافيه المنية، دنا من قبر والده، وجلس على ركبتيه وهو ينتحب ويطلب له الرحمة، وأعاد قراءة الفاتحة لروح والده الشيخ نور الدين...

دخل جاد البلدة فانتشر الخبر فيها بسرعة كبيرة، انطلقت الزغاريد من البيوت، وراح الرجال يتجمعون في دار الشيخ نور الدين، والنساء توجهنَّ إلى حيث أم جاد لتهنئتها، وابتدأت احتفالات أهل البلدة بعودة جاد، كانت أم جاد أول من احتضن جاد والدموع تنهمر من عينيها فرحاً، كان ابن عم جاد ذو الأعوام الخمسة عشر واسمه جاد أيضاً، أكثر الناس فرحاً بعودة ابن عمه، أطلق عليه هذا الاسم جدهما حبّاً في جاد الكبير، ورغم اعتراض والدته على الاسم ، لأنها لم ترغب باسم مكرر في العائلة، إلا أنّ الجد صمّم

على هذه التسمية وقال لها: "يمكنك أن تناديه بـ جاد الصغير"، كانت الفرحة بادية على جاد الصغير وهو يلتصق بجاد الكبير لا يكاد ينفصل عنه... بينما الصبي الدميم كان يرقب كل ما يجري دون استيعاب لهذا الكم من الحبّ والفرح والسعادة...

التنظيم الأول

مضت الأيام بطيئة وثقيلة على نورا، عام كامل مضى، لا جاد أتى، ولا أرسل مرسالاً يطمئن نورا أو أهلها أنه باقٍ على الوعد والعهد.. حتى يئس أهل نورا واعتقدوا أن جاد نسي أمر ابنتهم التي طلبها من والدها على نية الزواج.. حاولوا إقناع نورا أن تنسى هذا الأمر، لكن نورا لم تيأس وكان لديها يقين أن انقطاع أخبار جاد خارج عن إرادته، قالت لأخيها مرة وهو يحاول إقناعها بأن تفك الحظر الذي فُرِض على الخُطّاب الذين يتلهفون للتقدم لخطبتها من أبيها:

"لا يا سعد، أنت تعلم أنَّ جاد ليس من نوع الرجال الذين ينكثون وعودهم، ويحنثون عهودهم، أمرٌ ما حدث له فعطّله، الغائب حجته معه".

بينما كان الانتظار يطغى على أيام نورا ولياليها، كان العمل والسفر هو شغل جاد الشاغل، جاب البلاد طولاً وعرضاً شارحاً لشيوخ القبائل ومخاتير القرى والزعماء في المدن المختلفة الخطر اليهودي القادم، والذي كان على يقين منه بعد كم الأخبار التي كانت ترده من رستم أفندي وبعضاً من أصدقائه الأتراك في كثير من دوائر الدولة، بأنّ مزيداً من الأراضي التي

تمتلكها الدولة في فلسطين وجوارها، تتسرب إلى اليهود عن طريق الرشاوى التي كانت تقدم للمسؤولين في تلك المناطق، زار جاد خلال ذلك العام مناطق كثيرة، ذهب إلى صيدا وطرابلس وحيفا ونابلس والقدس، إلى البلقاء والكرك وعسقلان وغزة، وصل إلى دمشق ودرعا، ذهب إلى مصر التي لم تكن عملياً تحت سلطة العثمانيين واجتمع مع رجالات في القاهرة والإسكندرية...

استطاع جاد أن يكون شبكة للتواصل بين العرب المهتمين بدرء الخطر اليهودي عن فلسطين وجوارها، والتي بدأ يتضح مع مرور الوقت... استجاب بعض العرب لأفكاره، ولم يقتنع الكثير بهذه الأفكار، وعدُّوها من الهواجس والأوهام مستحيلة الحدوث...

في عصر ذلك اليوم الثلاثاء الخامس عشر من شهر تشرين ثاني(نوفمبر) **1910**، اعتقد الشيخ غياث في بداية الأمر أن بلدته عين جدي تتعرض لهجوم من قبائل مجاورة – وكانت القبائل تغزو بعضها بعضاً في ذلك الوقت بغرض النهب والسلب-عندما دخل عليه ذاك الصبي، مرعوباً يكاد لا يستطيع التقاط أنفاسه، يردد كلمات لم يفهمها الشيخ غياث في البداية.

طلب الشيخ غياث من الصبي أن يهدأ ويلتقط أنفاسه أولاً، كي يستطيع فهم كلماته المتقطعة. لحظات قليلة وفهم الشيخ غياث من الصبي أنَّ مجموعةً من الخيالة المسلحين يتجهون نحو البلدة، سأله غياث عن عددهم فأجاب الصبي أنّ عددهم يتجاوز الثلاثين رجلاً...

بحركة واحدة التقط الشيخ غياث بندقيته المعلقة على الحائط، وهو يحثُ الصبي أن يخرج و ينبه رجال القبيلة، كانت بندقية الشيخ غياث واحدة من ثلاثة بنادق دفع ثمنها جاد الله لصديقه رستم كي يؤمنها للشيخ غياث عندما كان في القدس قبل عام، كانت البنادق الثلاثة تحتاج إلى الحشو قبل كل طلقة، فيما كان صوت الصبي يخفت شيئاً فشيئاً وهو يبتعد يردد في كلّ اتجاه صيحته: السلاح السلاح، الغزو يا رجال... السلاح السلاح، الغزو يا رجال...

دقائق معدودة وكان رجال القبيلة يمتشقون سيوفهم ويهرعون في الاتجاه الذي أشار إليه الصبي خارج البلدة، يتقدمهم حملة البنادق الثلاثة الشيخ

غياث وشقيقه متعب وابنه سعد لمنع الغزاة من دخول البلدة والوصول إلى النساء والماشية.

تنفس الشيخ غياث الصعداء وهو يرى مجموعة الخيالة وقد بدؤوا بالاقتراب وصارت ملامحهم أكثر وضوحاً: "أغمدوا أسلحتكم يا رجال"، صاحَ الشيخُ غياث برجاله:

"لا تبدو هيئة هؤلاء القوم أنهم طلاب شر أو قتال".. قالها وهو يحثُ فرسه متقدماً باتجاه القادمين والذين أصبحوا على بعد عشرات الأمتار منهم..

أحد الخيالة تكلم بصوتٍ عالٍ مقترباً من الشيخ غياث وموجهاً كلماته له، بعد أن أماط اللثام عن وجهه:

"أبالسلاحِ تستقبلُ ضيوفك يا شيخ غياث"؟!

في تلك اللحظات كانت أعصاب رجال القبيلة متوترة، كخيطٍ رفيعٍ مشدودٍ على آخره، أرختهُ تعابير وجه الشيخ غياث وقد تهللت أساريره وهو يردد مبتسماً:

"جاد أفندي"؟!.. "يا هلا، يا هلا ورحب بالغالي..."

اقترب الرجلان من بعضهما بعد أن ترجلا، وسط دهشة الجميع، الذين شهدوا عناقاً حاراً بين الرجلين...

أثناء عودة الجميع إلى مضافة الشيخ غياث، لفت انتباه جاد التوسع الذي حدث خلال عام واحد في تلك المنطقة، التي نزل بها أولئك اليهود الأوروبيون، وأقاموا عليها مخيماً (كيبوتس) من البيوت الصناعية الجاهزة،

وعرف جاد بخبرته السابقة أنّ هذه البيوت الجاهزة تأتي من أوروبا، لأنه لا يمكن تصنيعها إلا هناك..

كان الصبي (زيون) جزءاً من القافلة، يعتلي واحداً من الجمال، ولم يلحظ أحد أنه رغم كونه خادماً مطيعاً، كان شديد الذكاء أيضاً، فكان يدقق النظر في كلّ ما حوله، وقد لفت انتباهه بشدة تلك المعالم الخافتة لمخيم اليهود على سفح ذلك الجبل البعيد...

امتلأت مضافة الشيخ غياث بالرجال، الجاهة الكبيرة التي قدم بها جاد كانت وفداً يضم عدداً من كبار ووجهاء البلاد، الغالبية اعتمروا الكوفيات وارتدوا العباءات، وخمس من شخصيات الجاهة ارتدوا البدلات الأنيقة ويعتمرون الطرابيش التي ميزت رجال المدن الكبرى في البلاد.. كانت الفرحة بادية على مُحيا نورا وهي تحاول استراق السمع مع رفيقاتها من بنات القبيلة اللاتي اجتمعن عندها في الغرفة المجاورة للمضافة... كان صوت المتحدث نيابة عن الوفد عالياً وهو يطلب يد نورا لابنهم جاد من أبيها، وجاء الرد بصوتٍ عالٍ من أبيها:

اشربوا قهوتكم، طلبكم مجاب

انطلقت الزغاريد في غرفة نورا، في وقت كان جاد يضع يده بيد الشيخ غياث، ينصت للشيخ غياث وهو يردد العبارات خلف الشيخ عزام، وكان عزام شيخاً معمماً درس العلوم الشرعية في جامعة الأزهر في القاهرة، وهو من قرية مجاورة لقرية جاد:

"زوجتك ابنتي نورا... على المهر المتفق عليه بيننا... وعلى مذهب الإمام أبو حنيفة."

ثم ردد جاد خلف الشيخ عزام:

"وأنا قبلت الزواج"

كان الطعام الذي أعده الشيخ غياث للجاهة يدعى المنسف، وهو مكون من الأرز ولحم الضأن المطبوخ باللبن، دارت أحاديث جانبية أثناء تناول الرجال طعامهم، توجه الشيخ غياث بحديثه إلى الشيخ عزام:

-أريد أن أسألك سؤالاً حيرني دائماً يا شيخ عزام بصفتك عالم بالدين.

-تفضل يا شيخ غياث، اسأل.

ردَ الشيخ عزام قبل أن يدفع بأصابعه الثلاثة اللقمة في فمه.

-لماذا نقول في صيغة الزواج على مذهب الإمام أبو حنيفة؟.. هل يوجد أكثر من زواج في ديننا؟

-"الزواج واحد في ديننا وهو نفسه في كل الأماكن وفي كل الأزمان وعند الأئمة الأربعة الكبار، وأساسه الإيجاب والقبول من الطرفين، لا يوجد اختلافات جوهرية في شروط الزواج بين المذاهب"... أجابه الشيخ عزام:

-فلماذا نقول على مذهب الإمام أبو حنيفة، ما دام الزواج هو نفسه عند الجميع؟

كرر الشيخ غياث سؤاله للشيخ عزام وهو يفتت اللحم أمام الشيخ عزام.

-لأنّ الدولة العثمانية اعتمدت مذهبَ الإمامِ أبي حنيفة في المعاملات الرسمية لكلّ شؤون الحياة الشرعية.

واصل الشيخ غياث أسئلته:

-ولماذا اعتمدت الدولة العثمانية هذا المذهب بالذات، ولم تختر المذهب المالكي أو الشافعي أو الحنبلي؟

ابتسم الشيخ عزام ونظر إلى جاد:

-إجابتي سؤالك قد تزعج جاد أفندي.

رد جاد:

-لا، لا يا سيدنا الشيخ، لا يمكن أن أنزعج منك يا شيخنا، تفضل بالإجابة.

-حسناً... قال الشيخ عزام ثم أردف:

-المذاهب الثلاثة الأخرى وضعت شرطاً لمن يتولى حكم المسلمين أن يكون الخليفة عربياً، وبعضهم زاد في التخصيص وقال عربياً قرشياً..

الإمام أبو حنيفة الوحيد الذي لم تكن عنده العروبة شرطاً لشرعية خليفة المسلمين وحاكمهم، وهو المذهب الوحيد الذي يعطي شرعية لآل عثمان والأتراك كي يحكموا المسلمين.

كان جاد ينصت باهتمام للشيخ عزام، سأل وقد استفزه حديث الشيخ عزام:

-ولماذا لم يشترط الإمامُ الجليلُ أبو حنيفة في خليفة المسلمين أن يكون عربياً كباقي الأئمة الأجلاء؟!

-لا أدري، ربما لأنه هو نفسه لم يكن عربياً، وأخذ الأمر على محمل شخصي...

تفاجأ جاد من المعلومة:

-الإمام أبو حنيفة النعمان ليس عربياً؟!

-لا يا جاد أفندي، هو من أصول فارسية، لكن هذا أمر ليس مهماً بالنسبة لعلماء الدين ولا يعيرونه أي اهتمام.

وهنا رفع جاد صوته وهو يُسمع الجميع حديث النبي:

"لا فضل لعربيّ على أعجمي إلّا بالتقوى، إن أكرمكم عند الله أتقاكم، كلكم من آدم وآدم من تراب".

والشيخ عزام يردد:

-صدق رسول الله، صدق رسول الله عليه أفضل الصلاة والسلام.

اليوم التالي

كانت الدموع تنساب بغزارة على وجنتي نورا وهي تهم بدخول هودجها الحريري، بعد أن اعتلت الجمل.. دموع الشعور بالألم لفراق والديها وأهلها، اجتمعت بنفس الوقت داخلها مع شعور الغبطة والسعادة بلقاء حبيبها وانضمامها إليه..

من الصعب تفسير هذا التناقض في المشاعر التي تنتاب الفتاة يوم زفافها، مشاعر بشرية متناقضة..

-هل يجتمع الألم والحزن مع الغبطة والسعادة في نفس الوقت؟!

سأل جاد الصغير ابن عمه جاد الكبير، بعد أن ابتعدت القافلة عن مضارب قبيلة نورا.. كان السؤال غريباً ومفاجئاً لجاد..

ابتسم لابن عمه، ثم ألقى البصر إلى الأرض، كمن يستنجد بترابها، لعلّه يسعفه بإجابة منطقية ومقنعة لسؤال جاد الصغير عن المشاعر البشرية المتنافضة.. صمت قليلاً وصوت قرع حوافر الخيل يبدد الصمت المطبق للجبال المحيطة.. مرت ثوانٍ قليلة قبل أن يحوّل جاد نظره إلى السماء وهو يحاول بتأنٍ إيجاد الكلمات المناسبة للإجابة:

-يمكن للإنسان أن يتحمل ألماً عابراً إذا لم يكن هناك بُدٌّ منه، ليصل إلى سعادة أكثر دواماً وأكبر حجماً..

صمت برهة وكأنه يتأمل، ثم أردف جاد:

-أتعلم يا أخي؟.. المرأة هذه غريبة، تستطيع أن تجمع بين المتناقضات، الألم والسعادة، الحزن والفرح، الرغبة والعزوف، الحنان والقسوة..

مشاعر الفتاة التي تبدو متناقضة يوم زفافها، تشبة تلك المشاعر التي تنتاب المرأة عند الوضع، تتحمل بحب الآلام الذي تقاسيها أثناء حملها وولادتها، لأنها حالة لا بُدَّ منها للوصول إلى سعادة أكبر وأطول مدة، ألا وهي الأمومة التي تسعى إليها برغبتها وإرادتها...

هزّ الشاب جاد الصغير رأسه كعلامة على اقتناعه بإجابة جاد، وعلامة الإعجاب بادية في عينيه.. في الوقت الذي كان فيه هودج نورا يتمايل وسط القافلة يميناً ويساراً، يظن الرائي لوهلة، أنّ الجمل يدرك ما يحمل من جمال، فيمشي مختالاً مزهواً به.. أما نورا فكانت تلقي نظرتها الأخيرة على ديارها التي راحت تبتعد، حتى بانت لها من شق ستار الهودج، كنقطة صغيرة أخذت تتلاشى شيئاً فشيئاً حتى اختفت، أرخت يدها عن الستار الذي عاود انسداله وساورها شعور فظيع بأنها لن ترى ديارها مرة أخرى.

كان زيون الأصم ممسكاً بالحبل، قائداً للجمل الثاني الذي يحمل أمتعة نورا وأغراضها الشخصية التي جلبتها معها من الديار، ويسير خلف الهودج، ولم يسمع تعليمات جاد لثلاثة من رجاله بأن يسبقوا القافلة بمسافة لتأمين الطريق، فقد انتشر بشكل واسع في السنوات الأخيرة عمليات قطع الطريق والسلب والنهب، ولم تكن الدولة تحرك ساكناً لإيقاف هذه الأفعال..

يدا الدولة القابضتين على الحكم، لم تعد القبضتين متساويتين بالقوة، ارتخت القبضة التي كانت تمسك بالأمن الاجتماعي والأمان للناس حتى صارت كفاً مفتوحة يمر عليها كل التجاوزات والتعديات، فيما اشتدت قبضة يدها الثانية التي تعني بالأمن السياسي وجباية الضرائب، كان مجرد الاشتباه بمعارضة أي شخص للدولة كافياً لإعدامه، وعدم دفع الضريبة كافياً لاختفاء أي شخص في غياهب السجون البعيدة..

استمر مسير القافلة من منتصف نهار الأربعاء حتى مساء يوم الخميس عندما وصلوا البلدة، وكانت القافلة تزفُّ بالأهازيج والزغاريد في كل بلدة أو قرية يمرون بها، وكانت تقدم الهدايا للعروس من أهالي كل بلدة، بعض البلدات قدمت القمح وبعضها قدم زيت الزيتون في جرار فخارية محملة على الدواب، خاصة أنّ الناس كانوا قد انتهوا من حصاد موسمهم في كلّ المزروعات وآخرها كان قطاف الزيتون وعصره، بعض المخاتير وشيوخ القرى قدموا قطع من أراضيهم كنقوط للعروس، وبعضهم ألحق بالقافلة بعضاً من مواشيهم، كل قدم حسب استطاعته، وكانت هذه عادة أهل أي بلدة عندما تمر عروس من بلدتهم، وكان من المعيب أن تخرج العروس من البلدة دون هدية (نقوط)...

استمرت احتفالات أهالي بلدة جاد سبعة أيام بلياليها معبرين عن فرحتهم بهذا الزواج..

كانت نورا سعيدة مع جاد في كلّ شيء رغم كثرة سفره وانشغاله، أحبّت أهل البلدة وهم أحبوها، ولم يكن يقلقها شيء سوى الخادم زيون، كانت نورا تشعر أنه ينظر إليها خلسة نظرات لم تسترح لها، وعندما كانت تلتقي عيناهما كان يزيح نظره لإيهامها أنه منشغل بشيء آخر.. لاحظت أيضاً أن زيون تنفلت منه بعض الأحيان نظرات حقد وكره تجاه جاد، سرعان ما تختفي عندما ينظر إليه جاد.. حاولت مرة أن تلفت نظر جاد إلى هذا الأمر، لكنه لم يُعِر الأمر اهتماماً، وخفّفَ من مخاوفها عندما قال لها أنّ هذا صبي لا أهل له ونحن الآن بمثابة أهله وأنّ عليها أن تشفق عليه بسب الإعاقة التي يعاني منها، وأنه خادم مطيع ولم يبدر منه أي سوء حتى الآن..

في أوائل شهر أيلول **1911**م وضعت نورا طفلاً أسماه جاد (حسن) وقد كان اسماً على مسمى، فرح به الجميع باستثناء زيون الذي انتابته حالة اكتئاب أسابيع عديدة، ولم يلحظ أحد هذا الأمر سوى نورا لكنها لم تعره انتباهاً..

حتى بداية سنة **1912**م، عندما قرر جاد أمراً مفاجئاً، صدم كل أهل بلدته وأمه على وجه الخصوص... قرر جاد الله الرحيل بزوجته وابنه عن البلدة...

إلى أين؟ ... ولماذا؟، ...

القدس مرة أخرى

انتقل جاد الله ونورا وابنهما حسن إلى القدس وأخذا معهما (زيون) وكانوا يطلقون عليه اسم (عبد الله)، الاسم الذي أطلقه عليه جاد بعد أن وجده تائهاً في الخلاء، قال جاد يومها لأمه عن اسم هذا اللقيط: "كلنا عبيد لله، هو عبد الله"، عندما سألته أمه حسنية عن سبب رحيلة، في البداية، أخفى عنها الأسباب الحقيقية لقراره الإقامة في القدس، وادعى أن له تجارة هناك ويجب أن يكون قريباً منها، لم ترضَ أم جاد عن قراره، لكنها قبلت بالأمر الواقع بعد نقاشات طويلة مع جاد على مدى عدة أيام، بالإضافة إلى فراق ولدها، كان يعز عليها أن يفارقها حفيدها حسن، والذي تجاوز عمره الأربعة شهور، لكن جاد صارح أمه بالحقيقة في ليلة السفر، كان جاد يعتقد أن الكذب مهما كان متقناً فهو هشٌّ وعمره قصير، ولا يحتمل بناء الأحداث والحياة عليه، وكل علاقة بنيت على كذب، ستنهار عاجلاً أم آجلاً، وأنّ الكذب يفتح الباب لمتاهات وفتن كثيرة لاحقة.. وأنّ الحقيقة وحدها هي أصلب مواد الحياة لبناء العلاقات... جاد أسر أيضاً لزوجته نورا بالحقيقة وأخبرها عن سبب انتقالهم إلى القدس عندما سألته عن مغزى هذا القرار المفاجئ، قال لها:

-أحمل أمانة ثقيلة، وفي عنقي عهدٌ عليّ الوفاء به بكل ما أوتيت من قوة. الأمور تزداد تعقيداً في البلاد، يجب أن أكون في القدس قريباً من دوائر القرار التركي في فلسطين، الأخبار التي تصلني من أصدقائي الأتراك والعرب تقول أنّ الفساد قد عمّ في المؤسسات، وانتشرت الرشوة بين الموظفين وكبار المسؤولين، وهذا جعل كثير من الأراضي المملوكة للدولة تنتقل إلى اليهود بوسائل وأساليب ملتوية ومخادعة، تحتال على القانون الذي يمنع اليهود من التملك في فلسطين، بعض هذه الأساليب أن تسجل قطعة الأرض باسم يهودي وتنقل كل بياناته في القوشان، ويتم تغير الديانة فيسجل مسلماً أو نصرانياً، وإذا ما كشف أحدهم الأمر كانوا يتعللون بأنه حدث خطأ غير مقصودٍ في نقل البيانات، بعض اليهود كان يأتي بـ (مزبطة) عليها ختم مختار ما بأنه مسلمٌ أو نصرانيّ كوسيلة للاحتيال على القانون، كان الموظف يأخذ الرشوة ويعتمد الوثيقة...

كانت نورا تصغي باهتمام وهي ترضع طفلها، سألته:

-وماذا يمكنك أن تفعل بهذا الشأن؟

-الكثير، أنا لست وحدي، معي كثيرون ممن يدركون الخطر الصهيوني اليهودي، سنحاول الاستقصاء عن كل الأراضي التي يتم تسجيلها حديثاً، وسنكشف التزوير والاحتيال على القانون، نحاول إعادة الأراضي التي استولت عليها الدولة لأصحابها الذين عجزوا عن دفع ضرائبها.

-لكن هذا يتطلب الكثير من المال. قالت نورا

أطلق جاد زفرة عبرت عن مدى الحيرة التي تنتابه والهم الذي يحمله وقال:
-نعم صحيح، لم يتبقَّ لديّ الكثير من المال، التنظيم الصهيوني أنشأ صندوقاً بدعم من الدول الأوروبية لشراء الأراضي باسم الصندوق اليهودي للأراضي، وضعوا فيه مبالغ طائلة... وأنا سأحاول جمع التبرعات لمقاومة هذا الأمر، وإن استدعى الأمر سنستخدم السلاح لمقاومة سرقة بلادنا.. يبدو أنّ الدولة لم يعد يعنيها هذا الأمر وليس من اهتماماتها، هناك حرب تلوح في الأفق وهي مشغولة بالاستعداد لها...

كان بيت والد نورا الشيخ غياث الذي في القدس مناسباً للإقامة فيه، فلم يكن الشيخ غياث بحاجة إلية خاصة وأنه دائم المكوث في عين جدي بين أهله وعشيرته..
انتبه زيون لذلك الصندوق الحديدي الصغير الذي حرص جاد على أن يحمله بنفسه، ورفض أن يقوم زيون بحمله عندما حاول ذلك أثناء إدخال الأمتعة إلى البيت، وكان زيون يرقبه خلسة وهو يصعد بالصندوق إلى الطابق العلوي ويدخل به الغرفة التي ستصبح غرفة نومه لاحقاً..
نهرت نورا زيون بقوة أثناء نقلهم الأمتعة إلى داخل البيت، وأشارت له بأن يمشي أمامها بعد أن لاحظت أنه يتعمد المشي خلفها وهما ينقلان الأمتعة... يبدو أن زيون قد شغفه حبّ نورا، لذلك كانت كراهيته لجاد

تزداد يوماً بعد يوم ويزدادُ بنفس الوقت اشتهاؤه لنورا.. في كل ليلة قادمة، لن يخلد زيون إلى النوم، قبل أن يطلق العنان لخياله المريض وهو يرى نفسه في غرفة نوم نورا، فينتشي لذلك وترتعش كل خلية في جسده الممسوخ..

كان يتمنى التخلص من جاد الله وطفله حسن، لتخلو له نورا على ما يبدو، ويستأثر بها وحده..، تعدى زيون مرحلة الأمنيات، وصار يفكر في طريقة للتخلص منهما دون أن تشتبه نورا بالأمر.. إرخاء المرء حبل خياله المريض، يجره عنوة إلى سلوك دنيء، شاذ وخطير...

الحَدْسُ

مع دخول ربيع سنة **1911**م، اكتست جبال القدس المحيطة باللون الأخضر موحياً بخصوبة البلاد، واقترب حسن من إكمال عامه الأول..

كانت هذه هي المرة الأولى التي تعارض فيها نورا زوجها في قرار اتخذه، ولشهرين متتاليين تحاول نورا أن تثني جاد عما انتواه، لكنها فشلت في ثنيه عن ذلك، لم تيأس نورا حتى تلك الليلة الأخيرة قبل سفره، رجته بالدموع:

-"يمكنك أن ترسل أحد رجالك لهذه المهمة".

رد وهو يمسح دموعها بكفيه، ويقترب بوجهه من وجهها وعيناه في عيناها:

-"سأعود، يا حبيبتي، أعدك أن أعود سالماً بإذن الله.. لا أحد يصلح لهذه المهمة غيري".

-"أي واحد من رجالك يمكنه السفر إلى إسطنبول وأداء المهمة".

-"ليست إسطنبول هي مقصدي، أنا ذاهب إلى مدينة سلانيك حيث منفى مولاي السلطان عبد الحميد الثاني، لا أحد غيري يستطيع التسلل إليه، وهو لن يثق بأحد غيري ليعطيه المال الذي نحتاجه، لدرء هذا الخطر القادم

لبلادنا، المال الذي جلبته معي بدأ بالنفاد، والتبرعات شحيحة فالناس لا تملك مالاً لتتبرع به، الفقر طغى في البلاد".

مسحت نورا أنفها بالمنديل الذي بيدها:

-"وهذا أمر أكثر خطورة، كما قلت لي سابقاً أنهم يفرضون حصاراً شديداً على السلطان، إن أمسكو بك...". صمتت قليلاً وكأنها تتخيل بشاعة الأمر، ثم صدرت عنها شهقات متتابعة وهي تقول:

-"إنهم لا يرحمون".

أمال رأسها إلى صدره، وهمس في أذنها وهو يحتضنها بذراعيه:

-لا تخافي يا حبيبتي، لم يعد الأمر كالسابق، السفر آمن هذه الأيام بوجود سكة الحديد، هي مسيرة يوم إلى محطة عمان، ومن هناك إلى إسطنبول مباشرة، ومن إسطنبول إلى سلانيك، لي أصدقاء كثر هناك وسيساعدوني في التسلل حيث مولاي السلطان.. لا تخشي شيئاً عليّ، إن الله معي، فقد أوكلته أمري.."

قالت بعد أن رفعت رأسها عن صدره ونظرت في عينيه:

-لدي حَدْسٌ أني لن أراك ثانية، أرجوك لا تذهب.

-استعيذي بالله من الشيطان، وكما قلت لك، لا خطورة في الأمر فلا داعي لخوفك، المهم أن تعتني بنفسك وبطفلنا جيداً، وأوكلي الأمر لله.

قالت مستسلمة:

-لا إله إلا الله، ونعم بالله.

ثم أردفت:

-كم ستغيب عنا؟

تردد جاد قليلاً ثم أجابها:

-لا أدري على وجه الدقة، شهرين أو ثلاثة، ربما أرجع في شهر ثمانية أو تسعة، حسب التساهيل.

ثم ابتسم وقد عمد إلى أن يحول الحديث إلى موضوع آخر يفرحها وقال:

-مع الذكرى الأولى ليوم ميلاد حسن سأكون هنا إن شاء الله، وسنحتفل معاً ببلوغه السنة.

وكان حَدْسُ نورا في محله، فهي لن ترى جاد مرة أخرى بعد ليلتها هذه...

طعنةُ غدرٍ

مضى شهر على سفر جاد، كانت تعدُّ فيه نورا الأيام، وتكثر من الدعاء إلى الله في كل صلاة، أن يرعى الله زوجها ويوليه عنايته، استطاع جاد بعد جهد كبير، واتصالات عديدة على مدى أيام كثيرة أن يدخل خفية إلى البيت الذي حددت فيه الإقامة الجبرية للسلطان المعزول، وفي ظهيرة ذلك اليوم الذي كان يجتمع فيه مع السلطان عبد الحميد في قصر(آلاديني)، في مدينة سلانيك، كانت نورا في القدس تقوم بأعمالها البيتية، كانت داخل الإسطبل تقوم بتنظيف فرس زوجها المدهشة، كانت نورا تشعر بسعادة المدهشة عندما تحممها، خاصة عندما يكون الطقس حاراً، كهذا اليوم في نهاية شهر تموز.. بينما كان زيون مستلقياً في الغرفة المقابلة غرفة المؤن التي في الجانب الأيسر من صحن الدار، وقد كان جاد قد جهزها لزيون منذ وصولهم إلى القدس لتكون مكاناً لإقامة زيون ومبيته، بعد أن أفرغ جزءاً كبيراً من محتوياتها..

ما زال ذلك الصندوق الذي وضعه جاد في غرفة نومه يشغل بال زيون.. بعد أن لمحَ زيون نورا مشغولة في تنظيف الفرس، وقدّر أنها ستأخذ وقتاً طويلاً حتى تعود لغرفتها.. نهض من قيلولته، وتسلل بخفة وحذر، وصعد إلى الطابق العلوي، حيث غرفة نوم الزوجين، كان الباب مفتوحاً، فقد

تعمدت نورا تركه مفتوحاً كي تستطيع سماع طفلها إذا ما بكى، شاهد زيون من الخارج الطفل نائماً على سريره الصغير، دلف إلى الغرفة، ثم ألقى نظرة سريعة على محتوياتها، كانت غرفة واسعة فيها سرير كبير للزوجين، وبجانبه سرير صغير، كان الطفل نائماً فيه، اتجه إلى الخزانة الخشبية وفي الجهة المقابلة للسرير على يسار الباب كانت هناك خزانة خشبية ذات ست درف، اتجه زيون إليها مباشرة، فتحها، وراح ينبش في الملابس، باحثاً عن الصندوق، وعندما وقعت بيديه قطعة من ملابس نورا، قربها إلى أنفه، وراح يتشممها كذئب يتشمم آثار فريسته، سرعان ما فاق من سكرته تلك وعاد إلى مهمته التي صعد من أجلها، وراح بسرعة يبحث في كل أقسام الخزانة، وعندما اصطدمت يداه بشي صلب، أدرك أنه وصل لمراده، أزاح الملابس المتراكمة وأمسك بالصندوق، كان الصندوق مغلقاً، استلَّ خنجره وأخذ يحاول خلعه بقوة...

قبل أن تنتهي نورا من حمام المدهشة، شعرت برطوبة على صدرها، تحسست المكان، فأدركت أن ثدييها يدفقان الحليب بقوة، وهذا الأمر تعتبره النساء المرضعات دعوة لإرضاع الطفل، ونداء من الطفل أنه جائع، قررت أن تكمل غسل المدهشة؛ فلم يتبقَّ على إنهاء حمّامها إلا القليل من الوقت، لكنها شعرت أيضاً بنار تشتغل في صدرها على طفلها، وأوحى لها خيالها وقدرها أن طفلها يبكي، رمت الفرشاة من يدها، وخرجت مسرعة من الإسطبل، كان الدرج المؤدي إلى الطابق العلوي درجاً خارجياً يحاذي

الحائط في الجهة المقابلة للإسطبل بجانب غرفة المؤن، صعدت الدرجات مسرعة ودخلت الممر حيث غرفة نومها، ألقت نظرة فشاهدت طفلها نائماً بهدوء، وعندما سمعت صوتاً داخل الغرفة، دخلت فرأت زيون دائراً ظهره، فصرخت به وقد أصابها الهلع:

-ماذا تفعل هنا يا عبد الله؟

كررتها مرتين...

لكنّ زيون لم يجبها ولم يشعر بوجودها، تداركت نورا نفسها، بعد أن تذكرت أنه أصم ولن يسمعها، اقتربت منه ووضعت يدها على كتفه تهزه، وهي تراه يتأمل لمعات القطع الذهبية في الصندوق، كان زيون لا يزال يمسك بالخنجر الذي فتح به الصندوق، استدار مذعوراً، ودون تفكير غرس خنجره في خاصرة نورا، فصرخت صرخة قوية، أيقظت طفلها.. سقطت نورا على الأرض ودمها يسيل بغزارة، امتزجت صرخاتها بصرخات طفلها الباكي، حاولت أن تنهض، لكن زيون عاجلها بضربة قوية على رأسها بالصندوق الحديدي الذي يحمله، فهمدت دون حراك.. وضع زيون الصندوق جانباً، ثم جثا على ركبتيه عند قدمي نورا، ثم رفع ملابسها حتى خصرها، رآى دم نورا يتدفق مكان الطعنة، فلم يولِه اهتماماً، انشغل في تحقيق خيالاته المريضة التي راودته في لياليه الخالية، وعلى صوت صراخ طفلها الباكي، كان العرق يتصبب من زيون وهو يمارس بهيميته بوحشية مع سيدته المغيّبة نورا...

كانت ملابسه ملطخة بالدماء عندما خرج زيون من باب الدار، فوجد نفسه في الزقاق، كان الزقاق باتجاه اليمين يؤدي إلى قلب المدينة، واليسار يوصل إلى خارج القدس.. فطن زيون للطفل حسن، وهمَّ بالعودة لقتله، لكنه تراجع عندما رأى بعض الرجال يقتربون من يمين الزقاق، وشاهدوه يحمل الصندوق تحت إبطه، وخنجره الذي ما زال يقطر دماً بيده، فآثر الهرب، وأطلق ساقيه للريح خارج المدينة...

من القمر
رأيتُ وجه الأرض عابساً
وسمعت النحيب

سلانيك

هناك في أقصى الشمال الغربي لتركيا، حيث الحدود مع اليونان وبلغاريا، تقع مدينة سيلانيك ذات الأغلبية اليهودية من السكان، واجه جاد صعوبات كبيرة في محاولاته التسلل إلى قصر علاء الدين (آلاديني)، حيث كان يقبع السلطان المخلوع عبد الحميد الثاني وأسرته، تحت الإقامة الجبرية، وفي ظل رقابة عسكرية مشددة، فلم يكن يسمح لأحد بالدخول إلى القصر سوى طبيبه.. كانت مخاطرة شجاعة من طبيب السلطان أن يصطحب جاد معه متخفياً كمساعدٍ له، كان مشهد قصر علاء الدين، وجاد مقبل عليه يحمل حقيبة الطبيب يشعره ببرودة قاسية، كان المبنى بطوابقه الثلاثة ذوات النوافذ الطولية المقوسة، ومدخله الواسع على شكل حرف (يو) بالإنجليزية وهو محاط بالأشجار التي يحيطها سورٌ عالٍ، يوحي لجاد الله بالعزلة والانطواء والكآبة، رغم أن جاد يعرف القصر جيداً، لكنه لأول مرة شعر أنه يدخل إلى قبر يدفنون فيه بشراً وهم أحياء...

خاب رجاء جاد من اجتماعه مع السلطان، فقد خرج منه خالي الوفاض، بعد أن أخبره السلطان متأسفاً أنه لم يعد يملك شيئاً يقدمه له، أخبره السلطان أنّ القصر تعرض لتفتيشٍ دقيقٍ مرتين خلال عام، وأنهم صادروا

كل ما وجدوه ذا قيمة مادية، حتى تلك المجوهرات القليلة لبناته التي قمن بتهريبها معهن من إسطنبول تمت مصادرتها.. لكن السلطان منح جاد بعض الأمل عندما ذكر له اسم (أجاويد)، وأجاويد هذا واحد من التجار الأتراك الأثرياء في إسطنبول، كان صديقاً للسلطان، وما زال على ولائه له خفية، فهو يحمل جمائل كثيرة للسلطان ويعزو إليه سبب وصوله إلى هذه الدرجة من الثراء...

لم يخرج جاد وحده من قصر علاء الدين، فقد رافقه شاب يدعى (رضا) يعرفه جاد جيداً، فهو أحد زملائه الضباط عندما كان ضمن حرس السلطان، أرسل السلطان رضا في مهمة سرية إلى دمشق، وأمر كل من جاد ورضا أن يترافقا إلى إسطنبول ثم إلى دمشق، وأوصاهما أن يحمي أحدهما الآخر، فالرسالة السرية التي يحملها رضا كفيلة لو وقعت في أيدي جماعة الاتحاد والترقي أن يعدموا بسببها رضا، وربما يصل الأمر بهم أن يعدموا السلطان عبد الحميد نفسه، غادر جاد ورضا ولاية سيلانيك متوجهين إلى إسطنبول، ولم يكونا على علم بالغيب، فبعد عام من خروجهما من هذه الولاية ستمسي تحت السيطرة اليونانية بمسماها سالونيكا، نسبة إلى الأخت غير الشقيقة للإسكندر المقدوني، بعد هزيمة منكرة للقوات التركية هناك من قبل القوات اليونانية، وأن هذه المدينة سيهاجر معظم سكانها اليهود إلى فلسطين بعد حريقٍ كبيرٍ سينشب فيها عام **1917**م، أولئك اليهود الذين

كانوا قد لجؤوا إلى سيلانيك وسكنوها قادمين من إسبانيا بعد بشائع محاكم التفتيش ضد المسلمين واليهود في إسبانيا...

أجاويد

لم يأمن التاجر أجاويد في البداية جانب الشابين اللذين يجلسان في بيته، فقد اعتقد أنهما مدسوسان من جمعية الاتحاد والترقي الحاكمة لإيقاعه في فخ التجار عادة يعلنون ولاءهم للسلطة الحاكمة، ويبدلون لونهم بتبدلها، لكن جاد ذكر له كلمة السر التي أخبرهم بها السلطان إذا ما تنكر أجاويد لهما، ظهرت ملامح الارتياح على وجه أجاويد عندما قال له جاد: " الطبنجة المذهبة"، ثم أردف: "مولانا يبلغك السلام ويطلب منك أن تساعدني بما جئت من أجله".. وقصة المسدس المذهب لا يعرفها سوى شخصين هما السلطان وأجاويد فقط، فقد حدثت في بيت أجاويد، عندما كان السلطان في زيارته، وأحب أجاويد أن يعرب للسلطان عن حبه وامتنانه له فأهداه مسدساً مذهباً غالي الثمن، كان قد أحضره من إنجلترا في واحدة من رحلاته التجاريه إلى هناك، ورفض السلطان قبول هديته بأدبٍ جَمٍّ، عندما قال له: "لم يكن السلاح يوماً للزينة والتنميق، فاحتفظ بمسدسك الذهبي"...

كتم جاد غضبه بعد أن شعر بالإهانة عندما وضع أجاويد أمامه على الطاولة كيساً قماشياً فيه مائة وخمسين ليرة ذهبية، حنى جاد ظهره قليلاً ووضع يده على الكيس ودفعه باتجاه أجاويد بحركة توحي بالرفض والغضب:

-أنا لم أقطع كل هذه المسافة من القدس إلى إسطنبول لأتسول يا أخي"

حك أجاويد ذو الستين عاماً لحيته البيضاء المشذبة، وقد بدت الحيرة على محياه:

-"إنه مبلغ جيد يا أخي، تستطيع أن تحسن حياتك به، وأن تبدأ تجارة لك في القدس".

أسند جاد ظهره إلى الكرسي وقد ذهب عنه شعوره الغاضب، وقال بنبرة هادئة وودودة:

-يبدو أن هناك سوء فهم يا أخي، أنا لا أطلب المال لنفسي، أنا أطلبه من أجل بلادي وأمتنا، لا يخفى عليك أن هناك هجمة يهودية صهيونية تتم بالخفاء للإستيلاء على أراض في فلسطين ومحيطها باستخدام المال.. والمال لا يواجهه إلا المال، أنا وكثيرون معي نحاول أن نحمي أراضينا المقدسة، مولانا السلطان كلفني بذلك وهو على علم بكل التفاصيل.

نهض أجاويد وهو يردد عبارات الاعتذار، وخرج من الصالة وعاد بعد عدة دقائق وهو يحمل حقيبة صغيرة، دفعها لجاد:

-طلبات مولانا السلطان أوامر يا أخي جاد، هذه ألف وخمسمائة ليرة ذهبية هي ما يتوفر الآن في البيت..

جلس أجاويد وبعد صمتٍ قال:

-قضيتك يائسة يا ولدي، المال اليهودي يحكم الآن، لا أحد يستطيع مضاهاته أو مواجهته، نحن في زمن سياسة المال، بالمال تستطيع شراء الذمم، وشراء القوة التي بواسطتها تدوس الحق، وبالمال تستطيع أن تتلاعب بميزان

العدل... هل تعلم يا أخي أن بريطانيا ودول غربية كثيرة ترضخ للمال اليهودي وتطلب رضاه، دول كبيرة تستدين من اليهود، ألم تسمع بروتشيلد وسطوة ماله على السياسة البريطانية والدولية؟، الأمور تسوء يوماً بعد يوم، وأرى أن القادم سيّئ لنا ولكم...

كان جاد يصغي باهتمام لحديث أجاويد وقد بدت المرارة فيه، وسأل:

-وهل الدولة العثمانية من ضمن هذه الدول التي رضخت الآن؟

صمت أجاويد ولم يجِب.. بادر جاد بالحديث وقد فهم المغزى من سكوت أجاويد عن الجواب محاولاً انتشاله من حالة الإحباط واليأس التي أبداها في حديثه، فقال:

-أنت تعلم يا أخي أنّ ثلاثمائة وعشرين رجلاً من المسلمين بفرسين وسبعين جملاً انتصروا على ثلاثة آلاف من كفار قريش ومئتي فرس في معركة بدر، في الصراعات يا أخي ليس لزاماً أن يحكم ميزان القوة، إيمان الرجال بالحق ينتصر أيضاً.. أن نموت في وجه التحدي أصفى للنفس وأشرف من الموت يأساً واستسلاماً للباطل.. سأموت وأنا أحاول ولن أتراجع وغيري كثيرون على ما أنا عليه، فلا تبتئس يا أخي.. أشكرك على ما قدمته، رغم أنه قليل بالنسبة لقضيتي، لكنه كثير بالنسبة لك، فأنت قدمت كل ما تستطيع، ولو فعلنا كلنا مثلك، فلن يغلبنا عدو أبداً...

في القطار الحجازي

من نافذة عربة القطار الحجازي، راح ذهن جاد بعيداً، وهو يراقب الأشجار والجبال تتجاوزه مسرعة، كان يفكر في القادم من الأيام، وبين وقتٍ وآخر كانت تشتعل في قلبه نار الشوق لحسن ونورا.. كان الضابط رضا يجلس قبالته، لم يتحدثا، كان ينظر إلى صدر رضا حيث أخفى الرسالة بحرص قبل أن يستقلا القطار، وفي كل مرة كان يهمُّ بسؤاله كان يتراجع، تكررت نظرات جاد إلى رضا وفي كل مرة كان يطل الفضول في رأسه فيقمعه جاد، فهو يعلم أن رضا لن يفشي سراً للسلطان.. لاحظ رضا نظرات جاد وتردده، انحنى وربتَ على ركبتي جاد وهو يبتسم وقال:

-تريد أن تعرف ما في الرسالة؟

رد جاد سؤال رضا بسؤال:

-من المؤكد أنك تعرف لمن هي موجهة، لكن هل تعلم محتواها؟.

-نعم أعلم محتواها، لقد أطلعني السلطان عليها لرغبته في أن أعلم خطورة الأمر، لأزداد حرصاً وحذراً في مهمة إيصالها..

صمت قليلاً وقد بدا التردد في عينيه ثم قال:

-أعلم أنّ مولانا يثق بك، سأشبع فضولك الجائع، وأطلعك على الرسالة، اقرأها بسرعة أرجوك...

تلفت يميناً ويساراً واطمأن أنّ لا أحد يشاهد، ثم مدَّ يده إلى صدره داخل الملابس، وأخرج ورقة ملفوفة على شكل أسطوانة، خفضها حتى ركبتيه وناولها جاد، كان جاد يضع حقيبة المال بين قدمية، انخفضَ جاد وتناول الرسالة، فتحها بحذر..

كانت الرسالة مكتوبة باللغة التركية، وجاد يتقن التركية قراءة وكتابة

الرسالة

راح جاد يقرأ الرسالة على عجلٍ، وكانت موجهة من السلطان المخلوع عبد الحميد إلى شيخه وشيخ الطريقة الشاذلية محمود أبو الشامات وجاء فيها:

بسم الله الرحمن الرحيم
الحمد لله رب العالمين وأفضل الصلاة وأتم التسليم على سيدنا محمد رسول رب العالمين وعلى آله وصحبه أجمعين والتابعين إلى يوم الدين.
أرفع عريضتي هذه إلى شيخ الطريقة العلية الشاذلية، إلى مفيض الروح والحياة، وإلى شيخ أهل عصره الشيخ محمود أفندي أبي الشامات، وأقبل يديه المباركتين راجياً دعواته الصالحة. بعد تقديم احترامي أعرض أني تلقيت كتابكم المؤرخ في 22 مايس من السنة الحالية، وحمدت المولى وشكرته أنكم بصحة وسلامة دائمتين.
سيدي: إنني بتوفيق الله تعالى مداوم على قراءة الأوراد الشاذلية ليلاً ونهاراً، وأعرض أنني مازلت محتاجاً لدعواتكم ا لقلبية بصورة دائمة.
بعد هذه المقدمة أعرض لرشادتكم وإلى أمثالكم أصحاب السماحة والعقول السليمة المسألة المهمة الآتية كأمانة في ذمة التاريخ:
إنني لم أتخلَ عن الخلافة الإسلامية لسببٍ ما، سوى أنني _ بسبب المضايقة من رؤساء جمعية الاتحاد المعروفة باسم (جون تورك) وتهديدهم _ اضطررتُ وأجبرتُ على ترك الخلافة. إن هؤلاء الاتحاديين قد أصروا وأصروا عليّ بأن أصادق على تأسيس وطن قومي لليهود في الأرض المقدسة (فلسطين)، ورغم إصرارهم فلم أقبل بصورة قطعية هذا التكليف، وأخيراً وعدوا بتقديم 150 مائة وخمسين مليون

ليرة إنجليزية ذهباً، فرفضت هذا التكليف بصورة قطعية أيضاً، وأجبتهم بهذا الجواب القطعي الآتي: (إنكم لو دفعتم ملء الأرض ذهباً – فضلاً عن 150 مائة وخمسين مليون ليرة إنجليزية ذهباً فلن أقبل بتكليفكم هذا بوجه قطعي، لقد خدمت الملة الإسلامية والمحمدية ما يزيد عن ثلاثين سنة فلم أسود صحائف المسلمين آبائي وأجدادي من السلاطين والخلفاء العثمانيين، لهذا لن أقبل تكليفكم بوجه قطعي أيضاً). وبعد جوابي القطعي اتفقوا على خلعي، وأبلغوني أنهم سيبعدونني إلى (سالونيك) فقبلت بهذا التكليف الأخير. هذا وحمدت المولى وأحمده أنني لم أقبل بأن ألطخ الدولة العثمانية والعالم الإسلامي بهذا العار الأبدي الناشئ عن تكليفهم بإقامة دولة يهودية في الأراضي المقدسة فلسطين... وقد كان بعد ذلك ما كان، ولذا فإنني أكرر الحمد والثناء على الله المتعال، وأعتقد أن ما عرضته كافٍ في هذا الموضوع الهام، وبه أختم رسالتي هذه. ألثم يديكم المباركتين، وأرجو وأسترحم أن تتفضلوا بقبول احترامي بسلامي على جميع الإخوان والأصدقاء.
يا أستاذي المعظم لقد أطلت عليكم التحية، ولكن دفعني لهذه الإطالة أن نحيط سماحتكم علماً، ونحيط جماعتكم بذلك علماً أيضاً.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.
خادم المسلمين
عبد الحميد

أنهى جاد قراءة الرسالة والتي كانت عريضة كما سماها السلطان وأقرب لأن تكون مرافعة قضائية أمام قاضٍ جليل.. أعاد لفَّ الرسالة وناولها إلى رضا الذي سرعان ما دسها تحت ملابسه وهو يتلفت حوله..

قضى جاد بقية الرحلة في محاولة لقمع الشك الذي بدأ يطل برأسه، بدأ انسياب الأسئلة الصعبة، تسللت كل الأسئلة الممنوعة كالأفاعي إلى رأسه، تلك الأسئلة التي طالما حرّم التعامل معها.. بذرة الشك التي زرعها في نفسه الأستاذ يونس وعازوري ونصار عندما التقاهم في القدس بدأت ترتوي بالأسئلة، وتتغذى على الأحداث التي تتكشف لجاد يوماً بعد يوم، وها هي البذرة صارت نبتة لها جذور في نفس جاد الله، اجتمع ضجيج صوت القطار مع تزاحم الأسئلة في رأس جاد بعد قراءته رسالة السلطان، حتى شعر أن رأسه يكاد ينفجر:

"لماذا يدافع السلطان عن نفسه في الرسالة؟"

"إذا كانت هذه الرسالة هي رد السلطان على رسالة الشيخ محمود أبو الشامات، فماذا احتوت رسالة أبو الشامات، وهل وجّه أبو الشامات اتهامات إلى السلطان عبد الحميد دفعته أن يخط نفياً لهذه الاتهامات وتأكيداً على براءته، أم كانت مجرد أسئلة استفسارية من الشيخ أبي الشامات؟!"

"من الطبيعي أن يدفع المرء التهم وينفيها رداً على معارضيه وخصومه، أما أن يدافع عن نفسه أمام أصدقائه ومواليه فهذا شيء غريب!"

"إذا كان السلطان رفض بيع فلسطين وتسهيل استيطان اليهود فيها كما ذكر في رسالته، فهل وافق من جاء بعده على هجرة اليهود إليها وتسهيل استيلائهم على أراضيها؟"

ثم أخذ جاد يفكر في تدين السلطان، وماهية هذا التدين وطريقته، وهذه العلاقة مع الشيخ محمود أبو الشامات شيخ الطريقة الشاذلية الصوفية، والذي كان مبجلاً عند السلطان لدرجه أنه يدعوه بـ (شيخي) ويقبل يديه في الرسالة:

"هل تصوف السلطان وانغماسه في عالمٍ سرمدي ملكوتي علوي أشغله عن دنياه، وكان سبباً في انفصال السلطان عن الواقع والاهتمام بشؤون الحكم، مما أدى لأن تجري المياه من تحته دون أن ينتبه، ويحدث الانقلاب عليه وتتدهور دولة الخلافة، وتسوء الأمور في الدولة، والذي جعلها مطمعاً لقوى متربصة تكالبت من كل اتجاه على الدولة والأمة؟"

في هذه اللحظة أضاءت ذاكرته وارتسم وجه الأستاذ يونس، وهو يريه بهمة عددين من صحيفتين إحداهما فرنسية والأخرى إيطالية وفيها تكشف الصحيفتين عن رسالة موجهة من (ثيودورهرتزل)، مؤسس الصهيونية وصاحب فكرة الدولة اليهودية في فلسطين إلى كبير حاخامات باريس وفرنسا (صادوق خان)، والمؤرخة في السادس والعشرين من شهر يوليو (تموز) لسنة **1896**م، يخبره فيها عن ذهولة من سهولة الاستجابة من قبل العثمانيين، وأنهم أي العثمانية يريدون صيغة مناسبة لبيع فلسطين بما

يحفظ ماء الوجه، وأن حاشية السلطان اقترحوا أن يستوطن اليهود فلسطين بحكم ذاتي مستقل، وأن السير (مونتاجو) وافق على دعمهم شريطة موافقة الدول الكبرى واشتراك صندوق هيرش واشتراك إدموند روتشيلد.

وتذكر جاد حديث الأستاذ يونس الحاد عن فتح الباب على مصراعيه لهجرة اليهود إلى فلسطين في عهد السلطان عبد الحميد وإحصائية عازوري عن المستوطنات التي أقيمت في عهد السلطان:

مستوطنة بيئة طوفيا**1886**، ورحبوت**1890**، عرتوف**1895**، ومحانايم **1899**، ومنحاميا **1902**، وغفعات عيده**1903**، وعتليت **1904**، وبن شمن، وبئر يعقوب وغيرهم العشرات من المستوطنات، ووصل عدد اليهود في القدس لوحدها **28**ألف. في مخالفة صارخة للعهدة العمرية والتي التزم فيها المسلمون للنصارى عند استلام مدينة القدس بأن لا يسكنها اليهود.

وظل السؤال المهم بالنسبة لجاد يراوده:

"إذاً، لماذا كل هذا الحرص الذي وجده عند السلطان على فلسطين وأهلها، ولماذا يساعده في مقاومة المشروع الصهيوني، حتى وهو معزول ومكتوف اليدين بدون أي سلطة؟

هل هو تأنيب الضمير بعد أن فقد سلطانه؟، أم أن كل ما يحدث به نفسه ما هي إلا أوهام من نسج الشيطان؟"

لم يتوقف سيل الأسئلة وهذا الصراع داخل نفس جاد إلا على صوت صفير القطار مبشّراً بالوصول إلى محطة دمشق، وهو يشاهد صديقه رضا يتأهب للنزول... في حين سيبقى جاد مواصلاً رحلته إلى محطة عمّان، ومنها إلى القدس...

غيبوبة عميقة

عندما وصل جاد بوابة الدار الخارجية كان يحمل حقيبتين، حقيبة صغيرة تحوي ليرات الذهب، والكبيرة تحوي هدايا كان قد اشتراها من إسطنبول، ثوب جديد مطرز لنورا وقميص نوم أبيض، واشترى طقمين من الملابس لحسن أحدهما أكبر من حجم حسن، قال لنفسه عندما اشتراه "سألبسه إياه بعد ستة شهور سيكون على مقاسه"، واشترى ثوباً لأمه، ولم ينسَ زيون فقد اشترى له بنطالاً غربياً بحمالات، وقميصاً وحذاءً، قال في نفسه "سأدخل الفرحة إلى قلب عبد الله فلا أهل له، وقد صرنا أهله"...

وضع جاد حقيبة الهدايا أرضاً وطرقَ الباب، لم يجبه أحد، كان الباب مغلقاً من الداخل بخطاف، عاود طرق الباب عدة مرات، ولم يلقَ أيّ إجابة في كل مرة، بدا له البيت بارداً ومهجوراً، راح يضرب الباب بقوة وهو ينادي: "عبد الله يا عبد الله، يا ولد"

فلتت منه ابتسامة ساخرة من نفسه وهو يتمتم:

"وكيف سيسمعني عبد الله وهو أصم، لو أنه يقف خلف الباب لن يسمعني هذا الصبي"

زادت قوة طرقه للباب، وزاد قلقه وهو يسمع صهيل فرسه المدهشة بعد أن سمعت صوته، كان صهيلاً غريباً لم يسمعها تصهل بهذه الطريقة من قبل، صهيل أقرب إلى العويل.. أخيراً انفتح الباب على وجه أمه حسنية:

-أمي، أنت هنا، ما هذه المفاجئة؟!

لكن وجه أمه ظل عابساً وبدا الحزن في عينيها، ولم يعتد أن تقابله هكذا كانت دائماً تلقاه بالأحضان، والفرحة تكاد تنطق في عينيها، بعد لحظة صمت أدرك جاد أنّ أمراً جللاً قد حدث، اصفر وجهه وهو يردد:

-حسن؟.. أهو حسن ولدي؟

وهمَّ بالدخول مسرعاً، فأوقفته أمه بحضنها وهي تكاد تعصره، وهي تجهش بالبكاء

-حسن بخير يا ولدي، حسن بخير.

نظرة الحيرة في عينيه وهو يسأل:

-مَن إذاً، مَن يا أمي؟

-إنها نورا، نورا ليست بخير يا ولدي.

تركها مسرعاً إلى الداخل وهو يردد:

-ما بها؟، ما الذي حدث لها

صعد الدرج إلى الغرف العلوية وهو ينادي: "نورا.. نورا .. نورا ..."

عندما وقعت عيناه على نورا كانت ممدة على السرير بسكون، اعتقد أنها نائمة لولا أن رأى أنبوباً داخل فمها، وعندما وصلت أمه وضعت يدها على كتفه:

-إنها في غيبوبة منذ شهر، وهذا الأنبوب لتزويدها بالغذاء السائل، نصبه رويداً رويداً ليصل إلى معدتها، وهذا ما يبقيها على قيد الحياة حتى الآن.

-ما الذي حدث يا أمي؟

-جائنا إلى البلدة صديقك المقدسي أبو مصطفى وأبلغنا بالخبر، فقدمت لأعتني بها خلال غيابك.

صمتت قليلاً وهي تحاول صياغة كلمات مناسبة:

-يبدو أنك كنت تأوي الشيطان في بيتك يا ولدي!!

كانت المفاجأة بادية على جاد وهو يقول:

-مَن؟ .. الولد عبد الله؟

أدارت أم جاد وجهها قائلة:

-لم يعد ولداً يا جاد، لقد كبر هذا الغريب في بيتك دون أن تنتبه وأصبح رجلاً.

الجيران شاهدوه وهو يهرب ومعه صندوق، وكانت ثيابه ملطخة بالدماء، لقد طعنها غدراً واستباحك يا ولدي، الطبيب الذي أحضره الجيران خاط الجرح وأوقف النزيف، ووضع هذا الأنبوب ليبقيها على قيد الحياة، لعلّها تصحو من غيبوبتها يوماً ما.

كان الغضب بادياً على وجه جاد وهو يتخيل ما حدث لزوجته، بعد أن أوصلت له أمه ما حدث ضمنياً دون أن تفصح.

-ومتى قال الطبيب أنها ستستفيق من الغيبوبة؟

قالت أم جاد وهي تهم بالخروج

-لا يستطيع أن يجزم بشيء ربما تستمر غيبوبتها أياماً وربما شهور وربما سنوات، على أي حال، الطبيب سيحضر اليوم للاطمئنان عليها يمكنك أن تسأله.

كان جاد يحاول التماسك وهو يرى حبيبته كجثة مسجاة على السرير، وكان يقاوم بكل رباطة جأشه المعهودة فيه الدموع التي احتبست في مقلتيه، وما أن خرجت أمه من الغرفة حتى انكب على رأس نورا يقبله وقد انفجرت الدموع من منابعها غزيرة حتى بللت وجه نورا..

يا مَن أغثتَ يونسَ في بطنِ الحوت
أغثْ مُعلّقةً ما بين الحياةِ والموت

أول جاسوس

قبيل غروب ذلك اليوم القاسي على جاد، سمع أمه وهي ترحب بأحدهم:

-أهلاً وسهلاً، تفضل يا حكيم، أبو حسن عندها، يمكنك الصعود.

عندما دخل الطبيب يحمل حقيبته، وأم جاد خلفه، انتفض جاد عندما رآه، "إنه يهودي" قال جاد لنفسه، بعد أن رآه يعتمر القلنسوة التي تميز اليهود..

لاحظ الطبيب انزعاج جاد فابتسم، وأم جاد تقدمه لجاد:

-"الحكيم ياكوب، كان أقرب حكيم وقت الحادثة عندما استدعاه الجيران، وقد بذل مشكوراً جهداً كبيراً في إنقاذ نورا ".

صافح جاد الطبيب مرحباً:

-أهلاً بك يا حكيم، وأود أن أشكرك على جهدك في العناية بزوجتي.

رد ياكوب وهو يتفحص نبض نورا:

-لا داعي للشكر يا عزيزي، هذا واجبي، ولا شكر على واجب.

ثم راح الطبيب يخاطب نورا ممازحاً:

-ها هو زوجك عاد يا أم حسن، هل أحضر لك هدية، أم نسيك؟

كان جاد مندهشاً من حديث الطبيب إلى نورا، وهي في غيبوبتها لا تحرك ساكناً، وقد لاحظ الطبيب اندهاش جاد فشرح له:

-هي في غيبوبة نعم، لكنها تدرك ما يجري حولها من خلال الصوت، لكن ردود فعلها ضعيفة جداً، يمكنك التحدث إليها بما تحبه فهذا يساعد ويسرع في شفائها.

اقترب جاد من رأس نورا وراح يسألها:

-نورا، هل تسمعيني يا حبيبتي؟

كرر السؤال عدة مرات، ولم يتوقف إلا عندما هزه الطبيب وأشار إلى الإصبع الشاهد ليدها اليمنى، فقد اهتز قليلاً.. تهلل وجه جاد وعاود السؤال وهو يركز نظره على إصبعها:

-نورا، هل تسمعيني يا حبيبتي، أنا بخير وحسن بخير.

اغرورقت عينا جاد وهو يرى حركة إصبعها، لقد حركته مرتين، أمسك يدها بكلتا يديه وهو يردد:

-ستستفيقين بإذن الله...

قال الطبيب وهو يضع أدواته في الحقيبة ويهمُّ بالخروج:

-حالتها مستقرة، بل لاحظت بعض التحسن في نبضها ودقات قلبها، ربما عودتك رفعت معنوياتها.

ألحَّ جاد على الطبيب ياكوب أن يتناولا القهوة، كانت هذه الدعوة أكثر من كونها تعبيراً عن الشكر للطبيب اليهودي، مع كل المأساة التي يعانيها جاد،

إلا أنه ظل مشغولَ الذهن بقضيته الكبرى، وقد أراد بفطنة وذكاء أن يستدرج الطبيب ياكوب، لعلّه يحصل منه على معلومات تفيده في موضوع استيلاء اليهود على أراض في فلسطين، فقبل ياكوب الدعوة..

جلسا في الصالة الكبيرة، وبادره الطبيب ياكوب بعد أن وضع حقيبته جانباً:

-علمت أنك كنت ضابطاً في حرس السلطان المعزول.

-نعم صحيح. رد جاد.

-لقد كانت مؤامرة كبرى على السلطان قامت فيها جمعية الاتحاد والترقي بمساعدة بعض الدول الأوروبية، لكنّ المحرض الرئيس كان بعض اليهود المتغلغلين في الاتحاد والترقي بعد أن رفض السلطان الموافقة على مشروع ثيودور هرتسل.

صمت قليلاً، ثم أردف مكملاً تصوره:

-أعتقد أن الإمبراطورية العثمانية ستتفكك، هناك بوادر حرب قريبة خلال سنوات قليلة قادمة وسيكون العثمانيين هم الطرف الأضعف في هذه الحرب.

كانت الدهشة بادية على جاد وهو يستمع إلى حديث ياكوب، ورأيه الذي عاكس كل توقعاته عنه، وحكمه المسبق عليه، فبادره بالسؤال المهم الذي ينتظر إجابته ليحدد طبيعة هذا الشخص الجالس أمامه:

-وما رأيك بمشروع هرتسل.

ظهر الانزعاج على وجه الطبيب ياكوب وهو يقول:

-هذا المعتوه المدعو هرتسل، تستغله الدول الأوروبية لتنفيذ أجنداتها في المنطقة على حساب اليهود ودمائهم، وهو وأمثاله يعتقدون أنهم يستغلون الأوروبيين لتحقيق حلمهم بدولة يهودية.. لطالما عانى اليهود من عقدة نقص خطيرة، فهم يظنون وعلى مدى ثلاثة آلاف عام أن كل مشاكلهم ستحل إذا ما أصبح لهم دولة خالصة، فعلى مدى العصور كان اليهود يتعرضون للاضطهاد في بعض الفترات من المجتمعات والدول التي عاشوا فيها، وأحياناً كانت تصل حد المذابح في (جيتوهاتهم) التي كانوا يعزلون أنفسهم فيها، رغم أن هناك غيرهم تعرضوا لما تعرض له اليهود، محاكم التفتيش في الأندلس مثلاً اضطهد فيها المسلمين واليهود.

ثم يأتينا هذا المعتوه الحالم، ليعلن أنه ينوي أن يشيد جيتو كبير ويسميه الدولة اليهودية، يريد أن يستبدل ما كان يعرف في كثير من الدول والمدن بالحيّ اليهودي، إلى حيٍّ أكبر يسميها الدولة اليهودية، وأين؟ انظر إلى المهزلة يا عزيزي، يريد أن يقيم دولته على أرض العرب والمسلمين، هؤلاء الذين لم يحدث أن تعرضوا لنا بالأذى يوماً، بل على العكس فقد احتضنونا عندما

اضطهدنا الآخرين، وحتى لو نجح هذا المعتوه في مبتغاه، فما هي الفترة التي سيبقى محافظاً على نجاحه، ومتى ستأتي لحظة الحقيقة، اللحظة التي سيندم عليها كل المنظرين للدولة اليهودية، عندما تحدث المذبحة الأكبر في تاريخ اليهود..

توقف عن الكلام بعد أن دخلت أم جاد بالقهوة، ونهض جاد يقدمها له، وهو في حالة من الدهشة والاستغراب!!

ثم تابع الطبيب ياكوب تنظيره السياسي:

-نحن اليهود كنا بصفكم عندما احتلكم الصليبيون، كم بقي الصليبيون في هذه البلاد، خمسمائة عام، تصور يا عزيزي خمسمائة عام ورحلوا في النهاية، لا أحد من هؤلاء يدرك أنه سيكون نبتاً شاذاً في محيط متجانس، انظر إليّ أنا مثلاً، قدمتُ إلى القدس منذ سبع سنوات، بعد أن أوقفت الدولة العثمانية ممانعتها لأن نسكن في القدس، أو بصورة أدق غضَّت الطرف عنا نحن اليهود، ماذا أريد أكثر من ذلك، لماذا نتبع دائماً السلوك الخاطئ مرة تلو الأخرى؟... لماذا أستعدي أهل البلاد وأشعرهم أنهم في خطر مني؟، لماذا في كل بلد وفي كل مرة نأتي بالتصرف الغبي نفسه الذي يجلب علينا الويلات في النهاية؟!

أخذ رشفة من فنجانه، وكأنه يريح حنجرته، فسأله جاد:

-هل ما تقوله حقيقي أم أنك تجاملني كعربيّ، وتسمعني ما يريحني؟

لم يفكر ياكوب كثيراً وهو يعاود شرح تفكيره:

-ليس كل اليهود صهاينة يا عزيزي، بل إنّ ما يسعى إليه هرتسل وأمثاله في تنظيمهم البائس، يعارضه كثير من المثقفين والمفكرين والسياسيين اليهود، وكثير من المتدينين أيضاً، فهو مخالف لتعاليم الربِّ، الربُّ لم يأمرنا بإقامة دولة، الربُّ كتب علينا الشتات وأنبأنا بذلك، ودولتنا سيقيمها المخلِّصُ، والمخلّصُ لم يأتِ بعد، هؤلاء يكفرون بتعاليم الربِّ، ويتمردون عليه، أنا لن أوفر جهداً في مقاومة مسعى هرتسل وأعوانه، وهناك مثلي كثيرون، يطلبون رضا الربّ، ويرضخون لمشيئته التي كتبها علينا...

وهنا قرر جاد أنْ يجسَّ نبض ياكوب:

-أنا وكثيرون يمكننا أن نساعدك في هذا الأمر، ويُفضّل أن يكون هناك تعاون بيننا، هل يمكنك أن تساعد في منع إقامة هذه الدولة؟

رد ياكوب بحماس:

-بكل ما أوتيت من قوة، فهذه الدولة التي يسعون إليها مخالفة للعقيدة اليهودية، وستنتهي بنا إلى كارثة.

قال جاد بتردد:

-بما أنك يهودي هل تمانع في إخباري عن عمليات شراء الأراضي التي يقوم بها اليهود، أو التي يستولون عليها، وعن التنظيمات التي يشكلها التابعون لهرتسل، والأسلحة التي يجلبونها من أوروبا؟

لم يجِب ياكوب في بداية الأمر وصمت كثيراً يفكر، حتى ظنّ جاد أنّ الرجل مات، قال بعد أن تململ على كرسيه:

-شراء الأراضي؟ وما المشكلة في شراء الأراضي ما دام يتم دفع ثمنها، وبموافقة البائع والمشتري.

استدرك جاد محاولاً طمأنة ياكوب:

-أقصد ما يشتريه التابعون لتنظيم هرتسل، وتلك المساحات الكبيرة من الأراضي التي تستولي عليها تنظيمات صهيونية، وتلك التي يتم التزوير ورشوة موظفي الدولة للاستيلاء عليها.

هزَّ ياكوب رأسه:

-لا بأس، سأزودك بأي معلومة أشك في أنها تخدم مسعى أولئك الصهاينة فيما ينوون القيام به.

ابتسم جاد وهو يقدم له الشكر مرة أخرى على اعتنائه بزوجته وعلاجه لها، ثم سار معه بعد أن استاذن بالانصراف حتى البوابة، وصافحه بحرارة.

وكان الطبيب ياكوب أول جاسوس يهودي يتم تجنيده لصالح العرب.

كانت غالبية اجتماعات جاد مع رجاله من أنحاء البلاد تتم في بيته، خلال شهري نوفمبر وديسمبر استطاع جاد ورجاله استعادة مئات الدونمات بوسائل وأساليب متعددة منها اللجوء إلى القضاء، ودفع الضرائب المتأخرة عن أراضٍ استولت عليها الدولة لعجز مالكيها عن الدفع، وكانت في طريق بيعها لليهود... وخلال هذين الشهرين استطاع جاد ورجاله شراء تسعة وعشرين قطعة سلاح ما بين بندقية ومسدس، سلّح جاد بعض رجاله بعدد منها وتم تخزين الباقي في بيته، خلال هذين الشهرين التقى جاد بالطبيب

ياكوب كثيراً بحكم متابعة الطبيب لصحة نورا، وزود ياكوب جاد بكثير من المعلومات عن خطط ووسائل الصناديق الصهيونية اليهودية لتملّكِ مزيدٍ من الأراضي في فلسطين وجوارها، وأسماء الإقطاعيين المتواطئين، لكن أخطر معلومة تهم جاد شخصياً، كانت يوم الأحد السابع عشر من شهر ديسمبر (كانون أول)، عندما أخبر ياكوب جاد أنّ الشاب الذي كان يأويه جاد في بيته هو يهودي يدعى زيون، وأنه كان وليد علاقة غير شرعية بين ضابط بريطاني وابنة أحد أكبر الحاخامات في بريطانيا، وأنه تربى في بيت دينين واختفى في ظروف غامضة قبل أكثر من ثلاث سنوات، صحف بريطانية نشرت قصة زيون، أوجعت هذه المعلومة جاد بشدة، كان يكزُّ على أسنانه وهو يستمع لياكوب، وعندما سأله إن كان لديه معلومة عن مكان تواجد زيون الآن، جاء رد ياكوب بالنفي، إلا أنه وعده أن يحاول الاستقصاء عن هذا الأمر، وقال وقد بدت ملامح الحرج على وجهه:

"أود أن أقدم اعتذاري لك ولأهل بيتك".

قاطعه جاد في محاولة لرفع الحرج عن ياكوب:

"ليس عليك أن تعتذر عما لم تفعله، لدينا في القرآن الكريم آية تقول: (وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى)، صدق الله العظيم".

قال الطبيب ياكوب وهو يزم معطفه على صدره كمن يشعر بقشعريرة البرد:
"أشعر بالخزي والعار أن يكون يهودياً هذا الذي ارتكب هذه الشنيعة في بيت من آواه وعطف عليه"
تابع ياكوب بعد لحظات صمت:
"نكران الجميل من أسوأ أنواع السلوك البشري وأكثرها إيلاماً"
"فكيف إذا رافق نكران الجميل طعنة غدر وأذى، إنها الخطيئة الأشنع والأقسى على النفس البشرية".

كان الطقس ماطراً وشديد البرودة مع حلول العام الجديد **1912**م، والمصائب لا تأتي فرادى كما يقولون، فمع ظهيرة يوم الفاتح من يناير (كانون ثاني)، كان سعد ابن الشيخ غياث يطرق باب جاد بقوة وهو بحالة يرثى لها، وقد أرهقه السفر وبلَّلَهُ المطر...

أولُ التشرُّدِ

وقع خبر مقتل الشيخ غياث وشقيقه متعب كالصاعقة على جاد، بعد أن هدأ سعد قليلاً راح يسرد لجاد ما حدث، وكيف هاجمهم أولئك الغرباء أمس على حين غرة، وأنّ والده وعمه كانا في مقدمة المتصدين للهجوم، لكن الغرباء كانوا يملكون الكثير من البنادق، وأنه تم قصف بيوتهم بمدفع تمركز أعلى الجبل، وهم يحتلون بلدتهم الآن.

-قتلوا أبي وعمي وسبعة آخرين من رجال القبيلة.

-لقد واجههم رجالنا بشجاعة كبيرة بالسيوف والخناجر، أنت تعلم أننا لا نملك في القبيلة سوى ثلاثة بنادق، تلك التي زودتنا بها العام الفائت.

قال جاد وهو يضم قبضته بقوة ويزم شفتيه:

-لقد حذرت والدك من هؤلاء اليهود الأوروبيين الذين حطوا قريباً منكم، نبهته بعد أن لاحظت أنهم يشيدون تحصينات تشبه تلك التي تشيدها الجيوش.

توقف جاد عن الكلام وكأنه تذكر زيون القبيح، قال بنبرة النادم:

-يبدو أنّ طيبتنا تصيبنا في مقتل... نشفق على صغير الذئب فندخله بيتنا، وننسى أنه سيكبر يوماً ما، ويستعيد طبع الغدر والافتراس.. نتغاضى عن فراخ الثعابين في منازلنا معتقدين أنها ستبقى فراخاً ولن تلدغنا.

نهض جاد من مكانه واقترب من سعد وربت على كتفه مواسياً وهو يسأله:

-وأين بقية رجالكم؟ أين النساء والأطفال؟

-تشردوا.. لجؤوا إلى جبال البلدة في الجهة الشمالية الغربية، وقد جئت طالباً النجدة، كان رأي بعض الرجال أن نتوجه بالاستغاثة للقبائل المجاورة لاستعادة بلدتنا، لكني وآخرين كان لنا رأي مخالف فقررنا أن نلجأ لك، فكل القبائل المجاورة لا تملك السلاح الذي يمكن أن يواجه أسلحتهم، لا يملكون سوى سيوفهم، والوحيد الذي يمكنه أن يؤمن لنا السلاح هو أنت، ونحن كفيلون باستعادة بلدتنا، وسندفع كل ما نملك ثمناً للسلاح الذي ستزودنا به.

أشار جاد لسعد بيده بحركة توحي له بأن يتوقف:

-لا تتحدث هكذا يا سعد، هذا العدوان على الجميع، وليس على قبيلتكم فقط، ولن يكون العدوان الأخير، لكني أريد منك أن تركز جيداً وتجيبني بدقة.. كم تقدِر عدد اليهود الذين هاجموكم؟

رد سعد بعد لحظات تركيز:

-لا أعرف بالضبط لكن ربما يتجاوز عددهم الأربعين رجلاً، لكنهم مدربين جيداً على ما شاهدت في المعركة..

-هل قتلتم منهم؟

-نعم، قتلنا ثلاثة بشكل مؤكد.

-هل جميعهم مسلحين ببنادق؟

-جميعهم، إضافة إلى المدفع الذي أخبرتك به.

-حسناً، يمكنك أن تنام الآن وترتاح، سيكون يوم الغد يوماً شاقاً.

عاصفةٌ، الريحُ عاتية
بشدةٍ تتمايلُ شجرةُ السِّدر
يقاومُ الانتزاعَ عشُّ اليمام

المعركة

في اليوم التالي انطلق سعد ليحشد متطوعين من القبائل المجاورة في الخليل وبئر السبع وبيت لحم، كما طلب منه جاد وأوصاه بأن تكون الحركة بأعداد قليلة والتجمع عند نهاية وادي الدرجة وهو امتداد لوادي (مشاش) الوادي الذي تجري فيه مياه الأمطار من جبال القدس وبعض العيون المائية لينتهي مصبه في البحر الميت، ووادي الدرجة وادٍ صخريٌّ صعب المسالك وهو مكان مناسب لاختفاء رجال جاد وتجمعهم هناك، وكان يوم الخميس هو موعد يوم التقاء المجموعتين عند مصب وادي درجة، قال أنه سيستدعي الرجال المدربين من أنحاء البلاد وسيوافي سعد في الموعد، وحذّره من ارتفاع منسوب مياه الوادي، ونصحه بأن يتفرق رجاله إلى الصخور العالية بعيداً عن السيل...

في ضحى يوم الخامس من يناير كانت صخور وشعب وادي الدرجة تخفي استعدادات جاد ورجاله لتحرير بلدة عين جدي... في الوادي يندفع سيل عرم.. كثعبانٍ فاغراً فاه.. يبتلع من في طريقه.. وكان من بين الذين قدموا مع جاد، ذاك الشاب اليافع ذو الجسم الصغير يتحرك بين الصخور برشاقة وخفة كالفهد إنه جاد الصغير ابن عم جاد، كان جاد شديد الحرص في التخطيط للمعركة، كيف وهو الضابط السابق المتميز في الجيش العثملي،

وعندما حثه سعد باندفاع واضح بأن يبدؤوا الهجوم، طلب من سعد الهدوء والتروي واتباع تعليماته، وأظهر جاد شخصيته القيادية، عندما أبلغ الجميع بأنه لا يطلب منهم طلبات، إنما يعطيهم أوامر، ويجب أن تنفذ دون اعتراض أو تقاعس.

اجتمعَ لجاد خمسة وخمسون رجلاً، منهم واحد وعشرون رجلاً مسلحين بالبنادق، والباقي يحملون سيوفهم، مع حلول الظلام خرج الجميع من فم وادي درجة، وتجمعوا إلى جانبه، رغم أنهم في فصل الشتاء، إلا أن الأغوار تمتاز بالدفء في هذا الفصل من السنة نظراً لارتفاع الضغط الجوي عند هذا الانخفاض عن سطح البحر، مما يرفع حرارة الطقس، وهو ما يدفع الكثير من البدو للهبوط بماشيتهم من مناطقهم المرتفعة إلى الأغوار طلباً للدفء، كل عام يحدث ذلك على جانبي نهر الأردن وامتداد واديه من بحيرة طبريا شمالاً وحتى أم الرشراش والعقبة جنوباً، بعض الخلفاء الأمويين اتخذوا من الأغوار مكان إقامة لهم طلباً للدفء في الشتاء، وغور أريحا شاهد على قصورهم هناك.

بعد انتصاف الليل، طلب جاد من سعد أن يجمع كل الرجال، وقف جاد بجانب فرسه المدهشة، حاملاً بندقيته وخطب فيهم، تهيئة لهم للمعركة، بعد أن حمد الله حمداً كثيراً وصلى على رسوله الأمين قال:

أيها الرجال، ها نحن ندخل في يوم الجمعة المبارك، سندخل بلدتنا لندفع الشر عنا، وندافع عن أرضنا وشرفنا، بعضكم يسأل لماذا لا نهاجم هؤلاء

الأوغاد نهاراً؟ ونستعيد بلدتنا، يقولون أن الليل أعمى، لكني أقول لكم بكل صدق، هؤلاء اليهود الصهانية الأوغاد يحتاجون ضوء النهار لعدوانهم، نحن لا نحتاج النهار، قلوبنا التي ستحارب وليست عيوننا.. نحن نحارب في الليل كما النهار، هذه أرضكم، أديمُها من رفات أجدادكم، وهواؤها فيه بقية من أنفاسهم، هي أول من عرفتكم وعرفتموها، تحفظون شعابها ومسالكها عن ظهر قلب، كل حجر يعرفكم وتعرفونه، كل شجرة تعرفكم وتعرفونها، تعرفون كل مغائرها، كل أوكار الضباع وجحور الأفاعي، هذه بلادكم لستم بحاجة لأدلّاء أو أضواء، هذا يومكم... مجموعة رجال البنادق في الأمام وليتأكدوا من حشو بنادقهم، وخلفهم مجموعة السيوف، الأولى تقتحم البيوت، والثانية خلفها تطهر، لا أفضل الحصول على أسرى، لن نترك حجةً ليتحدثوا معنا فيها أو موضوعاً يفاوضونا عليه، لا تأسر، ولا تقع أسيراً، ووالله لإنْ نجا منهم أحدٌ لنندمن أشدّ الندم لسنين وأجيال كثيرة قادمة.. لديهم مدفع أعلى الجبل، لن يستطيعوا استخدامه أثناء المعركة، لكنه قد يقلب المعركة بعد انتصارنا وطردهم.. من لي بهذا المدفع؟

بعد لحظات صمت، تقدم جاد الصغير الصفوف:

-أنا سأكفيك شر هذا المدفع..

نظر جاد إلى ابن عمه وهو يتأمل نحول جسده وقال له:

-حسناً، عندما نبدأ بالاقتحام، تنفصل عنا، يجب أن تصل إلى هذا المدفع وتوقفه.

-سأفعل بعون الله يا ابن العم. رد جاد الصغير

بدأ المطر يتساقط، وأخذت الأرض تتنفس حبات المطر فقاعات، فقال جاد:

-الحمد لله، إن الله معنا، صوت المطر سيصم آذان هؤلاء الأوغاد عن سماع صوت حركتنا حتى نقترب بما يكفي للاقتحام، لن نسير على الطريق المحاذي للشاطئ، سنتحرك غرب البحر ونسير بمحاذات بطن الجبل..

رفع بندقيته وهزها:

-على بركة الله، الله أكبر

سار الجميع يتقدمهم جاد باتجاه البلدة ...

مطرٌ غزيرٌ، برقٌ ورعدٌ، سيوفٌ مشهرةٌ، بنادق محشوة ونفوس متأهبة للرجوع إلى ربها راضية مرضية.. مع بدء اقتحام البلدة لتحريرها، انفصل جاد الصغير عن المجموعة، وركض غرباً باتجاه جبل المدفع حيث أشار له جاد، متسلحاً بخنجره فقط، احتاج خمس دقائق للوصول إلى أسفل الجبل، اتضحت لجاد الصغير تضاريس الجبل مع الضوء الذي التمع لبرهة عندما أبرقت السماء، رأى الصخور التي سيتسلقها، كان الأمر صعباً مع ماء المطر المنساب من الأعلى إلى الأسفل، لكنه كان مصمماً على النجاح في مهمته، فمصير المعركة متوقف عليه، بدأ بتسلق الجبل، ولم يتوقف عن التحدث إلى نفسه محفزاً إياها، وقد أخذ منه الإعياء، ينزلق حيناً، ويتقدم أحياناً، وهو يردد: "ستفعلها، ستنجح أيها الصغير".. "أنت قادر، أنت أقوى من الجبل، أنت أشد من المطر، ستفعلها أيها الصغير، لا تتوقف، لاتستسلم، لا

تتراجع".. وصوت الطلقات وصرخات الرجال تصله من بعيد.. ما أنْ اجتاز آخر الصخور، حتى وجد نفسه على سطحٍ شبه مستوٍ عند قمة الجبل، انبطح لاصقاً جسده بالأرض، لدقائق قليلة، بقي ساكناً دون حراك وهو يلتقط أنفاسه سريعة وعميقة، ما أن شعر بأنَّ جزءاً من قواه عادت، حتى رفع رأسه ببطءٍ محاولاً استكشاف المكان، وقد حلَّ الوقت الذي يبان فيه الخيط الأبيض من الأسود، أصوات قريبة، دقق النظر مع التماع البرق، كان المدفع على مسافة مائة مترٍ إلى الشمال، يتموضع في حفرة صغيرة، وأمامه منحدر صخريّ حاد.. أخذ يزحف ببطءٍ على بطنه، كانت ثيابه مشبّعة بالمياه وملطخة بالطين، كان يتوقف بسكون كلما لاح برق، عندما بدأ المدفع بقصف البلدة، اطمأن جاد الصغير، تذكر حديث ابن عمه وقائده جاد، هذا يعني أنّ البلدة تخلو الآن من اليهود، وأنّ الرجال تمكنوا من تحرير البلدة، على بُعد عشرين متراً استطاع جاد الصغير تمييز وجود ثلاثة رجال قرب المدفع، ويبدو أنه لا يوجد غيرهم هنا على الجبل، يبدو أن الجميع ترك هذا المخيم واستوطن البلدة بعد طرد سكانها، كان ثلاثتهم ضخام الجثة، أحدهم خلف المدفع، فيما الآخران يقومون بحشو المدفع بعد كل قذيفة، بعد أن أدرك آلية تجهيز المدفع، قرر أن يفصل الرجال الثلاثة عن بعضهم ليتمكن من التغلب عليهم، انتظر اللحظة المناسبة، بعد أن أشعل الرجل الذي خلف المدفع الفتيل، انطلقت القذيفة محدثاً صوتاً قوياً اختلط مع صوت الرعد، ما أن بدأ الرجلان الآخران بحشو فوهة المدفع، حتى التقط جاد

الصغير حجراً ورماه خلف المدفع وهو في حالة الانبطاح، توقف الرجال الثلاثة ينصتون، لم يسمعوا شيئاً، تحرك الرجل الذي خلف المدفع ليتفقد المكان حيث مصدر الصوت، بينما واصل الآخران حشو المدفع.. ما أن ابتعد الرجل باحثاً عن مصدر الصوت، حتى تبعه جاد الصغير زاحفاً في البداية حتى اقترب منه من الخلف مسافة ثلاثة أمتار، نهض جاد الصغير مستلاً خنجره، وركض بجسده النحيل بكل قوة، وبحركة واحدة قفز على ظهر الرجل واضعاً يده اليسرى على فمه، وبيده اليمنى نحر رقبته، لم يتمكن الرجل من إصدار أي صوت كان جاد الصغير يكتم أنفاسه بيده، راح الرجل يدرو في مكانه محاولاً التخلص من جاد الصغير الذي التصق بظهره كنمر أطبق على رقبة فريسته، لم ينفك جاد الصغير عن ظهر الرجل حتى انهار الرجل وسقط على الأرض جثة هامدة.. تركه جاد وراح يزحف باتجاه المدفع، تعالى صوت الرجلين يناديان على صاحبهما ليشعل الفتيل بعد أن انتهيا من حشو المدفع.. أصبح جاد الصغير على بعد عشرة أمتار خلف المدفع، ملتصقاً بالأرض، قدّرَ جاد أنه لن يستطيع التغلب عليهما إذا ما دخل معهما في صراع، وكل منهما يحمل بندقية على كتفه، كان الرجلان أمام المدفع ينظران إلى أسفل المنحدر الجبلي يحاولان استكشاف دقة إصابة قذائف مدفعهما، بسرعة قرر جاد الصغير الخطوة القادمة، نطق الشهادتين، ثم نهض بسرعة، واندفع بكل قوته وسرعته باتجاه الرجلين اللذين انتبها لجاد الصغير وهو يصرخ "الله أكبر"، لكن سرعة جاد الصغير لم تسعفهما

لإبداء أي ردة فعل، فتح جاد ذراعيه، وقفز آخذاً بكل ذراع رقبة واحد منهما بحركة واحدة وفي نفس التوقيت، دافعاً نفسه معهما إلى المنحدر الصخري الحاد، فسقط ثلاثتهم يتدحرجون، ترتطم أجسادهم بالصخور، كوّر جاد الصغير جسده أثناء السقوط ككرة متدحرجاً إلى أسفل الجبل، محيطاً رأسه بذراعيه لحمايته من صدمات الارتطام...

عندما استقر جسم جاد الصغير أسفل الجبل، كان في غيبوبة، وعندما أفاق منها على قطرات المطر تضرب وجهه، لم يكن قادراً على الوقوف، شاهد قصبة رجله اليمنى مقسومة إلى قسمين والدماء تنزف منها، وقد انخلع إصبع يده اليسرى من مكانه، في البداية لم يكن يشعر بألم، جال ببصره باحثاً عن الرجلين، شاهد أحدهما على بعد ثلاثين متراً، بدا له جثة هامدة، فيما لم يجد أثراً للرجل الآخر، سكت المدفع، لكن القدر لا يسكت أبداً...

البئر المهجورة مرة أخرى

مع شروق شمس يوم الجمعة، كان أطفال البلدة ونساؤها يهرعون من الجبال المحيطة إلى بيوتهم بالزغاريد والأهازيج، وكانوا قبلها يتابعون منذ بعد منتصف الليل أصوات إطلاق البنادق بالدعاء والتضرع إلى الله أن ينصر رجالهم ويسدد رميهم، بعض النسوة شاهدن جاد الصغير الذي كان ينزف وغير قادر على الحركة، فقامت النسوة بحمله ونقله إلى بيت الشيخ غياث لإسعافه.. في هذا الوقت كان جاد ورجاله يطاردون فلول العصابة الذين فروا باتجاه الجنوب، استمرت المطاردة عدة ساعات إلى حدود قلعة مسعدة، هرب بعضهم باتجاه الأودية الكثيرة واختفوا فيها وبعضهم تسلق جبل قلعة مسعدة.. تم الإمساك بأحدهم وكان في نهاية العقد الثالث من عمره، وعندما استجوبه جاد –وقد كان يجيد اللغة الانجليزية إضافة للتركية والألمانية– قال له كلاماً غريباً لا يكاد يصدق، قال الشاب أنه لا يعرف أين هو .. قال:

–أنا مواطن بولندي كنت سجيناً هناك وحكم عليّ بالإعدام لقتلي أحد جيراني أثناء مشاجرة بيننا.. وقبل موعد إعدامي بعشرة أيام تم نقلي ومجموعة من السجناء بواسطة القطار، ثم تم وضعنا على ظهر سفينة أبحرت

عدة أيام، إلى أن وصلنا هذه البلاد، ثم نقلوني إلى هذا المخيم منذ أسبوعين وقالوا لنا: "الربّ كتب لكم حياة أخرى، فقاتلوا من أجلها".

سأله جاد كم عدد الذين قدموا معه:

-كنا أكثر من خمسين رجلاً مكبلاً على نفس السفينة، لكن كان هناك آخرون يا سيدي، لكنهم لم يكونوا مثلنا مكبلين، أقسم يا سيدي أنني لا أعرف اسم هذه البلاد، زملائي أخبروني أنها أرض الميعاد، لكني لم أصدقهم.

سأله جاد عن ديانته وجنسيته، قال متردداً:

-يهودي بولندي يا سيدي.

هزّ جاد رأسه، في إشارة إلى أنه كان يتوقع..

أمر جاد رجاله بأن يتم ربط الأسرى التسعة الذين استسلموا أثناء المعركة وخلال المطاردة، ونادى على أحد رجاله الذين قدموا من حيفا وكان يدعى إلياس وقال له:

-الأسرى في عهدتك يا إلياس، تأخذ معك ثلاثة رجال، وتوصلهم إلى حيفا وتضعهم على أي سفينة متوجهة إلى أوروبا، فليعودوا إلى أوطانهم من حيث جاؤوا...

قال إلياس وهو يسحب الأسير:

-اعتبر الأمر تم يا أبا حسن.

أثناء عودة جاد ورجاله إلى عين جدي اجتاحه الحنين عندما وصل البئر المهجورة التي سقط فيها قبل سنتين وجمعته بنورا فتوقف، وتوقف معه

الجميع، لكنه طالبهم بالاستمرار بدونه، لأنه سيتريث هنا قليلاً، وأمر سعد بأن يصعد ومعه بعض الرجال عند وصوله إلى مخيم الغرباء ويفككه، ويبحث فيه عن أسلحتهم المخزنة...

سار الجميع باتجاه البلدة المحررة بينما بقي جاد قرب البئر بعد أن ترجل عن فرسه، وداهمته ذكريات محنته ونورا في هذه البئر، وعندما وقعت عيناه على رُجم الحجارة قرب البئر، تذكر مسدسه الذي خبأه بين الحجارة، راح يزيل الحجارة إلى أن رأى المسدس، كان في حالة سيئة، وقد نال منه الصدأ، أمسكه وتقدم خطوات باتجاه البئر، جلس على فوهة البئر، وهو ينظر إلى السماء ويتضرع:

يا من أغثت يونس في بطن الحوت.. أغث عالقاً بين الحياة والموت

دوّت طلقة، شقت سكون المكان، وتبعها صهيل المدهشة، حاول جاد النهوض فلم يستطع، كانت طلقة في الظهر، أصابت العمود الفقري، فشلت قدميّ جاد.. كان أحد رعاة الغنم يخرج من بطن الوادي المجاور على بعد مئتي مترٍ، اختفى بعد سماع دوي الطلقة خلف صخرة يراقب المشهد، تقدم ثلاثة رجال باتجاه جاد، كان المسدس ما يزال في يده، لفّ رأسه إلى الخلف موجهاً المسدس إليهم، ضغط على الزناد، لكن المسدس فاسد لم يصدر عنه سوى صوت خفيف، حاول إنزال البندقية عن كتفه، لكن الرجال الثلاثة كانوا أسرع منه، فجردوه منها، ودفعه أحدهم بكعب بندقيته فتدلى رأسة داخل البئر، وظهره على الحافة، ثم جاء أحدهم وجثم

على صدر جاد ، جحظت عينا جاد وهو يشاهد هذا الذي يطبق على صدره، إنه هو بوجهه القبيح:
-أنت أيها المسخ!... قال جاد

وزيون يصوب مسدسه إلى رأس جاد، شعر جاد بصدره يغلي، وهو يحاول تحريك قدميه دون جدوى.. مد يده يتحسس خنجره، بصق في وجه زيون، واستل خنجره وطعنه الطعنة الأولى في مؤخرته، فنهض زيون يصرخ، فأتبعها جاد طعنة ثانية أسفل فخذه، فانغرس الخنجر بقوة خلف ركبة زيون، ، فانتفض زيون وسقط على ظهره، وهو يصدر صوتاً شبيهاً بصوت الضبع الجريح، ثم نهض وسحب الخنجر من ركبته وجثم مرة أخرى على بطن جاد، وراح يكيل له الطعنات في صدره، وجاد يصرخ في وجهه: "اطعن أيها اللقيط، اطعن يا ابن الملعونة، اطعن يا ابن الزنا، اطعن يا ابن العاهرة" كان زيون يستطيع قراءة الشفاه، فلم يتوقف عن طعن جاد حتى رأى أنه أسلم الروح لخالقها، ترك الخنجر مغروساً في صدر جاد... ثم هرب الرجال الثلاثة بسرعة، كان الرجلان يمسكان بزيون يحاولان مساعدته على المشي، كان دمه يتدفق من مؤخرته ورجله وهو يتكئ عليهما، يعرج في مشيته، فزاد العرج قبحه قبحاً.. في الوقت الذي كان فيه أهالي عين جدي يحتفلون بتحرير بلدتهم بالأغاني والزغاريد، كان جاد يسلم الرّوح...

بعد أن اختفى ثلاثتهم خلف الصخور واطمأن راعي الغنم أنهم ابتعدوا، هرع إلى حيث جاد، فوجده قد فارق الحياة...

مع انطلاق الآذان ليوم الجمعة الخامس من يناير (كانون ثاني) لعام **1912**م استشهد جاد الله نور الدين عبد الوارث البرقاني قرب شواطئ البحر الميت الغربية في بلدة عين جدي بعد أن حررها من أول احتلال صهيوني...

نقل جثمان جاد إلى القدس وصُلي عليه في المسجد الأقصى، وخرج في تشييعه جمع غفير، جاء كثيرون منهم من مختلف نواحي البلاد، وخلف النعش مباشرة سارت فرسه المدهشة، وشاهد من في المقدمة دموعاً تنهمر من عيني المدهشة، تلك الفرس التي تمردت على الجميع بعد مواراة جثمان فارسها، رفضت أن يمتطيها أحد أو يمسك برسنها، رغم محاولات سعد بتهدئتها وتطويعها، صارت أشبة بالخيول البرية غير المدجنة، عندما حاول سعد الإمساك بها، قفزت عنه، وانطلقت تعدو إلى البرية ورؤوس الجبال، روى البعض أنه لمحها على قمم جبال القدس، وبعضهم قال أنه رآها في جبال نابلس، وآخرون أقسموا أنهم شاهدوها في جبال الخليل، البعض سمع صهيلها في الجليل، الشيء المؤكد أنها تمردت وترفض الخنوع لأحد بعد مقتل خيالها...

على الهامش

اليوم أكملت كتابة سيرة والدي الشهيد جاد الله رحمه الله، خططتها هنا مما سمعته على لسان جدتي حسنية (أم جاد) التي رعتني وربتني منذ كنت طفلاً في حكاياتها لي ما قبل النوم عبر ليالٍ كثيرة دون كلل أو ملل، ومما سمعته من أصدقاء والدي رحمه الله الذين التقيت بهم، ومما رواه لي أخوالي عائلة الشيخ غياث، لا أدري أين بالغت جدتي في بعض الأحداث، ولا أين غفلت عن بعضها، لكن ما أنا متأكد منه أنها كانت صادقة في كل جملة حدثتني بها، وأنها كانت مؤمنة في كل ما روته لي..

أنا كاتب هذه السيرة حسن بن جاد الله بن نور الدين بن عبد الوارث البرقاني، في الخامسة والثلاثين من عمري، أترك زوجتي وطفليّ لألتحق بالثورة ضد الإنجليز واليهود، بعد أن عمّ الإضراب العام كل أنحاء فلسطين احتجاجاً على سماح بريطانيا وتشجيعها هجرة واسعة لليهود إلى أرض فلسطين في السنوات السابقة لهذه العام **1936**م... بعد استشهاد والدي بسنتين اندلعت الحرب العالمية في عام **1914**، استمرت أربع سنوات هزمت فيها الدولة العثمانية، وخسرت كل المناطق والأقاليم العربية التي كانت تحت حكمها، وانتقلت السيطرة على هذه المناطق إلى الجانب المنتصر في الحرب، واقتسمتا كلٌّ من بريطانيا وفرنسا الهيمنة على الأقاليم العربية، فكان

العراق وفلسطين وشرق الأردن تحت انتداب الحكم البريطاني، فيما هيمنت فرنسا على سوريا، اندلعت ثورات في غالبية الأقاليم العربية المستعمرة، لكننا في فلسطين نواجه صعوبات أكبر من تلك التي يواجهها إخوتنا العرب، فنحن هنا نواجه عدوين في آن واحد وعلينا محاربتهما، الاحتلال البريطاني، والاستيطان الصهيوني الذي يتم بحماية بريطانيا وتشجيعها، بعد انكشاف وثيقة وعد بلفور **1917**م والتي منح فيها من لا يملك إلى من لا يستحق، والتي منحت فيها بريطانيا فلسطين للصهيونية اليهودية.

لا أدري ما يحل بي بعد كلماتي هذه، لكننا مصممون نحن الثوار على قتال عدوينا حتى الموت، وأتمنى ألّا تأتينا طعنة غدر من تلك الدويلات التي بدأت بالتشكل تحت مسميات عربية... هذه المخطوطة لأبنائي وأحفادي والأجيال القادمة، لأن مشكلتنا نحن العرب أننا منذ آلاف السنين اعتمدنا على النقل الشفوي للأحداث، والتي تختفي من التاريخ وتندثر بموت الناقلين، هأنذا أكتب سيرة والدي لإيماني بضرورة كتابة الأحداث وتوثيقها ...

تم بحمد لله

انتهى جهاد من قراءة الكتاب الذي وجده في الصندوق، كان حسن كاتب المخطوطة هو جده الذي استشهد في ثورة عام **1936**م، تنفس بعمق قبل أن يدقق في عدة أسطر كتبت بخط مختلف وصغير جداً أسفل الصفحة الأخيرة قرأها بصعوبة:

"استكمالاً لمخطوطة والدي فإني أرى ضرورة كتابة هذه السطور، انتهت ثورة عام **1936**م بالفشل بعد الحرب الشرسة التي شنتها بريطانيا على الثوار وتآمر بعض العرب عليها، ومكنت بريطانيا اليهود من احتلال فلسطين قبل انسحابها، وأعلن اليهود قيام دولة "اسرائيل" **1948**م، بعد مذابح ارتكبتها العصابات الصهيونية اليهودية أزالت فيها كثير من البلدات العربية من الوجود، ومنها بلدة عين جدي التي اقتحمتها عصابة الهاجانا الصهيونية وقتلت كل سكانها رجالاً ونساءً وأطفالاً ولم ينجُ منهم أحد، وأقاموا عليها مستوطنة بنفس اسم البلدة القديمة، بينما جرفت عصابة شتيرن الصهيونية بلدة برقان ومسحتها عن وجه الأرض وتشرد كل سكانها".

انتهت

المحتويات

في بطن الأرض رواية وأشياء أخرى ---------- 5
السَّبخة---------- 9
النداء ---------- 15
الشيب---------- 19
البئرُ المهجورة ---------- 25
طائر الحسُّون---------- 34
قبل ثلاثة أشهر ---------- 41
قُبلةُ الحياة---------- 68
اختفاء نورا ---------- 76
الحيلة---------- 89
سهرة ليلية---------- 96
المدهشة ---------- 104
الطريق إلى القدس---------- 107
علاقة غير شرعية---------- 115
المسخ ---------- 120
اجترار ---------- 124
دنين ---------- 131
ثلاثة أيام في القدس---------- 137
الوجه الآخر---------- 141
حوار ساخن---------- 146
نورا مرة أخرى---------- 160
الرهائن ---------- 166

الصبي الضّال---------- 182
التنظيم الأول ---------- 186
القدس مرة أخرى---------- 198
الحَدْسُ---------- 202
طعنةُ غدرٍ---------- 205
سلانيك---------- 209
أجاويد ---------- 212
في القطار الحجازي---------- 215
الرسالة ---------- 217
غيبوبة عميقة---------- 223
أول جاسوس ---------- 227
أولُ التشرُّدِ---------- 236
المعركة ---------- 239
البئر المهجورة مرة أخرى ---------- 246
المحتويات---------- 254

جاد

حبٌّ برائحةِ البارود
رواية

حيدر مسّاد

الطبعة الأولى
1442 هـ 2020 م
دار ديوان العرب للنشر والتوزيع
مصر – بورسعيد
جوال: 00201211132879

E-mail: mohamedhamdy217217@gmail.com